مبرة
الآل والأصحاب

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الإعداد
معتز المحتسب - خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة
نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

الإشراف: أبو مالك العوضي

الجزء الثالث

مبرة
الآل والأصحاب

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
قطاع الشئون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الإعداد
معتز المحتسب - خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة
نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

الإشراف: **أبو مالك العوضي**

الجزء الثالث

هذه المادة حصرية لـ
إدارة الثقافة الإسلامية
الريادة عالميا في العمل الإسلامي

الطبعة الأولى - دولة الكويت

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الثقافة الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw/thaqafa

تم الحفظ والإيداع بمركز المعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

رقم الإيداع: 186 / 2017

البابُ الثَّاني

في المُختارِ مِن كُتُبِ أميرِ المؤمنينَ ﷺ ورسَائِلِه

[٤٣١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ رضي الله عنه، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّاس بِالْجَابِيَةِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُقِمْ أَمْرَ اللهِ فِي النَّاس إِلَّا حَصِيفُ الْعُقْدَةِ[١]، بَعِيدُ الْغِرَّةِ[٢]، لَا يَطَّلِعُ النَّاس مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ، وَلَا يَحْنَقُ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّةٍ[٣]، وَلَا يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»[٤].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: رسالة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى واليه على الشام أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، والموضع الذي قرئ فيه الكتاب: الجابية، وهي مدينة بالشام، وباب الجابية بدمشق. يُذَكِّرُ أميرُ المؤمنين في هذه الرسالة واليَ الشام أمينَ الأمة = يذكره اللهَ في الرعية، وهو من باب التذكير ليس إلا، إذ ثبت عن الفاروق رضي الله عنه لما جاء الشام ورأى ما فيه أمين الأمة من شدة العيش قال: (**غيَّرتنا الدنيا كلنا غيرك، يا أبا عبيدة**).

لطائف لغوية: (أمَّا بعد): يقول عنها ابن الأثير: «وأما الاقتضاب: قطع الكلام

١- حَصِيفُ العُقدةِ: الحصيفُ: المُحكمُ العقلِ. والعُقدة: الرَّأي والتَّدبير. «لسان العرب» ٩/ ٤٨.

٢- في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦: (إِلَّا عَفِيفُ الْفِعْلِ، بَعِيدُ الْقَعْرِ). وقولُه: (بَعِيدُ الغِرَّةِ): الغِرَّةُ هي الغفلةُ. والمرادُ؛ أي: مَن بَعُدَ حِفظُه لِغفلةِ المُسلمينَ. «النِّهاية» ٣/ ٣٥٥.

٣- الحَنَقُ: الغيظُ. والجِرَّةُ: ما يُخرِجُهُ البعيرُ عن جوفِهِ ويَمضغُه. والمرادُ: لَا يَحْقِدُ على رَعِيَّتِه. فضَربَ الجِرَّةَ لِذلكَ مثلًا. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جرر).

٤- رواهُ أبو عُبَيدٍ في «الخُطَبِ والمواعظِ» (١٣٥)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥٤٤)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (١٠٩)، وابنُ عساكرَ في «تاريخ دمشقَ» ٤٤/ ٢٧٩. [وذكره ابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٣٣١) بلفظ (لا يقيم ... بعيد الغور)]

واستئناف كلام آخر غيره، بلا علاقة تكون بينه وبينه. فمن ذلك ما يقرب من التخلص، وهو: فصل الخطاب، والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه **(أما بعد)**؛ لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه = فصل بينه وبين ذكر الله - تعالى - بقوله: **(أما بعد)**. ومن الفصل الذي هو أحسن من الوصل لفظه هذا، وهي علاقة وكيدة بين الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره»[1]. وقد مرَّ بنا مزيد من البيان حولها عند شرح النص رقم اثنين وسبعين ومئتين.

البيان والبلاغة: استهل الفاروق ﷺ رسالته البليغة بقوله: **(أَمَّا بَعْدُ)**، ثم استخدم أسلوب القصر الإضافي بالنفي والاستثناء في قوله: **(فَإِنَّهُ لَمْ يُقِمْ أَمْرَ اللهِ فِي النَّاسِ إِلا ...)**، فالمقصور: **(لم يقم أمر الله في النَّاس)**، والمقصور عليه: **(حصيف العقدة ...)** إلخ، فَعُدَّ من قبيل القصر الإضافي؛ إذ إن القائم بأمر الله لابد أن تتوافر فيه تلك الصفات، ولكن ليس على سبيل حصر الصفات وإنما على سبيل ذكر بعضها، والغرض منه التخصيص. ثم يعدد تلك الصفات التي اشترطها في القائم بأمر الله فيقول: **(حَصِيفُ الْعُقْدَةِ)**، والحصفُ لغة هو: الشيء المحكم الذي لا خلل فيه، والعقدة: موضع العقد من الحبل، وأراد بالأولى: محكم العقل، وبالثانية: الرأي والتدبير، والتعبير ككل قصد به: المحكم في رأيه وتدبيره، وفيه استعارة مكنية؛ حيث شبه من حزم رأيه وأحكم تدبير أمره بمن أحكم عقدة الحبل. ثم يذهب إلى الصفة الثانية: **(بَعِيدُ الْغِرَّةِ)**: والغِرة، هي: الغفلة، والمراد بالتعبير السابق: ألا يغفل كباقي الرعية، وبما أن الغفلة والسهو من طباع البشر = فقد طلب منه أن يحرص أن يكون يقظًا أكثر الوقت وأن تكون غفلته بعيدة، وذلك من بلاغة الفاروق ﷺ أنه لما علم صعوبة الطلب أمره بما يستطيع

١- «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» (٣/ ١٣٩).

الاستجابة له، و(**بَعِيدُ الْغِرَّةِ**) كناية عن اليقظة. وقوله: (**لَا يَطَّلِعُ النَّاس مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ**): أمر بمراعاة الله وتعظيم حرماته في السر والعلن؛ لأن مَن حسنت سريرته حسنت علانيته؛ فإذا كان في الخفاء محمودا لم يطلع النَّاس من ظاهره على عورة. وفي هذا القول تعريض، وفيه أيضًا إلزام للوالي بأن يكون أسوة حسنة لرعيته. وقوله: (**وَلَا يَحْنَقُ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّةٍ**): الحنق لغة: شدة الاغتياظ، وأحنق الصلب: لزق بالبطن، والجِرَّة: ما يخرجه البعير من جوفه ويمضغه، والمقصود: ألا يحقد الوالي على رعيته، وفي التعبير استعارة مكنية؛ حيث شبه الحقد بما يخرجه البعير من جوفه ويمضغه ثم يرجعه إلى جوفه مرة أخرى، وفيه تصوير بديع لما يحدث من عملية الترجيع والتكرير للشيء كناية عن إضماره الحقد والغل، وفيه أمر ألا يحمل على رعيته غلا أو حقدا، وفيه تعريض - أيضًا - بالتواضع والضعة وخفض الجناح للرعية. وقوله: (**وَلَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ**): في القول تناص صريح بقول النبي ﷺ: «**أَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**»، وفيه لزوم قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا يداهن فيه النَّاس ولا يلتفت إلى لائميهم، بل يُغيِّر بكل ما يقدر عليه؛ من فعل أو قول، ما لم يخشَ آثار فتنة وتسبب منكر أشد منه. ثم جاء الختام بقوله: (**وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ**)، وقد جاءت رسالته - رضي الله تعالى عنه وأرضاه - بليغة خاضعة لقواعد الرسائل؛ حيث بدأت بقوله: (**من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح. سلام عليك**)[١]، ثم فصل الخطاب (**أما بعد**)، ثم الصدر ثم خاتمة (**والسلام عليك**)، وجاء ذلك في سياق بديع، واستخدم السجع؛ لخلق جرس موسيقي يشد انتباه المتلقي في قوله: (**الْعُقْدَةِ، الْغِرَّةِ، عَوْرَةٍ، جِرَّةٍ**). وقد جمع عمر رضي الله عنه في هذا النصِّ أهم

١- لم ترد تلك المقدمة في النقل الذي بين أيدينا وإنما ورد في غير مصدر؛ مثل: الإشراف في منازل الأشراف ص١٥٦، و«جامع الأحاديث» (٢٨/ ١٨٩)، و«كنز الأعمال» (٥/ ٧٧٦)، و«تاريخ دمشق» (٤٤/ ٢٧٩).

الصفات التي ينبغي أن يتحلَّى بها الأئمة، وقد شملت تلك الصفات ما هو مطلوب في الإمام وما يعين على إقامته للعدل بين الناس. وقد عرض أمير المؤمنين هذه الصفات في أسلوب متسلسل بليغ، مترقيا من الأدنى إلى الأعلى، ثم ختمها بالسلام كما بدأها به. واشتمل النَّص ككل على المساواة في المعاني دون زيادة أو نقصان.

[٤٣٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَهْلِ الْبَصرَةِ

«إِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَبَا مُوسَى؛ لِيَأْخُذَ مِنْ قَوِيِّكُمْ لِضَعِيفِكُمْ، وَلِيُقَاتِلَ بِكُمْ عَدُوَّكُمْ، وَلِيَدْفَعَ عَنْ دِينِكُمْ، وَلِيَجْبِيَ لَكُمْ فَيْئَكُمْ، ثُمَّ يَقْسِمَهُ فِيكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: وَلِيَ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قضاء البصرة مع ولايتها من عام سبعة عشر من الهجرة إلى عام خمسة وعشرين، والظاهر أن تلك الرسالة إلى أهل البصرة في بداية ولاية أبي موسى رضي الله عنه أي: في العام السابع عشر من هجرة النبي ﷺ، والمقام هنا مقام أمر؛ فأمير المؤمنين رضي الله عنه يرسل رسالة يأمر الرعية فيها بطاعة الوالي.

البيان والبلاغة: في النَّص تعريض؛ حيث إن ظاهرها أمر للرعية ولكن المتأمل للنص يجد أنه احتوى على أمر للوالي كذلك؛ فكل عبارة أمر من الخليفة للرعية كانت أمرًا للوالي كذلك. يبدأ الفاروق رسالته البليغة بقوله: (**إِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَبَا مُوسَى**)، وقد استخدم منذ البداية أسلوب التوكيد بـ (**إِنَّ**) و(**قَدْ**) وصيغة فعَّلت في قوله: (**وَلَّيْتُ**) وهي هنا للتعدية، وجاء أسلوب التوكيد في العبارة مناسبًا للقرار الصادر من أمير المؤمنين رضي الله عنه للرعية بضرورة الاستجابة لأمره وللوالي الجديد. ثم يبدأ بالجملة الاستئنافية: (**لِيَأْخُذَ مِنْ قَوِيِّكُمْ لِضَعِيفِكُمْ**): استخدم لام التعليل؛ ليبين لهم وللوالي المهام التي من أجلها نَصَّبَهُ عليهم واليًا، العبارة كناية عن العدل الذي دعا

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٧١، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٦٠/ ٣٨، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٤٩.

الوالي لإقامته بين أفراد الرعية؛ فقد يقع الحق للقوي على الضعيف، ولكن من استطاع أن ينصر الضعيف المظلوم، سهل عليه نصر القوي المظلوم. وفي العبارة السابقة إيجاز؛ فقد أرسى مبادئ المساواة في جملة واحدة. وفي القول - أيضًا - تناص خفي بقول الصديق ﵁ في خطبته حين تولى الخلافة: (والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله)، وفيه - أيضًا - تناص خفي بأقوال النبي ﷺ الواردة في نصر المظلوم؛ مثل: «**أُمِرَ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ يُضْرَبُ فِي قَبْرِهِ مِئَةَ جَلْدَةٍ، فَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُهُ وَيَدْعُو حَتَّى صَارَتْ جَلْدَةً وَاحِدَةً، فجُلد جلدةً واحدةً، فَامْتَلأَ قَبْرُهُ عَلَيْهِ نَارًا، فَلَمَّا ارْتَفَعَ عَنْهُ وَأَفَاقَ، قَالَ: عَلَامَ جَلَدْتُمُونِي؟ فقِيلَ له: إِنَّك صَلَّيْت صَلاةً واحِدَةً بِغَيْرِ طَهُورٍ، وَمَرَرْت عَلَى مَظْلُومٍ فَلَمْ تَنْصُرْهُ**». وجمع بين المتضادين: (**قَوِيُّكُمْ لِضَعِيفِكُمْ**)؛ لتأكيد المعنى وتوضيحه. وقوله: (**وَلِيُقَاتِلَ بِكُمْ عَدُوَّكُمْ**): جاء بقتال الأعداء بعد إقامة العدل الداخلي؛ لبيان أن الهدف المنشود للمسلم بعد أن ينال حقوقه الداخلية من مساواة وعدل أن يتجه لنصرة دين الله. وكلمة (**عَدُوَّكُمْ**): نكرة للعموم والشمول، وما عدو المسلم إلا عدو الله؛ فجاء في هذه العبارة الوجيزة ذكر الفاروق لفريضة الجهاد في سبيل الله - تعالى -، ويؤكده قوله: (**وَلِيَدْفَعَ عَنْ دِينِكُمْ**)، فما يكون دفاع الراعي عن دين الله إلا برعية من الأقوياء الأشداء على أعداء الله وأعدائهم، فجاء ترتيب الدفع عن الدين بعد قتال الأعداء مناسبًا؛ لأن الرعية هي الدرع الواقي الذي يصد به الراعي عن دين الله، وهي - أيضًا - من الكلمات الجامعة؛ فالدفع عن الدين لا يكون بالقتال فقط، بل بالقدوة الحسنة ومراعاة الله سِرًّا وعَلَنًا، ويكون بدرء الفتن والعمل على إقامة شرع الله في النَّاس. وقوله: (**وَلِيَجْبِيَ لَكُمْ فَيْئَكُمْ**): انتقل إلى الحديث عن الفيء ونحوه، مؤخِّرًا رتبتها من حيث الانتقال الطبيعي للأمر في الشئون العادية؛ فإن الغنائم - في الأغلب - لا تأتي

إلا بعد قتال، وكذلك أَخَّرها من حيثُ السمو؛ فإن المسلم لا يقاتل أعداء الله إلا للدفع عن دين الله، فليس الأمر بالذي يسعى له المؤمن المخلص. وقوله: (**ثُمَّ يَقْسِمَهُ فِيكُمْ**): هي - أيضًا - مهمة من مهام الوالي؛ فلابد أن يكون هو القائم على جمع الغنائم، وهو القائم أيضًا على تقسيمها. ويلاحظ أن الفاروق استخدم (الواو العاطفة) في النَّص كله، وفي الجملة الأخيرة عطف بـ (**ثم**) ومن المتعارف عليه أن (الواو) تستخدم للترتيب والتعقيب أما (ثم) فتستخدم للترتيب - أيضًا - مع التراخي في الزمن؛ وكأن الفاروق رضي الله عنه يوجه رسالة خفية أن يكون هَمُّ المسلم أولا وأخيرًا دين الله، أما تأخير الفيء؛ فلعدم أهميته، ولصرف نظر المسلم عنه. كما أنه اعتمد على السجع في النغمة الموسيقية (كم) في (**عليكم، قويكم**، ضعيفكم، بكم، **عدوكم**، دينكم، فيئكم، **فيكم**)؛ لجذب انتباه المتلقي. كما أن بين الأزواج التالية: (**يأخذ، يدفع**) و(**يجبي، يقسم**): طباقا يبرز المعنى ويؤكده.

[٤٣٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ

«أَنْ لَا يَدْخُلَ الرَّجُلُ الْحَمَّامَ إِلَّا بِمِئْزَرٍ، وَلَا تَدْخُلَهُ امْرَأَةٌ إِلَّا مِنْ سَقَمٍ، وَعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ، وَاجْعَلُوا اللَّهْوَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: الْخَيْلِ، وَالنِّسَاءِ، وَالنِّضَالِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النَّص من النَّصوص المجمَّعة، أي: إن الفاروق رضي الله عنه لم ينطق به في مشهد واحد، وهو موجه لأمراء الأجناد. وأمير الجند - بالمصطلح الحديث -: قائد الكتيبة التي كانت توجه للفتح ونشر الإسلام. ولعل الفاروق رضي الله عنه استشعر خطورة تَأَثُّر الجند بعادات وتقاليد أهل البلاد المفتوحة فأراد أن يرشدهم.

البيان والبلاغة: احتوى النصُّ على عدة رسائل من أمير المؤمنين رضي الله عنه: الرسالة الأولى: (**أَنْ لَا يَدْخُلَ الرَّجُلُ الْحَمَّامَ إِلَّا بِمِئْزَرٍ**): استخدم أسلوب القصر بالنفي والاستثناء، والغرض منه التخصيص والتحذير؛ فقد ضَمَّنَ في رسالته الأولى معنى الأمر والتحذير. وفي الرسالة الأولى تناص ظاهر بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَدْخُلَ الْحَمَّامَ إِلا بِمِئْزَرٍ**»، وفي ذلك أمر للرجال بحفظ عوراتهم؛ فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**»، فَقَالَ: الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: «**إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَافْعَلْ**»، قلت: فالرَّجُلُ يَكُونُ خَالِيًا؟ قَالَ: «**فَاللهُ**

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١١٣٣)، وابنُ الجعدِ في «مُسنَدِه» (٢٣٧٤)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١١٨٦)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٧٣٨٧)، والنَّص المذكورُ جمعِي.

أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ»، وذلك درءًا للفتن والشبهات والشهوات. والرسالة الثانية: (**وَلَا تَدْخُلُهُ امْرَأَةٌ إِلَّا مِنْ سَقَمٍ**): فيها عطف على الرسالة الأولى، وفيها - أيضا - أسلوب قصر الغرض منه التخصيص والتحذير. والأسلوب الإنشائي (**وَلَا تَدْخُلُهُ**): نهي، الغرض منه التحذير، ولكن التخصيص في الأولى كان بالسماح للرجل بدخول الحمام إن لبس مئزره، أما هنا نهي للمرأة عن دخول الحمام إلا لِعِلَّةٍ يُرجى الشفاء منها؛ وقد صح عن النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُدْخِلْ حَلِيلَتَهُ الْحَمَّامَ**»، وعن أبي المليح الهذلي، أن نسوة من أهل حمص استأذن على عائشة، فقالت: لعلكن من اللواتي يدخلن الحمامات، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا، فَقَدْ هَتَكَتْ سِتْرَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ**». والمانع هو ذاته في الرسالة الأولى والدافع هو الحفاظ على المرأة. والرسالة الثالثة: (**وَعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ**): أسلوب إنشائي أمر الغرض منه الحث والإرشاد، وهذه الرسالة من الرسائل الجامعة فقد اختصر الفاروق رضي الله عنه حديثا طويلا بجملة مختصرة فإنَّ من موضوعات سورة النور تضمنها العديد من الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم العامة والخاصة؛ كالاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنبيات، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة من العفاف والستر والنزاهة والطهر، كل هذه الأوامر اقتصرها الفاروق بضرورة تعلم المرأة هذه السورة؛ فبما أن المرأة هي المربية فلابد لها أن تدرس هذه المعاني التي تضمنتها السورة؛ لتبثَّها في أبنائها. والرسالة الرابعة: (**وَاجْعَلُوا اللَّهْوَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: الْخَيْلِ وَالنِّسَاءِ وَالنِّضَالِ**): بدأ بأسلوب إنشائي أمر، والغرض منه الحث والإرشاد، واللهو المقصود به هنا: اللهو المباح، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ ذكر الكثير من حالات اللهو المباح، ولم يقتصر الأمر على الأشياء التي ذكرها الفاروق رضي الله عنه؛ فقد ورد عن النبي

ﷺ أنه سابق السيدة عائشة رضي الله عنها، وكذلك حين أذن النبي ﷺ لها برؤية الحبشة وهم يلعبون بالحراب في المسجد، وغير ذلك من مظاهر اللهو المباح التي تضمنتها السيرة العطرة. والمتأمل لحديث الفاروق عمر رضي الله عنه يجد فيه تناصًّا بالحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ لَهْوٌ وَلَعِبٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَرْبَعَةً: مُلَاعَبَةُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَتَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمَشْيُ الرَّجُلِ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ، وَتَعْلِيمُ الرَّجُلِ السِّبَاحَةَ**». وقد خصَّ الفاروق رضي الله عنه (**الخيل**) إشارة إلى الفروسية، فالفروسية رياضة النبلاء والقادة؛ لأنها تدل على شجاعة وثبات ورباطة جأش وقوة عزيمة. ولقد حث الشرع على أن يكون الترفيه البدني مُعِينًا على الاستعداد العسكري للجهاد، وأجاز بذل العوض فيه. ثم أشار إلى (**النساء**)؛ لأن لهو الرجل مع نسائه يعصمه من النظر المحرم والفعل المحرم، وفيه إشارة خفية وأمر للرجل بملاعبة زوجته وملاطفتها، وذم من يتبع سبيلا غير ذلك. ونهاية أشار إلى (**النضال**)، والمقصود من النضال: الرمي، وهو من أجمل وأمتع وسائل الترفيه الرمي بالسلاح للتمرين على الإصابة والدقة؛ فقد ثبت في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]، **أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**». والمتأمل في اللهو الذي حض عليه الفاروق رضي الله عنه يجد الغرض منه الاستعداد للجهاد سواء بممارسة رياضة الفروسية، أو القدرة على إصابة الهدف بممارسة رياضة الرمي، أو عدم صرف ذهن المسلم إلى الشهوات المحرمة بحضه على اللهو مع نسائه. وقد مرَّت بعض أجزاء هذا النصِّ في النص رقم أربعة عشر وخمسمئة.

[٤٣٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ، فِي رِجَالٍ غَابُوا عَنْ نِسَائِهِمْ

«أَنِ ادْعُ فَلَانًا وَفُلَانًا، نَاسًا قَدِ انْقَطَعُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَخَلَوْا مِنْهَا، فَإِمَّا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى نِسَائِهِمْ، وَإِمَّا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَيْهِنَّ بِنَفَقَةٍ، وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقُوا وَيَبْعَثُوا بِنَفَقَةِ مَا مَضَى»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أحد أمراء الجند في شأن جنود طال بُعدهم عن نسائهم، مبينا لهم ما يجب على هؤلاء الجنود.

البيان والبلاغة: قوله: (أَنِ ادْعُ): سبق بيان (أَنْ) هذه وفائدتها بالتفصيل عند شرح النص رقم تسعة وأربعين وثلاثمئة، فراجعه إن أردت الاستزادة. وقد بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بالأمر الصريح تعظيما للخطب وتأكيدا على أميره للامتثال. وقوله: (**فَلَانًا وَفُلَانًا، نَاسًا قَدِ انْقَطَعُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَخَلَوْا مِنْهَا**): هذه العبارة للراوي وليست لأمير المؤمنين رضي الله عنه؛ فإنَّ أمير المؤمنين لابدَّ وأن يصرِّح بأسماء هؤلاء الجنود، وإلا لم تحصل الفائدة من الكتاب، إلا أنَّ الراوي لم يصرح باسمهم لعدم وجود فائدة من ذلك؛ إذ الحكم عامٌّ فيهم وفي غيرهم، ولذلك نصَّ على وصفهم؛ لأنه ما يتعلق به الحكم. وقوله: (**فَإِمَّا ... وَإِمَّا ... وإِمَّا ...**): أسلوب تخيير، واستخدم

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٢٣٤٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٩٣٥٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٥٧٠٦).

- هنا - التفصيل والإطناب زيادة في البيان وإقامة للحجة على المخاطب. وقوله: (**يُطَلِّقُوا وَيَبْعَثُوا بِنَفَقَةِ مَا مَضى**): (**الواو**) بين (**يُطَلِّقُوا**) و(**يَبْعَثُوا**) دليل على تتابع الفعل.

[٤٣٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

فِي امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ أَسْلَمَتْ، وَلَمْ يُسْلِمْ زَوْجُهَا

«أَنْ خَيِّرُوهَا: فَإِنْ شَاءَتْ فَارَقَتْهُ، وَإِنْ شَاءَتْ قَرَّتْ عِنْدَهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه فتوى من أمير المؤمنين رضي الله عنه في شأن امرأة أسلمت وبقي زوجها على الشرك.

البيان والبلاغة: بدأ بالأمر كما في النص السابق، ولنفس الغرض. ثم استخدم أسلوب الشرط بيانا أنَّ الأمر لا يحتمل سوى هذين الأمرين، وفصَّل في الشرطين وقسَّم إمعانا في البيان والإيضاح كيلا يلتبس الحكم على المتلقِّي. وقوله: (**وَإِنْ شَاءَتْ قَرَّتْ عِنْدَهُ**): يقصد أن تبقى عنده حتى تنتظر إسلامه، إن آنست فيه خيرًا، وحفظت نفسها منه.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠٠٨٣) و(١٢٦٦٠).

[٤٣٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ رضي الله عنه[١] وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ عَنْ رَجُلٍ أَقَرَّ بِالزِّنَا، وَادَّعَى جَهْلَهُ بِالتَّحْرِيمِ

«إِنْ كَانَ عَلِمَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَهُ فَحُدُّوهُ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَعْلَمْ فَعَلِّمُوهُ، وَإِنْ عَادَ فَحُدُّوهُ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه فتوى أخرى من أمير المؤمنين رضي الله عنه في شأن رجل زنا وأقرَّ بالزنا، ثمَّ ادعى جهله بالتحريم لقرب عهده بالإسلام.

البيان والبلاغة: يؤكِّد هذا الكتاب أن الجهل بالشيء يسقط الذنب، وإن كان علم به فيعذب بما اقترفت يداه، وإن لم يعلم يجب أن نعلمه بالأمر؛ كي لا يقع فيه ثانية، وإن عاد وفعله، يعد استهتارا بأحكام الله فيجب أن يعاقب. واقترن جواب الشرط بالفاء؛ لعظم الأمر، ولوقوع الفعل في صيغة الماضي، وللدلالة على امتداد العمل به في زمن التكلم والمستقبل. وقوله: (**فَحُدُّوهُ**): كررها مرتين حثًّا على الحزم عند التجاوز، والجرأة في معالجة الباطل. وقد استخدم هنا أسلوب الشرط والتفصيل كما جاء في النص السابق، ولنفس الغرض.

١- قالَ ابنُ حجرٍ في «التَّلخيصِ الحبيرِ» ٤/ ١١٣: هكذا أخرجهُ عبدُ الرَّزَّاقِ عنِ ابنِ عُيَينَةَ. وأخرجهُ أيضًا عن مَعمَرٍ عنْ عَمرِو بنِ دينارٍ وزادَ: «إنَّ الَّذي كتبَ إِلَى عُمرَ بذلكَ هو أبو عُبيدةَ بنُ الجرَّاحِ». وفي روايةٍ لهُ: أنَّ عثمانَ هو الَّذي أشارَ بذلكَ على عُمرَ، رضيَ اللهُ عَنْهُمَا.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٣٦٤٣)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٩٣٥٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٥٧٠٦).

[٤٣٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمانِ رضي الله عنه

«أَنْ أَعْطِ النَّاس أَعْطِيَتَهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ» فَكَتَبَ إِلَيْهِ حُذَيْفَةُ: إِنَّا قَدْ فَعَلْنَا، وَبَقِيَ شَيْءٌ كَثِيرٌ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «إِنَّهُ فَيْؤُهُمُ الَّذِي أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ، لَيْسَ هُوَ لِعُمَرَ وَلَا لِآلِ عُمَرَ، اقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا خطاب حازم جازم شديد اللهجة من أمير المؤمنين إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يأمره فيه أن يقسم في الناس فيئهم لا يبقي منه شيئا.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه خطابه بـ (أنْ) التفسيرية التي سبقت الإشارة إليها قريبا، ثم أتبع ذلك بأمر واضح لحذيفة رضي الله عنه بأن يقسم في الناس حقوقهم المالية. وفي قوله: (**أَنْ أَعْطِ النَّاس أُعْطِيَتَهُمْ**)، و(**إِنَّهُ فَيْؤُهُمُ الَّذِي أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ**): تحقق الانسجام الصوتي بين الفعل والمصدر، واشتقاق للفظ من اللفظ، وكناية عن طلبه تحقيق العدل بين النَّاس وإعطاء الحقوق لأهلها. وقوله: (**إِنَّهُ فَيْؤُهُمُ**): بدأ بالتأكيد وضمير الشأن؛ لأنَّ المخاطب شاك في صواب اجتهاد أمير المؤمنين؛ فناسب ذلك التأكيد. ثم أطنب في البيان فقال مثبتا: (**الَّذِي أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ**)، ثم أعاد نافيا (**لَيْسَ هُوَ لِعُمَرَ وَلَا لِآلِ عُمَرَ، اقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ**)، والإطناب يوضح مقصده النبيل، وأنه لا يبتغي شيئا لنفسه، ولا لأهله.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٩، وعنهُ البلاذريُّ في «فُتُوحِ البُلدانِ» ص٤٣٥.

[٤٣٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ دَخَلَ الْحَمَّامَ فَتَدَلَّكَ بَعْدَ النُّورَةِ بِثَخِينِ عُصْفُرٍ مَعْجُونٍ بِخَمْرٍ

«بَلَغَنِي أَنَّكَ تَدَلَّكْتَ(١) بِخَمْرٍ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ظَاهِرَ الْخَمْرِ وَبَاطِنَهُ، كَمَا حَرَّمَ ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ، وَقَدْ حَرَّمَ مَسَّ الْخَمْرِ إِلَّا أَنْ تُغْسَلَ كَمَا حَرَّمَ شُرْبَهَا، فَلَا تُمِسُّوهَا أَجْسَادَكُمْ فَإِنَّهَا نَجَسٌ، وَإِنْ فَعَلْتُمْ فَلَا تَعُودُوا».

فَكَتَبَ إِلَيْهِ خَالِدٌ: إِنَّا قَتَلْنَاهَا، فَعَادَتْ غَسُولًا غَيْرَ خَمْرٍ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «إِنِّي أَظُنُّ آلَ الْمُغِيرَةِ قَدِ ابْتُلُوا بِالْجَفَاءِ، فَلَا أَمَاتَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ(٢)!»(٣).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين قائد جيوشه خالد بن الوليد رضي الله عنهما منكرا عليه تدلُّكه بشيء فيه خمر، ورادًّا عليه اجتهاده في ذلك.

١- الدَّلُوكُ بِالفَتحِ: اسمٌ لِمَا يُتَدَلَّكُ به مِن المَغسُولَاتِ؛ كالعَدَسِ، والأُشْنانِ، وَالأشيَاءِ المُطَيِّبة. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (دلك).

٢- في «غريبِ الحديثِ» لأبي عُبَيدٍ: «وَإِنِّي لَأَظُنُّكُمْ آلَ المُغِيرَةِ ذَرْءَ النَّارِ»، وقالَ بعدَها: يُروَى «ذَرْء» بِالهمزةِ، ويُروَى «ذَرْو» بالواوِ. فمَن قالَ: «ذَرْء» بِالهمزةِ؛ فإِنَّهُ أرادَ خَلْقَ النَّارِ؛ أي: إِنَّكُم خُلِقتُم لها. مِن قَولِهِم: ذَرَأَ اللهُ الخَلْقَ يَذْرَؤُهُمْ ذَرْءًا. ومَن قالَ: «ذَرْو» بِالواوِ؛ فهو مِن: ذَرَا يَذْرُو. قالَ تَعالَى: {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} أي: إِنَّكُم تُذْرَوْنَ في النَّارِ ذَرْوًا.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٦٦، وابنُ عساكرَ في «تاريخ دمشقَ» ١٦/ ٢٦٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٥٩، وابنُ العديمِ في «بُغيةِ الطَّلَبِ» ٧/ ٣١٥٩، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٤٥.

البيان والبلاغة: قوله: (**بَلَغَنِي أَنَّكَ**): لم يذكر من أبلغه ذلك لعدم الفائدة من ذكره، واستعاض عن ذلك بتأكيد علمه عن طريق حرف النصب والتوكيد (**أَنَّ**). وفي قوله: (**كَمَا حَرَّمَ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**) تأثـر بالقـرآن الكريم وبقـوله - تعالى -: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. وقوله: (**وَقَدْ حَرَّمَ مَسَّ الْخَمْرِ إِلَّا أَنْ تُغْسَلَ كَمَا حَرَّمَ شُرْبَهَا، فَلَا تُمِسُّوهَا أَجْسَادَكُمْ فَإِنَّهَا نَجَسٌ، وَإِنْ فَعَلْتُمْ فَلَا تَعُودُوا**): إطناب استعمل فيه أسلوب التفصيل والتقسيم، بغرض الإمعان في البيان والإيضاح والتأكيد. وقوله: (**فَإِنَّهَا نَجَسٌ**): هذا هو المقصود من الجمل السابقة؛ ولذلك أكَّده بـ (**إِنَّ**) والجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبوت الحكم واستقراره. وقول عمر رضي الله عنه: (**ابْتُلُوا بِالْجَفَاءِ**)، أي: بقسوة القلب، والميل إلى العصيان. ولم يبن الفعل للفاعل؛ تأدبا مع الله - تعالى - إذ لا يُنسب الشر إليه. وقوله: (**فَلَا أَمَاتَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ!**): إطنابٌ ظاهره الدعاء، وفيه تعريض بالتحذير أن يقع فيه أو يستمر عليه.

[٤٣٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«أَمَّا بعْدُ؛ فَإِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ أَمِيرًا، وَابْنَ مَسْعُودٍ مُعَلِّمًا وَوَزِيرًا، وَقَدْ جَعَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ عَلَى بَيْتِ مَالِكُمْ، وَإِنَّهُمَا لَمِنَ النُّجَبَاءِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَاسْمَعُوا لَهُمَا وَأَطِيعُوا، وَاقْتَدُوا بِهِمَا، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِابْنِ أُمِّ عَبْدٍ[١] عَلَى نَفْسِي، وَبَعَثْتُ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ[٢] عَلَى السَّوَادِ[٣]، وَرَزَقْتُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ شَاةً، فَاجْعَلْ شَطْرَهَا وَبَطْنَهَا لِعَمَّارٍ، وَالشَّطْرَ الْبَاقِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ»[٤].

١- وهو عبدُ الله بنُ مَسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -.

٢- عُثمانُ بنُ حُنَيفِ بنِ وَاهِبِ الأَوْسِيُّ الأنصاريُّ. قالَ التِّرمذيُّ: إنَّه شهد بدرًا. وقالَ الجمهورُ: أوَّلُ مشاهدِه أُحُدٌ. عمِلَ لعمرَ، ثُمَّ لِعليٍّ - رضيَ اللهُ عنهُما -، وولَّاهُ عُمرُ بنُ الخطَّابِ - رضيَ اللهُ عنهُ - مساحةَ الأرضين وجِبايَتَها، وضربَ الخراجَ والجزيةَ على أهلِها، وولَّاهُ عليٌّ - رضيَ اللهُ عنهُ - البصرةَ، فأخرجهُ طلحةُ والزُّبيرُ - رضيَ اللهُ عنهُما - حينَ قدِما البصرةَ، ثُمَّ قدِم عليٌّ - رضيَ اللهُ عنهُ -، فكانتْ وقعةُ الجَمَلِ، فلمَّا خرجَ عليٌّ - رضيَ اللهُ عنهُ - مِنَ البصرةِ ولَّاها عبدَ الله بنَ عبَّاسٍ - رضيَ اللهُ عَنْهُما -. سكنَ عثمانُ بنُ حُنَيفٍ الكوفةَ، وبقِي إلى زمانِ مُعاويةَ. «الاستيعاب» ٣/ ١٠٣٣، و«الإصابة» ٤/ ٣٧١- ٣٧٢.

٣- (قالَ أبو عُبَيدٍ في «الأموال» (١٨٢): (يُقالُ: إنَّ حَدَّ السَّوَادِ الَّذي وقعتْ عليهِ المِساحةُ مِن لَدُنْ تُخُومِ المَوصِلِ، مَادًّا معَ الماءِ إلى ساحلِ البحرِ، بِبِلَادِ عَبَّادَانَ مِن شَرْقِيِّ دِجلةَ، هذا طُولُهُ. وأمَّا عَرْضُهُ فَحَدُّهُ مُنقطَعُ الجبلِ مِن أرضِ حُلْوانَ، إلى مُنتهَى طُرُقِ القادسيَّةِ المُتَّصِلُ بِالعُذَيْبِ مِن أرضِ العربِ، فهذه حُدُودُ السَّوَادِ، وعليهِ وَقَعَ الخراجُ).
ونقلَ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٥٠١ عنِ الكَلْبِيِّ قولَهُ: إنَّما سُمِّي السَّواد؛ لأنَّ العربَ حينَ جاؤُوا نَظرُوا إلى مِثلِ اللَّيلِ مِن النَّخلِ والشَّجرِ والماءِ، فَسمَّوهُ سَوادًا.

٤- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٢/ ٢٥٥، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٢٩٠٣)، وأحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (١٥٤٧)، والفَسَوِيُّ في «المعرفةِ والتَّاريخ» ٢/ ٥٣٣، وابنُ أبي خيثمةَ في «تاريخِه» (٣٥٤٤)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١/ ١٦٣، وابنُ أبي عاصم في «الآحادِ والمثاني» (٢٤٦)، والطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (٢٧٧٠)، والطَّبرانيُّ في «المُعجَمِ الكبيرِ» (٨٤٧٨)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٥٦٦٣)، والبيهقيُّ في «المَدخَلِ إلى السُّنَنِ الكُبرَى» (١٠١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أهل الكوفة مبينا منزلة من أرسل إليهم من الأمراء والعلماء، وموضحًا مهمَّة كلٍّ منهم.

البيان والبلاغة: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه لأهل الكوفة ما أكرمهم به من أمراء وعلماء، ثم يبين للآخرين حدود الإدارة لإمارتهم، فحدد الأمير والوزير والمعلم ومسئول بيت المال، ووضح للرعية قدر من اختار لهم بأنهم أصحاب الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم وأنهم من أهل بدر - رضوان الله عليهم -، وأنه آثرهم بهم على نفسه. وبيَّن لهم عطاءهم؛ كي يسد باب التكسب على أيديهم. فقوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): فصل الخطاب، يستخدم للدخول إلى صلب الموضوع والتنبيه إلى ما سيأتي أو للانتقال من موضوع إلى آخر، والتقدير: انتبهوا لما سأذكر لكم. وقوله: (**أميرا ... وزيرا**): بين اللفظين سجع أعطى الحديث جرسا حُلوا، وأسهم في تقوية وإبراز المعنى. وكذلك في قوله: (**شَطْرَهَا وَبَطْنَهَا**). وقد صدَّر أمير المؤمنين رضي الله عنه جُلَّ جمل النصِّ بالمؤكِّدات؛ كي لا يترك ذرة من شكٍّ في نفس السامع نحو هؤلاء الأمراء والعلماء الذين سيكونون قادة لتلك النواحي، ولذات السبب أطنب في بيان المعنى مستعملا أسلوب التفصيل والتقسيم.

[٤٤٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ[١] رضي الله عنه وَعُمَّالِهِ

«أَنْ لَا يَجُدَّ أَمِيرُ الْجَيْشِ، وَلَا أَمِيرُ سَرِيَّةٍ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى يَطْلُعَ الدَّرْبَ قَافِلًا، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَحْمِلَهُ الْحَمِيَّةُ عَلَى أَنْ يَلْحَقَ بِالْمُشْرِكِينَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه عُمَير بن سعد الأنصاري وعمَّاله في شأن إقامة الحدود في أرض الحرب.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَنْ لا يَجُدَّ**): (**أنْ**) هي التفسيرية التي سبق الحديث عنها، وقد بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بالنهي الصريح المباشر لأهمية الأمر وخطورته. وقوله: (**أَنْ لَا يَجُدَّ أَمِيرُ الْجَيْشِ، وَلَا أَمِيرُ سَرِيَّةٍ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**): نكَّر الكلمات (**أمير**) و(**رجلا**) في سياق النهي لإفادة العموم. و(**حتَّى**) في قوله: (**حَتَّى يَطْلُعَ الدَّرْبَ قَافِلا**) هي الغائية، بيَّن فيها غاية ونهاية هذا الحظر والنهي الذي نهى عنه. ثم أطنب مؤكِّدا ومبيِّنا سبب هذا النهي؛ فقال: (**فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَحْمِلَهُ الْحَمِيَّةُ عَلَى أَنْ يَلْحَقَ بِالْمُشْرِكِينَ**)، واستعمل المصدر المؤول في قوله (**أن تحمله**) و(**أن يلحق**) لما له من

١- عُمَيرُ بنُ سعدٍ الأنصاريُّ الأوسيُّ، كانَ يُقالُ لهُ: (نَسِيجُ وَحْدِهِ)، سمَّاهُ بهذا عمرُ لإعجابِهِ به. صحِب رسولَ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ-، وهو الَّذي رفعَ إلى النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- كلامَ الجُلَاسِ بنِ سُوَيدٍ، وكانَ يتيمًا في حِجْرِه، وشهِد فتوحَ الشَّامِ، واستعملهُ عمرُ على حمصَ إلى أن ماتَ. وكانَ مِن الزُّهَّادِ، وتُوفِّيَ في مُلكِ مُعاويةَ. «الإصابة» ٤/ ٥٩٦.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٣٧٠)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكبرى» (١٨٢٢٦).

ميزة في بيان زمن الفعل وفاعله. وهذا التوجيه مأخوذ من أمر النبي ﷺ، كما جاء في سنن أبي داود - وغيره - عن جنادة بن أبي أمية، قال: كنا مع بسر بن أرطاة في البحر، فأتي بسارق يقال له: مِصْدَر، قد سرق بختية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَا تُقْطَعُ الْأَيْدِي فِي السَّفَرِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَقَطَعْتُهُ**».

[٤٤١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَأُمَرَاءِ الْكُوفَةِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَاءَنِي مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ[١] وَحُلْوَانَ[٢]، وَفِي ذَلِكُمْ مَا يَكْفِيكُمْ إِنِ اتَّقَيْتُمْ وَأَصْلَحْتُمْ، واجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ مَفَازَةً»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين أميره سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما وأمراء الكوفة، يخبرهم بفتح ما بين العُذيب وحُلوان.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): سبق الإشارة إليها وبيان فائدتها. وقوله: (**فَقَدْ جَاءَنِي**): أكد الكلام بـ (**قد**) الدالة على التحقيق. وقوله: (**ما بين** ... و ...): تفيد تحديد المكان، إن كان المقصود المكان، والزمان إن كان المقصود الزمان. وقوله: (**وَفِي ذَلِكُمْ مَا يَكْفِيكُمْ إِنِ اتَّقَيْتُمْ وَأَصْلَحْتُمْ**): تقدم جواب الشرط على فعل الشرط؛ تأكيدا عليه وتخصيصا لمعناه.

١- العُذَيْبُ: تصغيرُ العَذْبِ، وهو الماءُ الطَّيِّبُ. وهو ماءٌ بينَ القادسيَّةِ والمُغِيثَةِ، بينَه وبينَ القادسيَّةِ أربعةُ أميالٍ، وإلى المُغِيثةِ اثنانِ وثلاثونَ ميلًا، وقيلَ: هو وادٍ لبني تميمٍ. وهو مِن منازلِ حاجِّ الكوفةِ، وقيلَ: هو حدُّ السَّوادِ. «معجم البلدان» ٤/ ٩٢.

٢- حُلْوانُ، بِالضَّمِّ ثُمَّ السُّكونِ: وهو اسمٌ لِعِدَّةِ مواضعَ، أبرزُها: حُلْوَانُ العراقِ؛ وهي في آخِرِ حدودِ السَّوادِ مِمَّا يلي الجبالَ مِن بغدادَ. وأمَّا فتحُها فإنَّ المسلمينَ لمَّا فرغوا مِن جَلُولاءَ، ضمَّ هاشمُ بنُ عتبةَ بنِ أبي وقَّاصٍ، وكانَ عمُّه سعدٌ قد سيَّرَهُ على مقدمتِه إلى جريرِ بنِ عبدِ الله في خيلٍ ورتَّبَهُ بِجَلولاءَ، فنهضَ إلى حُلْوانَ، فهربَ يَزدجردُ إلى أصبهانَ، وفتحَ جريرٌ حُلْوانَ صُلحًا علَى أن كفَّ عنهم، وآمَنهم على ديارِهم وأموالِهم، ثمَّ مضى نحوَ الدِّينَوَرِ. «معجم البلدان» ٢/ ٢٩٠-٢٩١.

٣- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٤٥٣).

[٤٤٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«إِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ جَلُولَاءَ فَسَرِّحِ الْقَعْقَاعَ بْنَ عَمْرٍو[1] فِي آثَارِ الْقَوْمِ، حَتَّى يَنْزِلَ بِحُلْوَانَ فَيَكُونَ رِدْءًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَيُحْرِزَ اللهُ لَكُمْ سَوَادَكُمْ»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أميرُ المؤمنين قائدَ جيوشه سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنهما مبينا له الخطة التي ينبغي اتباعها حتى يكتمل فتح السواد.

البيان والبلاغة: استهَلَّ عمرُ رضي الله عنه خطابه بالشرط الذي ينبغي ألا يحدث جوابه إلا بحدوثه، وهو فتح جلولاء. وأما الجواب فهو إرسال القعقاع بن عمرو في آثار القوم حتَّى يصل إلى حُلوان ليكون ظهيرا للمسلمين. وقوله: (**وَيُحْرِزَ اللهُ لَكُمْ سَوَادَكُمْ**): نسب الفعل إلى الله - سبحانه وتعالى - تأدبا مع الله - تعالى - وردًّا للفضل إلى أهله.

١- القَعْقاعُ بنُ عمرٍو التَّمِيميُّ، قيلَ: إنَّهُ شَهِدَ وفاةَ رسولِ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ-. ولهُ أثرٌ عظيمٌ في قتالِ الفُرسِ في القادسيَّةِ وغيرِها. وكانَ أحدَ الأبطالِ المذكورينَ، يُقالُ: إنَّ أبا بكرٍ قال: صوتُ القَعقاعِ في الجيشِ خيرٌ مِن ألفِ رجلٍ. وشهِدَ الجملَ معَ عليٍّ، وكانَ الرَّسُولَ في الصُّلحِ يومئذٍ بينَ الفريقينِ، وسكنَ الكوفةَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٣٧٨.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣٤، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ٢١٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٤٥.

[٤٤٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه فِي أَمْرِ زُهْرَةَ بْنِ حَوِيَّةَ التَّمِيمِيِّ(١)

«تعْمِدُ إِلَى مِثْلِ زُهْرَةَ - وَقَدْ صَلِيَ بِمِثْلِ مَا صَلِيَ بِهِ، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ حَرْبِكَ مَا بَقِيَ - تَكْسِرُ قَرْنَهُ(٢)، وَتُفْسِدُ قَلْبَهُ؟! أَمْضِ لَهُ سَلَبَهُ، وَفَضِّلْهُ عَلَى أَصْحَابِهِ عِنْدَ الْعَطَاءِ بِخَمْسِمِئَةٍ»(٣)، «أَنَا أَعْلَمُ بِزُهْرَةَ مِنْكَ، وَإِنَّ زُهْرَةَ لَمْ يَكُنْ لِيُغَيِّبَ مِنْ سَلَبٍ سَلَبَهُ شَيْئًا، فَإِنْ كَانَ الَّذِي سَعَى بِهِ إِلَيْكَ كَاذِبًا فَلَقَّاهُ اللهُ مِثْلَ زُهْرَةَ فِي عَضُدَيْهِ يَارَقَانِ، وَإِنِّي قَدْ نَفَّلْتُ كُلَّ مَنْ قَتَلَ رَجُلًا سَلَبَهُ»(٤).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين قائد جيشه سعد بن أبي وقاص في شأن زُهرةَ بن حويَّة التميمي- رضي الله عنهم أجمعين -، وقد منعه سعدٌ سلَبَه بعد أن اتهمه البعض بالغلول.

البيان والبلاغة: افتتح أمير المؤمنين كتابه إلى سعد رضي الله عنه بسؤال استنكاري ينكر

١- زُهْرةُ بنُ حَوِيَّةَ - أو جَوِيَّةَ - التَّمِيمِيُّ، أوفدهُ مَلِكُ هَجَرَ على النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - فأسلمَ، ثمَّ شهدَ القادسيَّةَ معَ سعدٍ، وكانَ على مُقدِّمةِ الجيشِ في القادسيَّةِ في قتالِ الفرسِ. وذكرهُ معَ سعدٍ في القادسيَّة ذكرًا جميلًا، كانَ سعدٌ يُرسِلُه للغارةِ واتِّباعِ الفرسِ، وهو الَّذي قتَلَ جالينوسَ، وأخذَ سَلَبَهُ. وقيلَ: بل قتلَه كثيرُ بنُ شهابٍ، وبالقادسيَّةِ قُتِلَ زُهرةُ هذا. «الاستيعاب» ٢/ ٥٦٥.

٢- قَرنُ الإنسانِ: جانبُ رأسِه. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٧٥٦١).

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٦٨، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣١٤.

٤- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٦٨.

فيه ما فعله سعدٌ بزهرة بن حويَّة. وقوله: (**وَقَدْ صَلِيَ بِمِثْلِ مَا صَلِيَ بِهِ، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ حَرْبِكَ مَا بَقِيَ**): التنكير في الجملتين للتعظيم والتهويل، والتقدير: وقد صلِي بالأمور العظام ... وقد بقي لك من حربك هول شديد ... وقوله: (**تَكْسِرُ قَرْنَهُ**): كنَّى بالقرن عن البأس والقوة، وفي العبارة استعارة مكنية؛ حيث شبه زهرة بالكبش القوي النطَّاح، ثم حذف المشبه وأتى بشيء من لوازمه وهو القرن. وقوله: (**وَإِنَّ زُهْرَةَ لَمْ يَكُنْ لِيُغَيِّبَ مِنْ سَلَبٍ سَلَبَهُ شَيْئًا**): بدأ العبارة بـ (**إِنَّ**) المؤكِّدة لأنَّ المخاطب شاكٌّ في محتواها. وكذلك بالغ في التوكيد في قوله: (**وَإِنِّي قَدْ نَفَّلْتُ**): لأنَّ هذا الحكم يخالف ما حكم به سعدٌ في شأن زهرة رضي الله عنهما .

[٤٤٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَسِرْ مِنْ شَرَافَ نَحْوَ فَارِسَ بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وَاسْتَعِنْ بِهِ عَلَى أَمْرِكَ كُلِّهِ، وَاعْلَمْ فِيمَا لَدَيْكَ أَنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى أُمَّةٍ عَدَدُهُمْ كَثِيرٌ، وَعُدَّتُهُمْ فَاضِلَةٌ، وَبَأْسُهُمْ شَدِيدٌ، وَعَلَى بَلَدٍ مَنِيعٍ - وَإِنْ كَانَ سَهْلًا - كَؤُودٍ[١] لِبُحُورِهِ وَفُيُوضِهِ وَدَآدِئِهِ، إِلَّا أَنْ تُوَافِقُوا غَيْضًا مِنْ فَيْضٍ.

وَإِذَا لَقِيتُمُ الْقَوْمَ أَوْ أَحَدًا مِنْهُمْ فَابْدَؤُوهُمُ الشَّدَّ وَالضَّرْبَ، وَإِيَّاكُمْ وَالْمُنَاظَرَةَ لِجُمُوعِهِمْ، وَلَا يَخْدَعُنَّكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خَدَعَةٌ مَكَرَةٌ[٢]، أَمْرُهُمْ غَيْرُ أَمْرِكُمْ، إِلَّا أَنْ تُجَادُّوهُمْ. وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْقَادِسِيَّةِ - وَالْقَادِسِيَّةُ بَابُ فَارِسَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَهِيَ أَجْمَعُ تِلْكَ الْأَبْوَابِ لِمَادَّتِهِمْ، وَلِمَا يُرِيدُونَهُ مِنْ تِلْكَ الْآصُلِ، وَهُوَ مَنْزِلٌ رَغِيبٌ خَصِيبٌ حَصِينٌ دُونَهُ قَنَاطِرُ[٣]، وَأَنْهَارٌ مُمْتَنِعَةٌ - فَتَكُونُ مَسَالِحُكَ[٤] عَلَى أَنْقَابِهَا، وَيَكُونُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَجَرِ وَالْمَدَرِ عَلَى حَافَّاتِ الْحَجَرِ وَحَافَّاتِ الْمَدَرِ، وَالْجِرَاعُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ الْزَمْ مَكَانَكَ فَلَا تَبْرَحْهُ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا أَحَسُّوكَ أَنْغَضْتَهُمْ وَرَمَوْكَ بِجَمْعِهِمُ الَّذِي يَأْتِي عَلَى

١- الكَؤُودُ: المُرتقَى الصَّعبُ، وهي الصَّعُودُ. «تهذيب اللُّغة» للأزهريِّ ١٠/ ١٧٨.

٢- خَدَعَةٌ: جمعُ خادعٍ. ومَكَرَةٌ: جمعُ ماكرٍ. مِثلُ كافرٍ وكَفَرَةٍ، وفاجرٍ وفَجَرَةٍ.

٣- القنطرةُ: ما يُبنَى على الماءِ لِلعُبورِ عليهِ، والجِسْرُ أعمُّ منهُ؛ لأنَّه يكونُ بناءً وغيرَ بناءٍ. «معجم الفروق اللُّغوية» ص١٦٣.

٤- المَسالِحُ: جمعُ مَسْلَحةٍ، وهم قومٌ ذَوُو سِلاحٍ. والمَسْلَحةُ أيضًا كالثَّغرِ والمَرْقَبِ، يكونُ فيهِ أقوامٌ يرقُبُونَ العدوَّ لِئلَّا يَطرُقَهم، فإذا رَأَوْهُ أعلَمُوا أصحابَهم لِيَتأَهَّبُوا لهُ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٧٤٨٤).

خَيْلِهِمْ وَرَجْلِهِمْ وَحَدِّهِمْ وَجِدِّهِمْ، فَإِنْ أَنْتُمْ صَبَرْتُمْ لِعَدُوِّكُمْ وَاحْتَسَبْتُمْ لِقِتَالِهِ وَنَوَيْتُمُ الْأَمَانَةَ رَجَوْتُ أَنْ تُنْصَرُوا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ لَا يَجْتَمِعُ لَكُمْ مِثْلُهُمْ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَجْتَمِعُوا، وَلَيْسَتْ مَعَهُمْ قُلُوبُهُمْ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى كَانَ الْحَجَرُ فِي أَدْبَارِكُمْ، فَانْصَرَفْتُمْ مِنْ أَدْنَى مَدَرَةٍ مِنْ أَرْضِهِمْ إِلَى أَدْنَى حَجَرٍ مِنْ أَرْضِكُمْ، ثُمَّ كُنْتُمْ عَلَيْهَا أَجْرَأَ وَبِهَا أَعْلَمَ، وَكَانُوا عَنْهَا أَجْبَنَ وَبِهَا أَجْهَلَ، حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِالْفَتْحِ عَلَيْهِمْ، وَيَرُدَّ لَكُمُ الْكَرَّةَ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(آصُل)**: قال في تاج العروس: «الأصْل: أسفلُ الشَّيء يقال: قعد في أصل الجبل، وأصل الحائط، وقلع أصل الشجر، ثم كثر حتى قيل: أصل كل شيء: ما يستند وجود ذلك الشيء إليه، فالأب أصل للولد، والنهر أصل للجدول، قاله الفيومي. وقال الراغب: أصل كل شيء قاعدته التي لو توهِّمَتْ مُرتَفِعَة ارتفع بارتفاعها سائره، وقال غيره: الأصل: ما يبنى عليه غيره ... ج: أُصُول لا يكَسَّرُ على غير ذلك، كما في المحكم، وآصُلٌ بالمَدِّ وضم الصادِ». وقوله: **(جِراع)**: قال في تاج العروس: «وقيل: الجَرْعاءُ: رَمْلٌ يرتفع وسطه، وترِقُّ نواحيه. وقال ابن الأثِيرِ: الأَجْرَعُ: المكان الواسع الذي فيه حُزُونَةٌ وخُشُونَةٌ. والجَرَعُ، محركة: الجمع، أي جمع جَرَعَةٍ، بحذف الهاءِ، وقيل: الجَرَعُ مفرد مثل الأجرعِ، وجمعه أجراع وجِراع. وجمع الجرعة، بالفتح: جِرَاعٌ، بالكسر». وقوله: **(أَنْغَضتَّهم)**: قال في مختار الصحاح: «نَغَضَ رَأْسَهُ من باب نَصَرَ وَجَلَسَ، أي: تحرَّك، و**(أَنْغَضَ)** رأسه حركه كالمتعجِّبِ من الشيء. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١]. و**(نغض)**

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٩٠-٤٩١، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٦٢.

فلان رأسه، أي: حَرَّكَهُ يتعدَّى ويلزم». والمعني: إذا فعلتَ ذلك حرَّكتهم وأَحْفَظتهم عليك.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين ﵁ قائد جيوشه سعد بن أبي وقاص ﵁ مبينا له كيف يكون العمل في قتال الفرس وفتح القادسية.

البيان والبلاغة: قوله: (**أما بعد**): هي عبارة فصل الخطاب التي سبق الحديث عنها مرارا. وقوله: (**فَسِرْ مِن ...**): استهلَّ أمير المؤمنين ﵁ حديثه بالأمر الصريح الجازم؛ لأنه يتحدَّث عن خطط حربية، وهو الأمر الذي لا يحتمل التلميح أو التأجيل. وقد بدأ أمير المؤمنين ﵁ بعدد من الأوامر الإيمانية المتعددة التي تدلُّ على شدة تعلقه بربه - سبحانه وتعالى - وأنَّه حريص على أن يكون القادة والجنود - كلاهما - مثلَه. وقوله: (**عَدَدُهُمْ كَثِيرٌ، وَعُدَّتُهُمْ فَاضِلَةٌ، وَبَأْسُهُمْ شَدِيدٌ**): هذه صفات متعددة للأمة المذكورة؛ لأنَّ الجمل بعد النكرات صفات، وقد عدَّد أمير المؤمنين الصفات وفصل بينها بالواو؛ لإرادة التعديد والتكثير وإبراز كلِّ صفة على حدة لما لها من أهمية بالغة. وقوله: (**وَإِذَا لَقِيتُمُ الْقَوْمَ أَوْ أَحَدًا مِنْهُمْ فَابْدَؤُوهُمُ...**): استعمل أداة الشرط إذا؛ لأنَّ الأمر متوقع أو متيقن الحدوث، لا شك فيه، والفاء في قوله: (**فَابْدَءُوهُمُ**): الفاء تفيد السرعة، وهذا هو الأليق بالحرب التي تقوم على الخفة والمباغتة. ثم أتبع ذلك بالتحذير فقال: (**إِيَّاكُمْ وَالْمُنَاظَرَةَ**)، والتحذير من أقوى صور النهي؛ إذ فيه إشارة إلى سوء عاقبة المخالفة للنهي والتحذير. وقوله: (**وَلَا يَخْدَعُنَّكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خَدَعَةٌ مَكَرَةٌ**): أكَّد أمير المؤمنين ﵁ نهيه هنا بعدَّة مؤكِّدات لأنَّ الأمر في غاية الأهمية؛ فمنها: نون التوكيد الثقيلة، والإطناب بتعليل النهي، و(**إنَّ**) المؤكِّدة، وتوالي الوصفين (**خَدَعَةٌ مَكَرَةٌ**) مع تقارب معناهما، والجملة الاسمية التي

تدل على ثبوت الحكم واستقراره. وقوله: (**فَإِنَّهُمْ خَدَعَةٌ مَكَرَةٌ، أَمْرُهُمْ غَيْرُ أَمْرِكُمْ**): عدَّد الأوصاف من غير عطف؛ بيانا لثبوت وتلازم تلك الصفات فيهم. وقوله: (**وَالْقَادِسِيَّةُ بَابُ فَارِسَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَهِيَ أَجْمَعُ تِلْكَ الْأَبْوَابِ لِمَادَّتِهِمْ، وَلِمَا يُرِيدُونَهُ مِنْ تِلْكَ الْآصُلِ**): كناية عن مركزية القادسية في بلاد الفرس، وأهميتها لهم. وقوله: (**وَلَيْسَتْ مَعَهُمْ قُلُوبُهُمْ**): كناية عن الجبن والخوف.

[٤٤٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَتَعَاهَدْ قَلْبَكَ، وَحَادِثْ جُنْدَكَ بِالْمَوْعِظَةِ وَالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ، وَمَنْ غَفَلَ فَلْيُحْدِثْهُمَا، وَالصَّبْرَ الصَّبْرَ، فَإِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَالْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الْحِسْبَةِ، وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ عَلَى مَنْ أَنْتَ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، وَأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ أَيْنَ بَلَغَكَ جَمْعُهُمْ، وَمَنْ رَأْسُهُمُ الَّذِي يَلِي مُصَادَمَتَكُمْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ مَنَعَنِي مِنْ بَعْضِ مَا أَرَدْتُ الْكِتَابَ بِهِ قِلَّةُ عِلْمِي بِمَا هَجَمْتُمْ عَلَيْهِ، وَالَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ أَمْرُ عَدُوِّكُمْ، فَصِفْ لَنَا مَنَازِلَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْبَلَدَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَدَائِنِ، صِفَةً كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَمْرِكُمْ عَلَى الْجَلِيَّةِ، وَخَفِ اللهَ وَارْجُهُ، وَلَا تُدِلَّ بِشَيْءٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَكُمْ، وَتَوَكَّلَ لِهَذَا الْأَمْرِ بِمَا لَا خُلْفَ لَهُ، فَاحْذَرْ أَنْ تَصْرِفَهُ عَنْكَ، وَيَسْتَبْدِلَ بِكُمْ غَيْرَكُمْ».

فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَعْدٌ بِصِفَةِ الْبُلْدَانِ: إِنَّ الْقَادِسِيَّةَ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَالْعَتِيقِ، وَإِنَّ مَا عَنْ يَسَارِ الْقَادِسِيَّةِ بَحْرٌ أَخْضَرُ فِي جَوْفٍ لَاحٍّ إِلَى الْحِيرَةِ بَيْنَ طَرِيقَيْنِ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَعَلَى الظَّهْرِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَعَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ يُدْعَى الْحَضُوضَ، يَطْلُعُ بِمَنْ سَلَكَهُ عَلَى مَا بَيْنَ الْخَوَرْنَقِ وَالْحِيرَةِ، وَمَا عَنْ يَمِينِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى الْوَلَجَةِ فَيْضٌ مِنْ فُيُوضِ مِيَاهِهِمْ. وَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ صَالَحَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ قَبْلِي أَلْبٌ لِأَهْلِ فَارِسَ، قَدْ خَفُّوا لَهُمْ، وَاسْتَعَدُّوا لَنَا. وَإِنَّ الَّذِي أَعَدُّوا لِمُصَادَمَتِنَا رُسْتُمَ فِي أَمْثَالٍ لَهُ مِنْهُمْ، فَهُمْ يُحَاوِلُونَ إِنْغَاضَنَا وَإِقْحَامَنَا،

وَنَحْنُ نُحَاوِلُ إِنْغَاضَهُمْ وَإِبْرَازَهُمْ، وَأَمْرُ اللهِ بَعْدُ مَاضٍ، وَقَضَاؤُهُ مُسَلَّمٌ إِلَى مَا قَدَّرَ لَنَا وَعَلَيْنَا، فَنَسْأَلُ اللهَ خَيْرَ الْقَضَاءِ، وَخَيْرَ الْقَدَرِ فِي عَافِيَةٍ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ وَفَهِمْتُهُ، فَأَقِمْ بِمَكَانِكَ حَتَّى يُنْغِضَ اللهُ لَكَ عَدُوَّكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا مَا بَعْدَهَا، فَإِنْ مَنَحَكَ اللهُ أَدْبَارَهُمْ فَلَا تَنْزِعْ عَنْهُمْ حَتَّى تَقْتَحِمَ عَلَيْهِمُ الْمَدَائِنَ؛ فَإِنَّهُ خَرَابُهَا إِنْ شَاءَ اللهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتواصل الخِطاب من أمير المؤمنين رضي الله عنه لقائد الجيش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ناصحا له ولجنده ومستفسرا عن صفة الموضع الذي هو فيه وما ينبني على ذلك من عمل.

البيان والبلاغة: قوله: (**أمَّا بعد**): فصل الخطاب الذي تحدَّثنا عنه غيره مرة. وقوله: (**وَالصَّبْرَ الصَّبْرَ**): أسلوب حث وإغراء، وهو تأكيد لفظي لأهمية وضرورة الصبر وأنه لا يكون نصر إلا بها، وكذلك قوله: (**الْحَذَرَ الْحَذَرَ**). وقوله: (**فَإِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَالْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الْحِسْبَةِ**): صدَّر كلامه بالتأكيد بـ (إنَّ)، وساقه مساق المثال السائر والقاعدة الثابتة؛ ليكون أرسخ في الذهن وأكثر تعلقا بها. وقوله: (**صِفَةً كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا**): تشبيه للوصف بالرؤية تأكيدا لضرورة الدقة في الوصف. وقوله: (**وَاجْعَلْنِي مِنْ أَمْرِكُمْ عَلَى الْجَلِيَّةِ**): كناية عن شدة الجلاء والوضوح. وقوله: (**قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ**): بدأ كلامه بالتأكيد لأنَّ المخاطب غائب، واحتمال عدم وصول الكتاب قائم عنده. وإسناد المجيء للكتاب إسناد مجازيٌّ، والمعنى: قد جاءني حامل الكتاب بالكتاب.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٩١-٤٩٢.

[٤٤٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«إِنِّي قَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي: أَنَّكُمْ إِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ هَزَمْتُمُوهُمْ، فَاطْرَحُوا الشَّكَّ، وَآثِرُوا التَّقِيَّةَ عَلَيْهِ، فَإِنْ لَاعَبَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنَ الْعَجَمِ بِأَمَانٍ، أَوْ قَرَفَهُ بِإِشَارَةٍ أَوْ بِلِسَانٍ، فَكَانَ لَا يَدْرِي الْأَعْجَمِيُّ مَا كَلَّمَهُ بِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَمَانًا؛ فَأَجْرُوا ذَلِكَ لَهُ مَجْرَى الْأَمَانِ. وَإِيَّاكُمْ وَالضَّحِكَ. وَالْوَفَاءَ الْوَفَاءَ؛ فَإِنَّ الْخَطَأَ بِالْوَفَاءِ بَقِيَّةٌ، وَإِنَّ الْخَطَأَ بِالْغَدْرِ الْهَلَكَةُ، وَفِيهَا وَهْنُكُمْ وَقُوَّةُ عَدُوِّكُمْ، وَذَهَابُ رِيحِكُمْ، وَإِقْبَالُ رِيحِهِمْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي أُحَذِّرُكُمْ أَنْ تَكُونُوا شَيْنًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَسَبَبًا لِتَوْهِينِهِمْ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه قائد جيوشه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرة أخرى، يجرِّؤه على الإقدام على قتال الفرس، ومذكرا إياه بأخلاق القتال.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي قَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي**): بدأ كلامه بالتأكيد لخطورة الأمر، ولأنه سينبني عليه قتال ودماء. وقوله: (**أَنَّكُمْ إِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ هَزَمْتُمُوهُمْ**): عاد بالتأكيد في كلامه تارة أخرى، واستعمل أداة الشرط (**إذا**): توقعا لحصول المشروط قريبا، وقد كان. وقوله: (**فَإِنْ لَاعَبَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنَ الْعَجَمِ بِأَمَانٍ، أَوْ قَرَفَهُ بِإِشَارَةٍ أَوْ بِلِسَانٍ**): أراد بعبارته هذه التكنية عن أدنى ما يمكن أن يحسبه الأعجمي أمانا،

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٩٣، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٢٩٠.

وأنه لابدَّ أن يجري مجرى الأمان. قوله: (**وَإِيَّاكُمْ وَالضَّحِكَ**): نهي شديد استخدم فيه أسلوب التحذير الذي هو من أقوى صيغ النهي. وقوله: (**الْوَفَاءَ الْوَفَاء**): استخدم الإغراء والتوكيد اللفظي مبالغة في الحث على الوفاء لخطورة المقام الذي هم فيه؛ ولذلك أتبع ذلك بالإطناب في بيان العلة. وقوله: (**وَذَهَابُ رِيحِكُمْ، وَإِقْبَالُ رِيحِهِمْ**): كنَّى عن القوة بالريح، وهو في ذلك متأثر بقول الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

[٤٤٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ سَعْدٌ أَنَّ مَلِكَ فَارِسَ قَدْ وَلَّى رُسْتُمَ بْنَ الْفَرُّخْزَاذِ الْأَرْمَنِيَّ حَرْبَهُ

«لَا يَكْرُبَنَّكَ مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ، وَلَا مَا يَأْتُونَكَ بِهِ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَابْعَثْ إِلَيْهِ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْمَنْظَرَةِ[١] وَالرَّأْيِ وَالْجَلَدِ يَدْعُونَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ دُعَاءَهُمْ تَوْهِينًا لَهُمْ، وَفَلْجًا عَلَيْهِمْ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين قائد جيشه رضي الله عنهما؛ ردًّا على خطابه حول تولية ملك الفرس لرستم قائدًا على جيوشهم، وما ينبغي أن يفعله.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا يَكْرُبَنَّكَ**): بدأ بالنهي المؤكد بالنون المثقلة؛ تشجيعا لسعد رضي الله عنه وتجريئا له على قتال عدوه. وقوله: (**مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ، ولَا مَا يَأْتُونَكَ بِهِ**): أطنب في تعديد الفاعل تأكيدًا للنهي وتعميما له.

١- في «الكاملِ في التَّاريخِ»: (أَهْل الْمُنَاظَرَةِ). وفي «البدايةِ والنِّهايةِ»: (أَهْل النَّظَرِ).

٢- رواهُ الطَّبَرِيُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٩٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٢٩٢، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٦١٩.

[٤٤٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ رَدًّا عَلَى تَعْرِيضِهِ بِجَرِيرٍ الْبَجَلِيِّ

«إِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَسْتَعْمِلَكَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين رضي الله عنه خطابه للمثنى بن حارثة الشيباني، مقرِّعا له حين عرَّض بالصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَمْ أَكُنْ لأَسْتَعْمِلكَ**): تعدد المؤكدات في هذه الجملة الخبرية المنفية للتوكيد، فالجملة مؤكدة بـ(إن، وكان التامة، واللام). وقوله: (**رَجُلٍ**) تنكير رجل للتقليل. وقوله: (**مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ**): بيان لفضل الصحابة، وتوبيخ للمثنى على تعريضه بجرير.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٧٢.

[٤٤٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلى الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ، لَمَّا بَلَغَهُ اجْتِمَاعُ الْفُرْسِ عَلَى يَزْدَجِرْدَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَاخْرُجُوا مِنْ بَيْنَ ظَهْرَيِ الْأَعَاجِمِ، وَتَفَرَّقُوا فِي الْمِيَاهِ الَّتِي تَلِي الْأَعَاجِمَ عَلَى حُدُودِ أَرْضِكُمْ وَأَرْضِهِمْ، وَلَا تَدَعُوا فِي رَبِيعَةَ أَحَدًا وَلَا مُضَرَ وَلَا حُلَفَائِهِمْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّجَدَاتِ وَلَا فَارِسًا إِلَّا اجْتَلَبْتُمُوهُ، فَإِنْ جَاءَ طَائِعًا وَإِلَّا حَشَرْتُمُوهُ، احْمِلُوا الْعَرَبَ عَلَى الْجِدِّ إِذْ جَدَّ الْعَجَمُ، فَلْتَلْقُوا جِدَّهُمْ بِجِدِّكُمْ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين رضي الله عنه خطابه للمثنى بن حارثة الشيباني، مبينا له كيف يواجه الفرس وقائدهم يَزدجِرْد.

البيان والبلاغة: قوله: (**أمَّا بعد**): فصل الخطاب الذي يمهد للانتقال إلى صلب الموضوع. ويلاحظ في النص: الإيجاز والمباشرة؛ ولذلك عدَّد الأوامر والنواهي وتابع بينها، فقال: (**فَاخْرُجُوا**)، (**وَتَفَرَّقُوا**)، (**وَلاتَدَعُوا**). وقوله: (**أحدا**) و(**فارسا**) جاء نكرة في سياق النفي ليفيد الحصر، أي: لا تتركوا أحدا، أيَّ أحد. وقوله: (**الْعَرَبَ**): أطلق الكل وأراد البعض، وهو ربيعة ومضر.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٧٨.

[٤٥٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إلى الأحنف بن قيس لما بلغه تغلبه على الْمَرْوَيْنِ وَبَلْخَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَا تَجُوزَنَّ النَّهْرَ، وَاقْتَصِرْ عَلَى مَا دُونَهُ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ بِأَيِّ شَيْءٍ دَخَلْتُمْ عَلَى خُرَاسَانَ؛ فَدَاوِمُوا عَلَى الَّذِي دَخَلْتُمْ بِهِ خُرَاسَانَ يَدُمْ لَكُمُ النَّصرُ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَعْبُرُوا فَتُفَضُّوا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه الأحنف بن قيس بعد تغلبه على الْمَرْوَيْنِ وَبَلْخَ، مبينا له كيف يفعل فيما بعد.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَلَا تَجُوزَنَّ النَّهْرَ**): بدأ بالنهي المؤكَّد بنون التوكيد الثقيلة؛ تحذيرا له من خطورة ذلك الأمر الذي قد يشكل خطرا على المسلمين، و(**أل**) في (**النهر**): للعهد الذهني. وقوله: (**وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَعْبُرُوا فَتُفَضُّوا**): تحذير من العُبور، مؤكد بذكر العلة من النهي والتحذير؛ زيادة في التأكيد والتحذير.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه».

[٤٥١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

إِلَى مَلِكِ الرُّومِ، وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ كَلِمَةٍ يَجْتَمِعُ فِيهَا الْعِلْمُ كُلُّهُ

«أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لَهَا تَجْتَمِعْ لَكَ الْحِكْمَةُ كُلُّهَا. وَاعْتَبِرِ النَّاس بِمَا يَلِيكَ تَجْتَمِعْ لَكَ الْمَعْرِفَةُ كُلُّهَا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه خلاصة غالية يسديها الفاروق رضي الله عنه لمن سأله عن كلمة يجتمع فيها العلم، والعلم هنا هو العلم الذي يساعده على العمل.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**): في الجملة اقتباس وتأثر من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**». و(**أل**) في (**للنَّاس**): للاستغراق فتعمُّ جميع الناس، أو للعهد الذهني فتقتصر على المسلمين. وبين الكلمات: (**أَحِبَّ، اكْرَهْ، تُحِبُّ، تَكْرَهُ**): طباق يوضح المعنى ويؤكده، وبين الجملتين: (**أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لَهَا**) مقابلة أسهمت في إبراز المعنى وتقويته. وقوله (**كُلُّهَا**) في قوله: (**تَجْتَمِعْ لَكَ الْمَعْرِفَةُ كُلُّهَا**) توكيد معنوي.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢٥٩، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٣٩.

[٤٥٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى الشَّامِ

«أَنِ انْظُرُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْ صَالِحِي مَنْ قَبْلَكُمْ، فَاسْتَعْمِلُوهُ عَلَى الْقَضَاءِ، وَارْفَعُوهُمْ، وَأَوْسِعُوا عَلَيْهِمْ، وَأَغْنُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين خطابه إلى الصاحبين أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل - رضي الله عن الجميع - مبينا لهم صفات القاضي الذي سينتخبونه وحقَّه عليهما.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بـ (**أن**) التفسيرية، التي أتبعها بالأمر بالنظر والبحث عن الشخص المناسب للقضاء. وقوله: (**ارْفَعُوهُمْ، وَأَوْسِعُوا، وَأَغْنُوهُمْ**): تكرار الأمر فيه كناية عن وجوب الاهتمام التام بأحوال القضاة تفريغا لهم للقضاة لمهمتهم العظيمة. وبين (**ارْفَعُوهُمْ**) و(**أَغْنُوهُمْ**) سجع أسهم في إبراز المعنى، وأعطى الكلام جرسا حُلوا.

١- رواهُ ابنُ المقرئِ في «المُعجَمِ» (١٢٤٤)، وعفَّانُ بنُ مسلمٍ في «أحاديثِه» (٢٨)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٥٨/ ٤٣٥.

[٤٥٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ يَعْهَدُ إِلَيْهِ

«خُذِ الصَّدَقَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ طُهْرَةً لِأَعْمَالِهِمْ، وَزَكَاةً لِأَمْوَالِهِمْ، وَحُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللهِ، الْعَدَاءُ فِيهَا حَيْفٌ وَظُلْمٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَالتَّقْصِيرُ عَنْهَا مُدَاهَنَةٌ فِي الْحَقِّ وَخِيَانَةٌ لِلْأَمَانَةِ، فَادْعُ النَّاس بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى أَرْفَقِ الْمَجَامِعِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى مَصَالِحِهِمْ، وَلَا تَحْبِسِ النَّاس أَوَّلَهُمْ لِآخِرِهِمْ؛ فَإِنَّ الرَّجزَ[١] لِلْمَاشِيَةِ عَلَيْهَا شَدِيدَةٌ عَلَيْهَا مُهْلَاتٌ، وَلَا تَسُقْهَا مَسَاقًا يُبْعِدُ بِهَا الْكَلَأَ، وَرُدَّهَا فَإِذَا أَوْقَفَ الرَّجُلُ عَلَيْكَ غَنَمَهُ، فَلَا تعْتَمْ مِنْ غَنَمِهِ، وَلَا تَأْخُذْ مِنْ أَدْنَاهَا، وَخُذِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَوْسَطِهَا، وَلَا تَأْخُذْ مِنْ رَجُلٍ إِنْ لَمْ تَجِدْ فِي إِبِلِهِ السِّنَّ الَّتِي عَلَيْهِ إِلَّا تِلْكَ السِّنَّ مِنْ شَرْوَى[٢] إِبِلِهِ، أَوْ قِيمَةَ عَدْلٍ، وَانْظُرْ ذَوَاتِ الدَّرِّ، وَالْمَاخِضَ مِمَّا تَجِبُ مِنْهُ الصَّدَقَةُ فَتَنَكَّبْ عَنْهَا عَنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّهَا مَالُ حَاضِرِهِمْ، وَزَادُ مُغْرِبِهَمْ+، أَوْ مُعِدِّيهِمْ+، وَذَخِيرَةُ زَمَانِهِمْ. ثُمَّ اقْسِمْ لِلْفُقَرَاءِ، وَابْدَأْ بِضَعَفَةِ الْمَسْكَنَةِ، وَالْأَيْتَامِ، وَالْأَرَامِلِ، وَالشُّيُوخِ، فَمَنِ اجْتَمَعَ لَكَ مِنَ الْمَسَاكِينِ، فَكَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ يَتَعَاقَبُونَ وَيَتَحَامَلُونَ؛ فَاقْسِمْ لَهُمْ مَا كَانَ مِنَ الْإِبِلِ يَتَعَاقَبُوهُ حَمْلَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْغَنَمِ امْنَحْهُمْ، وَمَنْ كَانَ فَذًّا فَلَا تُنْقِصْ كُلَّ خَمْسَةٍ مِنْهُمْ مِنْ فَرِيضَةٍ أَوْ عَشْرٍ شَيْئًا إِلَى خَمْس عَشْرَةَ مِنَ الْغَنَمِ»[٣].

١- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٢٠٦ بلفظِ: (الرَّجْن) بالنُّونِ، وقال: (رَجَنَ الشَّاةَ رَجْنًا؛ إِذَا حَبَسَهَا، وَأَسَاءَ عَلَفَهَا).

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٤٧٠: (أي مِن مِثْلِ إِبِلِهِ. والشَّرْوَى: المِثْلُ. وهذا شَرْوَى هذا؛ أي: مِثْلُهُ).

٣- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٦٨٢٢).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أحد عماله، يبين له كيف يجمع الزكاة وكيف يقسمها بين مستحقيها.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين رضي الله عنه حديثه بالأمر الصريح لعامله، مقتبسا من القرآن الكريم ومتأثرا بقوله - تعالى -: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقد أطنب أمير المؤمنين في تعليل هذا الأمر وبيان حكمته معدِّدا أسبابه، فقال: (**طُهْرَةً لِأَعْمَالِهِمْ، وَزَكَاةً لِأَمْوَالِهِمْ، وَحُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللهِ**). وبين الجملتين في قوله: (**فَادْعُ النَّاس بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى أَرْفَقِ الْمَجَامِعِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى مَصَالِحِهِمْ، وَلَا تَحْبِسِ النَّاس أَوَّلَهُمْ لِآخِرِهِمْ**): مقابلة أسهمت في إثراء وإبراز المعنى وتقويته وتجليته. وكذا في قوله: (**لَا تَأْخُذْ مِنْ أَدْنَاهَا، وَخُذِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَوْسَطِهَا**). وقوله: (**فَإِنَّهَا مَالُ حَاضِرِهِمْ، وَزَادُ مُغْرِبِهِمْ، وَذَخِيرَةُ زَمَانِهِمْ**): عدَّد صفات الأنعام تأكيدا لأهميتها عند العرب، ووجوب رعاية ذلك عند أخذ الصدقة. وفي الجملة سجع واضح أعطى الكلام جرسا حُلوا، وكذا في قوله: (**يَتَعَاقَبُونَ وَيَتَحَامَلُونَ**). والنص يغلب عليه أسلوب التقسيم والتفصيل والإطناب لأنَّ المقام فتيا دقيقة لا يحتمل سوى ذلك.

[٤٥٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ آذِينَ بْنَ الْهُرْمُزَانِ قَدْ جَمَعَ جَمْعًا

«ابْعَثْ إِلَيْهِمْ ضِرَارَ بْنَ الْخَطَّابِ[1] فِي جُنْدٍ، وَاجْعَلْ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ ابْنَ الْهُذَيْلِ الْأَسَدِيَّ، وَعَلَى مُجَنِّبَتَيْهِ عَبْدَ اللهِ بْنَ وَهْبٍ الرَّاسِبِيَّ[2] حَلِيفَ بَجِيلَةَ، وَالْمُضَارِبَ بْنَ فُلَانٍ الْعِجْلِيَّ[3]»[4].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتابٌ من أمير المؤمنين إلى قائد الجيوش سعد بن أبي وقاص

١- ضِرَارُ بنُ الخطَّابِ بنِ مِرْداسٍ القُرشيُّ الفِهْرِيُّ: فارسٌ شاعرٌ، صحابيٌّ، مِنَ القادةِ، مِن سُكَّانِ الشُّرَاةِ، فوقَ الطَّائفِ. قاتَلَ المسلمينَ يومَ أُحُدٍ والخندقِ أشدَّ قتالٍ، وأسلمَ يومَ الفتحِ، وهو الَّذي خاطبَ النَّبيَّ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - يومَ الفتحِ قائلًا:

يَا نَبِيَّ الهُدَى إِلَيكَ لَجَا ... حَيُّ قريشٍ ولاتَ حِينَ لَجَاءِ
حِينَ ضَاقَتْ عَلَيهِم سَعَةُ الأَرْ ... ضِ وعَادَاهُم إلهُ السَّمَاءِ
والتقتْ حَلْقَتَا البِطَانِ على القَوْ ... مِ ونُودُوا بالصَّيْلَمِ الصَّلْعاءِ
إنَّ سَعدًا يُرِيدُ قَاصِمَةَ الظَّهْـ ... ـرِ بأهلِ الحَجُونِ والبطحاءِ

«الطَّبقات الكُبرَى» ٥/ ٤٥٤، و«الإصابة» ٣/ ٣٩٢-٣٩٣.

٢- عبدُ اللهِ بنُ وهبٍ الرَّاسِبيُّ، مِن بَنِي رَاسِبِ بنِ مالكِ بنِ مَيْدَعَانَ بنِ مالكِ بنِ نَصرِ بنِ الأزدِ: لهُ إدراكٌ، وليسَ لهُ صحبةٌ، شهِد فتوحَ العراقِ معَ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ. وكانَ عجبًا في كثرةِ العبادةِ حتَّى لُقِّبَ ذا الثَّفِناتِ؛ كانَ لكثرةِ سُجودِه صارَ في يديهِ ورُكبتَيهِ كَثَفِناتِ البعيرِ. كانَ معَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ في حُرُوبه، ولمَّا وقعَ التَّحكيمُ أنكرهُ جماعةٌ فِيهم الرَّاسبيُّ، فاجتمعوا بالنَّهْرَوانِ - بينَ بغدادَ وواسطٍ -، وأمَّروهُ عليهِم، فقاتلَهم عليٌّ - رضيَ اللهُ عنهُ -، وقُتِلَ الرَّاسبيُّ في هذه الوقعةِ. «الإصابة» ٥/ ٧٨.

٣- مُضارِبُ بنُ زيدٍ العجليُّ، كانَ مِن قُوَّادِ المُثنَّى بنِ حارثةَ وأُمرائِه على مُقدِّمتِه لمَّا سارَ إلى مُحارَبةِ أهلِ العراقِ، وذلكَ سنةَ ثلاثَ عشرةَ، ثمَّ شهِد بعدَ ذلكَ القادسيَّةَ. «الإصابة» ٦/ ٩٩.

٤- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣٧.

ﭬ يأمره فيه باتخاذ تدبير محدد لمواجهة جيش آذِينَ بنِ الهُرْمُزَانِ.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين كتابه بالجملة الطلبية في قوله: (**ابْعَثْ**)؛ لأنَّ الأمر جد لا يحتمل سوى التوجيه المباشر. وقوله: (**حَلِيفَ بَجِيلَةَ**) إطنابٌ أراد منه تمييز عبد الله الراسبي كي لا يختلط بغيره، وهكذا في الأسماء الثلاثة التي في النص.

[٤٥٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«إِنَّ اللهَ قَدْ فَتَحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الشَّامَ وَالْعِرَاقَ، فَابْعَثْ مِنْ عِنْدِكَ جُنْدًا إِلَى الْجَزِيرَةِ، وَأَمِّرْ عَلَيْهِمْ أَحَدَ الثَّلَاثَةِ: خَالِدَ بْنَ عُرْفُطَةَ، أَوْ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ[١]، أَوْ عِيَاضَ بْنَ غَنْمٍ[٢]»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتابٌ من أمير المؤمنين إلى قائد الجيوش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يأمره فيه بإرسال جندٍ إلى الجزيرة، مبينا من يُؤمِّر عليهم.

١- هاشمُ بنُ عُتبةَ بنِ أبي وقَّاصٍ الزُّهْرِيُّ، ابنُ أخي سعدٍ، ويُعرَفُ بالمِرْقالِ. وُلِد في حياةِ النَّبِيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، ولم تَثبُتْ لهُ صُحْبةٌ، وشَهِدَ اليرموكَ وأُصِيبتْ عينُه يومئذٍ، وشهِد فتحَ دمشقَ، وكانَ أحدَ الأشرافِ، وكانتْ معهُ رايةُ عليٍّ يومَ صِفِّينَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٣٣١.

٢- عياضُ بنُ غَنْمٍ الفِهريُّ، أسلمَ قبلَ الحديبيةِ وشهدَها معَ رسولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، فبايعَ بيعةَ الرِّضوانِ. وكانَ خَيِّرًا، صالحًا، زاهدًا، سَخِيًّا، وهو الَّذي افتتحَ الجزيرةَ صُلحًا. وحضرَ فتحَ المدائنِ معَ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ. وكانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ ولَّاهُ الإمارةَ بالشَّامِ بعدَ أبي عُبيدةَ بنِ الجرَّاحِ، وبها كانتْ وفاتُه. «سير أعلام النُّبلاء» ٢/ ٣٥٤، و«الإصابة» ٤/ ٦٢٩.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٥٣، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٣٥٧.

البيان والبلاغة: استهل عمر رضي الله عنه حديثه بالتأكيد بـ (إنَّ) و(قد) والجملة الاسمية الدالة على ثبوت الحكم واستقراره، وليس ذلك لشك سعد فيما سيقول، ولكن لأنه أراد أن يؤسس على هذا الخبر أمرا هامًّا ولذلك أكَّد عليه. وقوله: (**أَحَدَ الثَّلَاثَةِ: خَالِدَ بْنَ عُرْفُطَةَ، أَوْ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ، أَوْ عِيَاضَ بْنَ غَنْمٍ**): استعمل أسلوب اللف والنشر والتقسيم، وأطنب بذكر أسماء القادة المقترحين؛ زيادة في البيان ومبالغة في الإيضاح.

[٤٥٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ رضي الله عنه، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ حُصِرَ بِالشَّامِ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ

«سَلَامٌ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ مَا تَنْزِلُ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلِ شِدَّةٍ يَجْعَلِ اللهُ بَعْدَهَا فَرَجًا، وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، وَإِنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتاب من أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما يواسيه وينصحه حين حاصره العدو وتألب عليه بالشام.

البيان والبلاغة: قوله: (**سلام**): اقتضب وأوجز في مقدمة الكتاب إسراعا في بلوغ المقصود، ثم أتى بفصل الخطاب (**أمّا بعد**) ليبدأ في المراد. ثم بدأ كلامه بالفاء والتأكيد وضمير الشأن؛ طلبا للاهتمام وتأكيدا على أهمية الأمر، وتنكير (**عبد**) للعموم والشمول. ومثل ذلك في قوله: (**وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**). والتضاد في قوله: (**عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**) يبرز المعنى ويؤكده.

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإ» (١٦٢١)، وابنُ المباركِ في «الجهادِ» (٢١٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥٣٢) و(٣٣٨٤٠)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٨٠)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ» (٣١)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٣١٧٦)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٩٥٣٨)..

[٤٥٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه فِيما بَلَغَهُ مِنْ أَمْرِ الزِّنَا

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ رَقِيَ إِلَيَّ مِنْ حَدِيثِكَ حَدِيثٌ، فَإِنْ يَكُنْ مَصْدُوقًا عَلَيْكَ، فَلَأَنْ تَكُونَ مِتَّ قَبْلَ الْيَوْمِ خَيْرٌ لَكَ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتاب من أمير المؤمنين إلى المغيرة بن شعبة رضي الله عنهما يستوثق منه خبرا بلغه عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّهُ قَدْ رَقِيَ**): جملة خبرية مؤكدة بـ(**إنَّ**)، و(**قد**) والفعل الماضي، والضمير ضمير الشأن، وقد سبق الحديث عن دلالته في النص رقم ثمانية وسبعين ومئة. واختيار الفعل (**رَقِي**) دون (**بلغ**) فيه بيان لعلو شأن الإمارة والأمير، وذلك أنسب عند التعامل مع المخطئ. وقوله: (**مَصْدُوقًا**): استعمل صيغة اسم المفعول بيانا لعدم أهمية الفاعل، وأنَّ الأهمَّ هو التثبت من صدق الخبر.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٩٤٢١).

[٤٥٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه

«أَنِ اسْتَنْشِدْ مَنْ قِبَلَكَ مِنَ الشُّعَرَاءِ مَا قَالُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ»، فَأَرْسَلَ الْمُغِيرَةُ إِلَى الْأَغْلَبِ الْعِجْلِيِّ(١)، فَقَالَ: أَنْشِدْنِي. فَقَالَ: أَرَجَزًا تُرِيدُ أَمْ قَصِيدًا؛ فَقَدْ سَأَلْتَ هَيِّنًا مَوْجُودًا؟ ثُمَّ أَرْسَلَ الْمُغِيرَةُ إِلَى لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ(٢)، فَقَالَ: أَنْشِدْنِي. فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَنْشَدْتُكَ مِمَّا قَدْ عُفِيَ عَنْهُ مِنْ شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: لَا، أَنْشِدْنِي مَا قُلْتَ فِي الْإِسْلَامِ. فَانْطَلَقَ إِلَى أَدِيمٍ، فَكَتَبَ فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَقَالَ: أَبْدَلَنِي اللهُ مَكَانَ الشِّعْرِ هَذَا.

فَكَتَبَ الْمُغِيرَةُ بِذَلِكَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «إِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ حَقَّ الْإِسْلَامِ إِلَّا لَبِيدَ بْنَ رَبِيعَةَ، فَأَنْقِصْ مِنْ عَطَاءِ الْأَغْلَبِ خَمْسَمِئَةٍ وَاجْعَلْهَا فِي عَطَاءِ لَبِيدٍ»، فَرَكِبَ إِلَيْهِ الْأَغْلَبُ، فَقَالَ: تُنْقِصُ عَطَائِي مِنْ أَنْ أَطَعْتُكَ؟! فَرَدَّ الْخَمْسَمِئَةِ، وَأَقَرَّ فِي عَطَاءِ لَبِيدٍ الْخَمْسَمِئَةِ(٣).

١- الأغلبُ بنُ جُشَمَ بنِ سعدٍ العِجْلِيُّ، عُمِّرَ في الجاهليَّةِ طويلًا، وأدركَ الإسلامَ، فحسُن إسلامُه، وهاجرَ إلى المدينةِ بعدَ موتِه -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-، ولهذا لم يذكرْهُ أحدٌ في الصَّحابةِ. ثُمَّ كان ممَّن توجَّه إلى الكوفةِ معَ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، فاستُشهِد في وقعةِ نَهاوندَ، فقبرُه هناكَ معَ قبورِ الشُّهداءِ، وهو أوَّلُ مَن رجزَ الأراجيزَ. «المنتظم» لابنِ الجوزيِّ ٤/ ٢٨١، و«الإصابة» ١/ ٢٤٩-٢٥٠.

٢- لَبِيدُ بنُ ربيعةَ بنِ مالكٍ الهَوَازِنِيُّ العامريُّ: وفدَ على النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ- فأسلمَ وحسُن إسلامُه، وكانَ أحدَ أشرافِ قومِه، نزلَ الكوفةَ، وكانَ لا تهبُّ الصَّبا إلَّا نحرَ وأطعمَ، وكانَ قدِ اعتزلَ الفِتنَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٤٣٦.

٣- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (١٤).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتاب من أمير المؤمنين إلى المغيرة بن شعبة ﵁ يأمره بجمع أشعار العرب، ثم يتابع ذلك معه ويوجهه كيف يصنع مع الشعراء.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين خطابه بـ **(أن)** التفسيرية، ثم أتبع ذلك بالأمر **(اسْتَنْشِدْ)**، أي: اطلب الشعراء واستمع إليهم. وقوله: **(الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ)**: بين اللفظين طباق يبرز المعنى وينوع فيه. قوله: **(أَحَدٌ)**: نكرة في سياق النفي أفادت العموم، ثم عاد إلى التقييد بقوله: **(مِنْ الشُّعَرَاء)**. وقوله: **(إِلَّا لَبِيدَ بْنَ رَبِيعَةَ)**: الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر.

[٤٥٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى عُمَّالِهِ فِي الْأَمْصَارِ

«أَنْ لَا يَجْلِدَنَّ أَمِيرُ جَيْشٍ وَلَا سَرِيَّةٍ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَدًّا، وَهُوَ غَازٍ، حَتَّى يَقْطَعَ الدَّرْبَ قَافِلًا؛ لِئَلَّا تَحْمِلَهُ حَمِيَّةُ الشَّيْطَانِ فَيَلْحَقَ بِالْكُفَّارِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه عُمَّالَه على الأمصار في شأن إقامة الحدود في أرض الحرب.

البيان والبلاغة: النص رقم أربعين وأربعمئة مشابه لهذا النص لفظا ومعنى، وقد تقدم شرحه هناك بما يغني عن الإعادة هنا.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٥٠٠)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٩٤٦٤).

[٤٦٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى عُمَّالِهِ فِي الْأَمْصَارِ

«أَنْ لَا تُطِيلُوا بِنَاءَكُمْ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَرِّ أَيَّامِكُم»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المقام مقام تحذير ونهي عن إطالة البناء، والزمان والمكان غير مذكورين.

البيان والبلاغة: تعرَّض الفاروق في القول السابق لمسألة التطاول في البنيان، وقد اختلف العلماء في مسألة تطاول البنيان على ثلاثة أقوال: أما القول الأول: فيقول بتحريم البناء إذا زاد عن الحاجة. والقول الثاني: كراهة التطاول في البنيان والتوسع فيه زيادة عن الحاجة. والقول الثالث: يبيح التوسع في البناء. وقول الفاروق رضي الله عنه يميل تجاه الرأي الأول، وفيه تناص خفي بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل: «... **إِذَا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْبَهْمِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**»، والحديث السابق من أدلة المانعين، وكذا استشهدوا بقوله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيُؤْجَرُ فِي نَفَقَتِهِ كُلِّهَا إِلَّا فِي الْبِنَاءِ**»، وفيه أن التطاول والزخرفة في البناء لا أجر فيها؛ لأنها لا يكون لها نية صالحة؛ إذ المباحات تصير طاعات بالنية، فدل على أن التطاول والزخرفة ليست من المباحات، وكذا قول الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٨/ ٤٨٦، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٤٥٢)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٢٠، وابنُ أبي الدُّنيا في «قصرِ الأملِ» (٢٨٣).

[الشعراء : ١٢٨-١٢٩]، وجه الدلالة أن الله عاب عليهم بناء القصور المرتفعة بدون حاجة وإنما للفخر، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١]. وقد ذكر شيخ الإسلام في هذا الفصل قولا فصلا فيما يخص فقه التعامل مع المباحات؛ إذ قال: «وَأَمَّا الْمُبَاحَاتُ: فَيُثَابُ عَلَى تَرْكِ فُضُولِهَا، وَهُوَ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِمَصْلَحَةِ دِينِهِ، كَمَا أَنَّ الْإِسْرَافَ فِي الْمُبَاحَاتِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧]»[1]. فبدأ عمر ﷺ بالنهي عن إطالة البناء مستخدمًا (**أن**) المخففة من الثقيلة و(**لا**) النافية. وأتبع بذكر علة هذا الفعل؛ فبدأ باستخدام الفاء الدالة على السببية والتعليل، ثم استخدم (**إن**)؛ للتوكيد وللدلالة على عاقبة أمرهم السيئة. فكأنَّ الحديثَ السابق ضمَّن الفاروق ﷺ فيه عاقبة أمر المسرفين المبذرين الذين يتطاولون في البنيان دون حاجة. وفي قوله: (**بِنَاءَكُمْ، أَيَّامِكُمْ**): سجع يعطي جرسًا موسيقيًّا؛ لجذب انتباه المتلقي.

١ () «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١٣٣).

[٤٦١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ[١] رضي الله عنه وَالِي الْيَمَنِ لِإِجْلَاءِ أَهْلِ نَجْرَانَ[٢]

«ائْتِهِمْ، وَلَا تَفْتِنْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، ثُمَّ أَجْلِهِمْ، مَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ، وَأَقْرِرِ الْمُسْلِمَ، وَامْسَحْ أَرْضَ كُلِّ مَنْ تُجْلِي مِنْهُمْ، ثُمَّ خَيِّرْهُمُ الْبُلْدَانَ، وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّا نُجْلِيهِمْ بِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ: أَلَّا يُتْرَكَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ؛ فَلْيُخْرَجُوا، مَنْ أَقَامَ عَلَى دِينِهِ مِنْهُمْ، ثُمَّ نُعْطِيهِمْ أَرْضًا كَأَرْضِهِمْ؛ إِقْرَارًا لَهُمْ بِالْحَقِّ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَوَفَاءً بِذِمَّتِهِمْ فِيمَا أَمَرَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، بَدَلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيرَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَغَيْرِهِمْ، فِيمَا صَارَ لِجِيرَانِهِمْ بِالرِّيفِ»[٣].

١- يَعْلَى بنُ أُمَيَّةَ التَّميميُّ، ويُقالُ لهُ أيضًا: يَعْلَى بنُ مُنْيَةَ. ومُنْيَةُ هي أُمُّهُ مُنْيَةُ بِنتُ غَزْوَانَ، أُخْتُ عُتبَةَ بنِ غزوانَ. أسلمَ يومَ الفتحِ، وشهد الطائفَ وتبوكًا، وهو القائلُ: «غزوتُ معَ رسولِ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - جيشَ العُسْرَةِ، وكانَ مِن أوثقِ أعمالي في نفسي». ولهُ أخبارٌ في السَّخاءِ، وهو أوَّلُ مَن أرَّخَ الكتبَ، واستعملهُ أبو بكرٍ على حُلْوانَ في الرِّدَّةِ، ثمَّ استعملهُ عمرُ على نَجرانَ، واستعملهُ عثمانُ على اليمنِ فأقامَ بصنعاءَ. وهو أوَّلُ مَن ظاهرَ للكعبةِ بكسوتينِ، أيَّامَ ولايتِه على اليمنِ، صنعَ ذلكَ بأمرِ عثمانَ. «الطَّبقات الكبرى» ٥/ ٤٥٦، و«تاريخ الإسلام» ٢/ ٥٥١، و«الأعلام» ٨/ ٢٠٤.

٢- نَجْرَان على وزنِ فَعْلَان: لها ذكرٌ كثيرٌ في السِّيرةِ، ولها حوادثُ تملأُ مُجلَّدًا منذُ الجاهليَّةِ إلى يومِنا هذا. وهي مدينةٌ عريقةٌ عُرِفت منذُ أن عُرِف للعربِ تاريخٌ، تتكوَّنُ مِن مجموعةِ مدنٍ صغيرةٍ في وادٍ واحدٍ، ولذا فكلَّما اندثرتْ مدينةٌ مِن تلكَ المدنِ حملتِ الأخرى اسمَ نجرانَ، وهي وادٍ كبيرٌ كثيرُ المياهِ والزَّرعِ، يسيلُ مِن السَّراةِ شرقًا حتَّى يصبَّ في الرُّبعِ الخالي، وتقعُ على الطَّريقِ بينَ صعدةَ وأبها، على قرابةِ (٩١٠) أكيالٍ جنوبَ شرقيِّ مكَّةَ، في الجهةِ الشَّرقيةِ مِن السَّراةِ، وتربطُها بكلٍّ مِن مكَّةَ والرِّياضِ وشرورى في الرُّبعِ الخالي = طريقٌ مُعبَّدةٌ، ولها مطارٌ، وفيها آثارٌ أهمُّها مدينةُ الأخدودِ، وما كانَ يُعرَف بكعبةِ نجرانَ. «معجم المعالم الجغرافيَّة» لعاتقٍ الحربيِّ ص٣١٤.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٤٦.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحدث: أمر الفاروق عمر ﷺ يعلى بن أمية ﷺ بإجلاء اليهود عن نجران. الزمان: عام عشرين[١] من هجرة النبي ﷺ. وقد ورد العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على إجلاء اليهود والنَّصارى من جزيرة العرب، ومنها: أن النبي ﷺ أوصى ابن عباس ﷺ بثلاث وصايا منها قوله: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**لأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لاَ أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا**»، وفي مسند الإمام أحمد عن عائشة ﷺ قالت: كَانَ آخِرُ مَا عَهِدَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ أَنْ قَالَ: «**لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ**»، وفي موطأ الإمام مالك كَانَ مِنْ آخِرِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ رَسُولُ اللهَّ ﷺ أَنْ قَالَ: «**قَاتَلَ اللهُّ الْيَهُودَ وَالنَّصارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، لاَ يَبْقَيَنَّ دِينَانِ بِأَرْضِ الْعَرَبِ**». هذه النَّصوص وغيرها تدل دلالة قاطعة على أنه لا يجوز لليهود والنَّصارى وغيرهم من الكفار أن يبقوا في جزيرة العرب، وتلك النَّصوص لا يمكن الطعن فيها بالتضعيف أو التأويل أو دعوى النسخ؛ وذلك أنها مخرَّجة في الصحيحين وبعضها في المسند وبعضها في السنن. أما بخصوص نصارى نجران فقد ورد عدة أسباب لإخراجهم: فالسبب الأول: جاء في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ما أورده ابن زنجويه: «وكان فيما أخذ النبي ﷺ في صلحه على أهل نجران: أن من أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة»[٢]، وقال ابن قدامة في المغني: «فأما إخراج أهل نجران منه؛ فلأن النبي ﷺ صالحهم على ترك الربا، فنقضوا عهده»[٣]. والسبب الثاني: ذكره القاضي أبو يوسف حيث قال: «وكان

١- «لوامع الأنوار البهية»، لشمس الدين السفاريني الحنبلي (٢/ ٣٢٤).
٢- «الأموال» لابن زنجويه (١/ ٤١٨).
٣- «المغني» (٩/ ٣٥٧).

عمر رضي الله عنه أجلاهم؛ لأنه خافهم على المسلمين، وقد كانوا اتخذوا الخيل والسلاح في بلادهم فأجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم نجران العراق»[١]. والسبب الثالث: ما أورده القاسم بن سلام من خلال كتاب عمر رضي الله عنه إليهم قبل إجلائهم: «حدثنا ابن أبي زائدة، عن ابن عون، قال: قال لي محمد بن سيرين: انظر كتابا قرأته عند فلان بن جبير، فكلم فيه زياد بن جبير، قال: فكلمته فأعطاني فإذا في الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عمر أمير المؤمنين إلى أهل رعاش كلهم، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنكم زعمتم أنكم مسلمون، ثم ارتددتم بعد، وإنه من يتب منكم ويصلح لا يضره ارتداده، ونصاحبه صحبة حسنة، فادَّكروا ولا تهلكوا، وليبشر من أسلم منكم. فمن أبى إلا النصرانية فإن ذمتي بريئة ممن وجدناه بعد عشر تبقى من شهر الصوم من النصارى بنجران. أما بعد، فإن يعلى كتب يعتذر أن يكون أكره أحدا منكم على الإسلام أو عذبه عليه، إلا أن يكون قسرا جبرا ووعيدا لم ينفذ إليه منه شيء. أما بعد، فقد أمرت يعلى أن يأخذ منكم نصف ما علمتم من الأرض، وإني لن أريد نزعها منكم ما أصلحتم»[٢]. أما عن سبب إجلاء عمر ليهود ونصارى خيبر؛ فقد ورد في رواية للبخاري: أخبرني نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود، والنصارى من أرض الحجاز، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل خيبر، أراد أن يخرج اليهود منها، وكانت الأرض لما ظهر عليها لليهود وللرسول وللمسلمين، فسأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نُقِرُّكُم عَلَى ذَلِكَ ما شِئْنَا**»، فأقروا حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء، وأريحا[٣].

١- «الخراج» لأبي يوسف ص٨٧.

٢- «الأموال» للقاسم بن سلام ص١٣٠.

٣- صحيح البخاري (٤/ ٩٥).

وورد عند البخاري، أيضا: «لما فَدَع أهل خيبر عبد الله بن عمر، قام عمر خطيبا، فقال: إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال: «**نُقِرُّكُمْ مَا أَقَرَّكُمُ اللهُ**»، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعدي عليه من الليل، ففُدِعَت يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدو غيرهم، هم عدونا وتهمتنا وقد رأيت إجلاءهم»[1].

وأخيرا قال ابن سلام: «ألا تراه غلظ عليهم أكل الربا خاصة من بين المعاصي كلها، ولم يجعله لهم مباحا، وهو يعلم أنهم يركبون من المعاصي ما هو أعظم من ذلك: من الشرك، وشرب الخمر، وغيره إلا دفعا عن المسلمين، وأن لا يبايعوهم به فيأكل المسلمون الربا، ولولا المسلمون ما كان أكل أولئك الربا إلا كسائر ما هم فيه من المعاصي، بل الشرك أعظم، وإنما أجلاهم عمر عن بلادهم، وقد علم أن لهم عهدا مؤكدا من رسول الله ﷺ؛ بتركهم ما شرط عليهم رسول الله ﷺ من أكل الربا»[2].

البيان والبلاغة: الرسالة من الرسائل الإدارية؛ إذ إنها موجهة من أمير المؤمنين إلى أحد عماله، مُحَدَّدًا الغرض منها، مُرتَّبة فيها الخطوات التي أمر فيها الخليفة عامله باتباعها، ويظهر من خلال تلك الخطوات حكمة الفاروق ﷺ، ونستعرضها فيما يلي: بدأ رسالته بقوله: (**ائْتِهِمْ**): أسلوب إنشائي أمر الغرض منه الحث على سرعة المضي في الأمر، واستخدم الفعل الأمر هنا كتكليف إلزامي بالفعل. وقوله: (**وَلَا تَفْتِنْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**): أسلوب إنشائي نهي الغرض منه كراهة فتنتهم عن دينهم، وفيه تكليف إلزامي بترك الأمر وعدم فتنتهم. وفي الجملة السابقة تناص خفي بقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وفيها أيضا كناية عن حفظ المسلمين لعهودهم

١- صحيح البخاري (٣/ ١٩٢-١٩٣).

٢- «الأموال» لابن سلام ص٢٤٧.

مع أهل الذمة المسالمين وعدم إجبارهم على الدخول في الدين. ثم قال: (**ثُمَّ أَجْلِهِمْ**): استخدم العطف بـ (**ثم**) لإفادة التراخي في تأجيلهم، أي: لا تتسرع في إخراجهم حتى يدبروا أمر خروجهم. وفيه كناية عن سماحة الفاروق ﵁. وقوله: (**مَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ**): فيها تفصيل بعد إجمال فبعدما أجمل في قوله: (**أَجْلِهم**)، فَصَّلَ في قوله: (**مَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ**). ثم يستطرد قائلا: (**وَأَقْرِرِ الْمُسْلِمَ**): أسلوب إنشائي أمر الغرض منه الوجوب. وذِكْرُ حال المسلمين من باب حصر جميع القائمين في البلدة وكيفية التعامل معهم. وهنا تظهر لمحة من لمحات العدل الذي أرساه عمر ﵁ في التعامل مع الرعية من المسلمين وغيرهم؛ إذ قال: (**وَامْسَحْ أَرْضَ كُلِّ مَنْ تُجْلِي مِنْهُمْ**): (**امسح الأرض**)، أي: قسها. و(**كل**) هنا للعموم والشمول، والعبارة السابقة كناية عن عدل الفاروق ﵁. ثم يقول: (**ثُمَّ خَيِّرْهُمُ الْبُلْدَانَ**): تم التلميح في مقتضى الحال على ما اقترفه هؤلاء من تجاوزات أدت إلى إجلائهم، ورغم ذلك أقام الفاروق ﵁ فيهم العدل فأتاح لهم اختيار البلد التي يحبون الانتقال إليه، ثم يعترض نسق الحديث بمعلومة: (**وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّا نُجْلِيهِمْ بِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ**): كناية عن أن عمر ﵁ كان وقافًا عند كلام الله - سبحانه وتعالى - وكلام رسوله ﷺ. وفي قوله: (**أَلَّا يُتْرَكَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ**) اقتباس من قول النبي ﷺ: «**لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ**». ثم يعود لسياق الحديث عن قوانين إخراجهم، ويكرر قاعدتين كان قد تناولها: (**فَلْيُخْرَجُوا، مَنْ أَقَامَ عَلَى دِينِهِ مِنْهُمْ**)، (**ثُمَّ نُعْطِيهِمْ أَرْضًا كَأَرْضِهِمْ**)، والتكرار للتأكيد على حقهم. وقوله: (**إِقْرَارًا لَهُمْ بِالْحَقِّ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَوَفَاءً بِذِمَّتِهِمْ فِيمَا أَمَرَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، بَدَلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيرَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَغَيْرِهِمْ فِيمَا صَارَ لِجِيرَانِهِمْ بِالرِّيفِ**): يدور حديث الفاروق ﵁ السابق حول إعطاء أهل الذمة حقوقهم، وفي ذلك تضمين لمعاني الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في حق أهل

الذمة كقول النبي ﷺ: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، وواضح تأثر الفاروق رضي الله عنه فيما فعل من إجلائهم بأمر النبي ﷺ، وكذلك تأثره بكيفية الإجلاء، وإعطائهم حقوقهم من الأرض ومكان الإقامة. والرسالة ككل دلالة على أن الفاروق كان وقّافا عند كلام الله – تعالى –، قائما بالقسط بين أفراد رعيته، فرضي الله عن الفاروق وسائر صحابة رسول الله ﷺ.

[٤٦٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ رضي الله عنه وَالِي الْيَمَنِ

وَقَدْ بَلَغَهُ مِنْهُ أَنَّ رِجَالًا قَتَلُوا امْرَأَةً مِنْ حِمْيَرَ[١] فَأُتِيَ بِهِمْ، فَوُجِدَتْ أَكُفُّهُمْ مُخَضَّبَةً بِدَمِهَا

«لَوْ تَمَالَأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ؛ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: رسالة من الفاروق عمر رضي الله عنه إلى عامله باليمن يعلى بن أمية رضي الله عنه. وسبب الرسالة، وهو الثابت الصحيح في الكتب الصحاح: أن امرأة بصنعاء غاب عنها زوجها، وترك في حجرها ابنًا له من غيرها - غلامًا يقال له: أصيل -، فاتخذت المرأة بعد زوجها خليلا، فقالت له: إن هذا الغلام يفضحنا فاقتله، فأبى فامتنعت منه، فطاوعها، فاجتمع على قتل الغلام: الرجل ورجل آخر والمرأة وخادمها، فقتلوه، ثم قطعوا أعضاءه، وجعلوه في وعاء من أدم فطرحوه في بئر ليس فيه ماء. فأُخِذ خليلها فاعترف، ثم اعترف الباقون، فكتب يعلى - وهو يومئذ أمير - بشأنهم إلى عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى - عنه فكتب إليه عمر بقتلهم.

١- اختلفتِ الرِّواياتُ في المقتولِ، فذكرتْ بعضُها أنَّه رجلٌ، وذكرتْ أخرى أنَّه صبيٌّ، وذكرُ ابنُ وهبٍ في «الجامعِ» قصَّتَه، وذكرتْ أخرى أنَّها امرأةٌ، وذكرتْ أخرى أنَّها مِن حِميَرَ، واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ.

٢- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٦٨٩٦)، ومالكٌ في «المُوطَّإِ» (٣٢٤٦)، وابنُ وهبٍ في «الجامعِ» (٤٨٨)، والشَّافعيُّ في «المُسنَدِ» (١٦١٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٨٠٦٩) و(١٨٠٧٥) و(١٨٠٧٦) و(١٨٠٧٧) و(١٨٠٧٩)، وابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (٢٢٧٠)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٨٠٥٠) و(٢٨٢٦٦) و(٢٨٢٦٧) و(٢٨٢٦٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٣٩٥) و(١٦٣٩٦) و(١٦٣٩٧) و(١٦٣٩٨).

البيان والبلاغة: لعل يعلى رضي الله عنه تكلم مع عمر رضي الله عنه في شأن قتل الجماعة بالواحد؛ فأجابه عمر رضي الله عنه قائلا: «**لَوْ تَمَالَأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا**». والجملة شرطية متمثلة من أداة الشرط: (**لو**) وفعل الشرط: (**تَمَالَأَ**). و(اللام) في قوله: (**لَقَتَلْتُهُمْ**) واقعة في جواب (لو). و(**قَتَلْتُهُمْ**): جملة جواب الشرط. وقوله: (**تمالأ**)، أي: تظاهروا وتعاونوا واجتمعوا. والجملة كلها كناية عن مضي الفاروق رضي الله عنه في القصاص لفرد من جماعة متآمرة عليه؛ حفاظا على الأنفس وتحقيقا لمعنى الإحياء.

[٤٦٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَنْتُمْ رَأْسُ الْعَرَبِ، وَجُمْجُمَتُهَا، وَسَهْمِي الَّذِي أَرْمِي بِهِ إِنْ أَتَانِي شَيْءٌ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا، وَإِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَاخْتَرْتُهُ لَكُمْ، وَآثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي إِثْرَةً»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا كتاب من أمير المؤمنين رضي الله عنه لأهل الكوفة يبين فيه فضلهم وفضل من آثرهم به من الأمراء والعلماء.

البيان والبلاغة: سبق شرح هذا النص تحت نصوص سابقة؛ فانظر شرح النص رقم ثمانية وخمسين ومئة، ورقم ثمانية وثلاثين ومئتين، وغيرهما.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٦/ ٧، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣١١٢)، ووكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ٢/ ١٨٨، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٥٣٧٩).

[٤٦٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - أَنْزَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ رُخْصَةً فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ، إِلَّا فِي أَمْرَيْنِ: الْعَدْلِ فِي السِّيرَةِ، وَالذِّكْرِ. فَأَمَّا الذِّكْرُ؛ فَلَا رُخْصَةَ فِيهِ فِي حَالَةٍ، وَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ إِلَّا بِالْكَثِيرِ. وَأَمَّا الْعَدْلُ؛ فَلَا رُخْصَةَ فِيهِ فِي قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ، وَلَا فِي شِدَّةٍ وَلَا رَخَاءٍ. وَالْعَدْلُ - وَإِنْ رُئِيَ لَيِّنًا - فَهُوَ أَقْوَى وَأَطْفَأُ لِلْجَوْرِ، وَأَقْمَعُ لِلْبَاطِلِ مِنَ الْجَوْرِ، وَإِنْ رُئِيَ شَدِيدًا فَهُوَ أَنْكَشُ لِلْكُفْرِ. فَمَنْ تَمَّ عَلَى عَهْدِهِ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ، وَلَمْ يُعِنْ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ فَلَهُمُ الذِّمَّةُ، وَعَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ. وَأَمَّا مَنِ ادَّعَى أَنَّهُ اسْتُكْرِهَ مِمَّنْ لَمْ يُخَالِفْهُمْ إِلَيْكُمْ أَوْ يَذْهَبْ فِي الْأَرْضِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ بِمَا ادَّعَوْا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ تَشَاؤُوا، وَإِنْ لَمْ تَشَاؤُوا فَانْبِذُوا إِلَيْهِمْ، وَأَبْلِغُوهُمْ مَأْمَنَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين واليَه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما معظما أمر العدل ووجوبه، ومبينا كيف تكون معاملة أهل الذمة.

البيان والبلاغة: بدأ النص بفصل الخطاب **(أَمَّا بَعْدُ)** الذي يفصل بين المقدمة والموضوع، ويُعِين على الولوج إليه. ثم استهل كلامه بالتأكيد بـ **(إِنَّ)** بيانا لأهمية الموضوع الذي سيتحدث فيه. واستعمل رضي الله عنه أسلوب التفصيل والتقسيم وأسلوب

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٨٥.

اللف والنشر في قوله: (**إِلَّا فِي أَمْرَيْنِ: الْعَدْلِ فِي السِّيرَةِ، وَالذِّكْرِ. فَأَمَّا الذِّكْرُ**)؛ ليكون أكثر بيانا وأقوى إيضاحا. وكذلك في قوله: (**فَمَنْ تَمَّ عَلَى عَهْدِهِ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ، وَلَمْ يُعِنْ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ فَلَهُمُ الذِّمَّةُ، وَعَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ. وَأَمَّا مَنِ ادَّعَى أَنَّهُ اسْتُكْرِهَ ...**). وقوله: (**وَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ إِلَّا بِالْكَثِيرِ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر. وقد أطنب في قوله: (**وَأَمَّا الْعَدْلُ؛ فَلَا رُخْصَةَ فِيهِ فِي قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ، وَلَا فِي شِدَّةٍ وَلَا رَخَاءٍ**) طلبا للتأكيد وزيادة البيان والإيضاح كيلا يترك لأحد عذرا. واستعمل أفعل التفضيل غير مرة؛ ليكون أقوى في البيان والدلالة على المعنى.

[٤٦٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه وَهُوَ بِالْقَادِسِيَّةِ

«أَنْ جَنِّبِ النَّاس أَحَادِيثَ الجَاهِلِيَّةِ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْأَحْقَادَ، وَتُنْشِئُ الضَّغَائِنَ. وَعِظْهُمْ بِآيَاتِ اللهِ مَا نَشِطُوا لِلاسْتِمَاعِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أميرُ المؤمنين قائد جيوشه سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنهما ينهاه عن إثارة أحاديث الجاهلية؛ مبينا سبب ذلك النهي.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بـ **(أن)** التفسيرية، وأتبع ذلك بالأمر المباشر، و**(أل)** في قوله: **(الناس)** للعهد الذهني، والمقصود به: المسلمون لاسيما حديثو الإسلام. ثم أطنب بذكر علل ذلك الأمر فقال: **(فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْأَحْقَادَ، وَتُنْشِئُ الضَّغَائِنَ)**. وأتبع ذلك بأمر جديد، فقال: **(وَعِظْهُمْ بِآيَاتِ اللهِ مَا نَشِطُوا لِلاسْتِمَاعِ)**.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنساب الأشراف» ١٠/ ٣٢٧.

[٤٦٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه وَهُوَ بِالْمَدَائِنِ

«أَنْ أَقِرَّ الْفَلَّاحِينَ عَلَى حَالِهِمْ، إِلَّا مَنْ حَارَبَ أَوْ هَرَبَ مِنْكَ إِلَى عَدُوِّكَ فَأَدْرَكْتَهُ، وَأَجْرِ لَهُمْ مَا أَجْرَيْتَ لِلْفَلَّاحِينَ قَبْلَهُمْ، وَإِذَا كَتَبْتُ إِلَيْكَ فِي قَوْمٍ فَأَجْرُوا أَمْثَالَهُمْ مَجْرَاهُمْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يكاتب أميرُ المؤمنين سعدَ بن أبي وقاصٍ رضي الله عنهما في شأن فلاحي المدائن، ماذا يصنع معهم، بعد أن منَّ الله - سبحانه وتعالى - على المسلمين بفتحها.

البيان والبلاغة: قوله: بدأ أمير المؤمنين في هذا النص - كما في عدد من النصوص السابقة - بـ (**أن**) التفسيرية ثم بأسلوب الطلب في صورة الأمر؛ مما يدل على المتابعة الشديدة من أمير المؤمنين لعماله وقادة جيوشه. وقوله: (**فَأَدْرَكْتَهُ**): فيه إيجاز، والتقدير: فلا تقرَّهم على حالهم وعاملهم بما يقتضي حالهم.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣٠.

[٤٦٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«أَنِ احْتَازُوا فَيْئَكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا، فَتَقَادَمَ الْأَمْرُ يَلْحَجْ[١]، وَقَدْ قَضَيْتُ الَّذِي عَلَيَّ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَيْهِمْ، فَاشْهَدْ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يَلْحَجْ**): من اللَّحج، وهو النُّشوب، أي: دخول الشيء في الشيء وعلوقه به. والمقصود، والله أعلم: أنه سيصعب نزعه وحيازته بعد ذلك.

مقتضى الحال: يأمر أمير المؤمنين رضي الله عنه أهلَ الكوفة بأن يحتازوا فيئهم قبل أن يتغير الأمر ويتقادم وتحول دون ذلك الحوائل.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بـ (**أن**) التفسيرية، كما فعل في النص السابق، ثم أطنب في تعليل أمره بحيازة الفيء مبينا علة ذلك الأمر. وبدأ الجملة التعليلية بـ (**إنَّ**) التأكيدية؛ تنزيلا للمخاطب منزلة الشاك. وقوله: (**فَيْئَكُمْ**): الإضافة إلى ضمير المخاطب فيها تنبيه للسامع وحث على المبادرة إلى المطلوب.

١- لَحِجَ في الأمرِ يَلحَجُ؛ إذا دخلَ فيه ونَشِبَ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (لحج).

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣٢.

[٤٦٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَهْلِ السَّوَادِ

«أَنِ اعْمِدُوا إِلَى الصَّوَافِي الَّتِي أَصْفَاكُمُوهَا اللهُ، فَوَزِّعُوهَا عَلَى مَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ: أَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ لِلْجُنْدِ، وَخُمْسٌ فِي مَوَاضِعِهِ إِلَيَّ، وَإِنْ أَحَبُّوا أَنْ يُنْزِلُوهَا فَهُوَ الَّذِي لَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: في هذا الرسالة يخاطب الفاروق ولاته آمرا وموجها لهم بتقسيم الصَّوافِي، وهي: الأَمْلاكُ والأراضي التي جَلاَ عنها أَهْلُها، أَو ماتُوا ولا وَارثَ لها بين من غنموها، بنِسب محددة.

البيان والبلاغة: قوله: (**اعْمَدُوا**): فعل أمر يدل على النَّصح والإرشاد، والحزم في إدارة الأمور، والإلمام بشئون الرعية والتدخل المباشر من رأس الدولة في كافة أمورهم. وقوله: (**أَصْفَاكُمُوهَا الله**): يوضح عميق إيمان الفاروق بأن كل ما يحدث ويكون هو بتقدير الله؛ فهو يؤمن بذلك ويعلِّمه رعيته. وقوله: (**فَوَزِّعُوهَا**): أمر للمصدقين بتوزيع هذه الصوافي وتقسيمها، وفيه من تحرِّي العدل والإنصاف في القسمة. وقوله: (**عَلَى مَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ**): فيه توضيح للمستحقين لهذه الصوافي، مَن هم وما نسبة كل منهم. وقوله: (**أَفَاءَهَا اللهُ**): فيه تكرار لنسبة الأمور لله وردها إليه؛ لتأكيد هذا المعنى وترسيخه. وقوله: (**أَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ لِلْجُنْدِ**): فيه تشجيع

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٣١.

للجند وحث لهم على مواصلة الجهاد وفَهم وإدراك من الخليفة لمآلات الأمور. وقوله: (**وَخُمُسٌ فِي مَوَاضِعِهِ إِلَيَّ**): فيه حرص من أمير المؤمنين على حق الدولة وبيت مال المسلمين في أموال كل منهم. وقوله: (**وَإِنْ أَحَبُّوا أَنْ يَنْزِلُوهَا**): فيه تخيير للرعية وتوسعة عليهم وتيسير لهم.

[٤٦٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ ﷺ

إِلى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ وَهُوَ بِالْقَادِسِيَّةِ

«إِنِّي قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ أَهْلَ الْحِجَازِ وَأَهْلَ الشَّامِ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهُمُ الْقِتَالَ قَبْلَ أَنْ يَتَفَقَّؤُوا فَأَسْهِمْ لَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله : **(تفقَّؤوا)**: مأخوذ من: تَفَقَّأ الدُّمَّلُ والقَرْحُ، إذا انْشَقَّ وخرج ما فيه. ولعلَّ المقصود: انتهاء المعركة، وبروز معالم النصر.

مقتضى الحال: الخطاب موجه من الفاروق ﷺ بالمدينة المنورة إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ بالعراق، وذلك في عام خمسة عشر من الهجرة تقريبا وقت معركة القادسية.

البيان والبلاغة: قوله: **(إِنِّي قَدْ بَعَثْتُ)**: جملة خبرية مؤكدة بـ **(إنَّ)** و**(قد)** والفعل الماضي. وقوله: **(إِلَيْكَ)**: مخاطبة للقائد العسكري سعد بن أبي وقاص الغرض منها التشجيع وبث الثقة. وقوله: **(أَهْلَ الْحِجَازِ وَأَهْلَ الشَّامِ)**: تعميم ذكر فيه الكل وأراد البعض؛ للكناية عن كثرة من أرسلهم، ولذلك كرَّر كلمة **(أهل)** في المرة الثانية ولم يكتف بالعطف على الأولى. وقوله: **(فَمَنْ أَدْرَكَ)**: جملة شرطية، وقوله: **(مِنْهُمْ)**: للتخصيص. وقوله: **(قَبْلَ أَنْ يَتَفَقَّئُوا)**: تحديد دقيق لتفاصيل التقسيم

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٨٩٧).

وتوقيته ومستحقيه. وقوله: (فَأَسْهِمْ): تكليف بالأمر المباشر وتفويض من الخليفة لولاته بالتصرف بما يشجع المجاهدين ويحقق الصالح العام.

[٤٧٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«إِنَّ نَاسًا يَأْخُذُونَ مِنْ هَذَا المَالِ لِيُجَاهِدُوا، ثُمَّ لَا يُجَاهِدُونَ، فَمَنْ فَعَلَهُ؛ فَنَحْنُ أَحَقُّ بِمَالِهِ حَتَّى نَأْخُذَ مِنْهُ مَا أَخَذَ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لم يُذكر المناسبة أو الوقت الذي قيل فيه، وهو موجه من الخليفة إلى أهل الكوفة.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ نَاسًا**): (**إِنَّ**) للتوكيد، وتنكير (**ناسًا**) للتحقير وعدم تعيينهم وتسميتهم؛ سترًا عليهم من أن يفتضحوا على الملأ. وقوله: (**يَأْخُذُونَ مِنْ هَذَا المَالِ لِيُجَاهِدُوا**): توضيح يبين إحاطة الخليفة بما يحدث وعدم غفلته. وقوله: (**فَمَنْ فَعَلَهُ**): جملة شرطية تحذيرية للتهديد. وقوله: (**نَأْخُذَ مِنْهُ مَا أَخَذَ**): دليل على العدل وعدم المبالغة والإسراف في العقوبة.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» باب: (الجَعَائِلِ وَالحُمْلَانِ في السَّبِيلِ) مُعلَّقًا، ووصلَهُ في «التَّاريخِ الكبيرِ» في ترجمة عمرِو بنِ أبي قُرَّةَ عن إسحاقَ. ورواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٤٩٧).

[٤٧١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أُوصِيكَ بِمَا أَوْصَاكَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَأَنْهَاكَ عَمَّا نَهَاكَ عَنْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَآمُرُكَ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَالْفِقْهِ، وَالتَّفَهُّمِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَعِبَارَةِ الرُّؤْيَا. وَإِذَا قَصَّ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ رُؤْيَا فَلْيَقُلْ: خَيْرٌ لَنَا، وَشَرٌّ لِعَدُوِّنَا»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المقام مقام وعظ من خليفة المسلمين إلى أحد أمرائه، ولم يُذكر زمن القول ولا مكانه.

البيان والبلاغة: قوله: (**أُوصِيكَ**)، (**وَأَنْهَاكَ**): فيه تواضع من الخليفة، وحسن صحبة لولاته. وقوله: (**أَوْصَاكَ بِهِ الْقُرْآنُ**): فيه حضٌّ له على إتباع القرآن والتخلق بأخلاقه وآدابه. وقوله: (**وَآمُرُكَ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ**): يبين مدى حرص الخليفة على تطبيق الشرع والاحتكام إلى القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ والتفقه في الدين. وقوله: (**وَإِذَا قَصَّ أَحَدُكُمْ**): جملة شرطية غرضها النُّصح. وقوله: (**فَلْيَقُلْ: خَيْرٌ**): حث على التفاؤل والاستبشار بالرؤيا. وبين (**لنا**) و(**عدونا**): سجع وطباق أبرز المعنى وأعطاه جرسا حلوا.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٩١.

[٤٧٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«لَا تَسْتَقْضِيَنَّ إِلَّا ذَا مَالٍ، وَذَا حَسَبٍ؛ فَإِنَّ ذَا الْمَالِ لَا يَرْغَبُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ، وَإِنَّ ذَا الْحَسَبِ لَا يَخْشَى الْعَوَاقِبَ بَيْنَ النَّاسِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يُخاطب أمير المؤمنين عامله أبا موسى الأشعريَّ رضي الله عنهما مبينا له صفات من يستحق تولي القضاء، وعلة ذلك.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا تَسْتَقْضِيَنَّ**): نهي غرضه النَّصح والإرشاد مؤكد بالنون. وقوله: (**إِلَّا ذَا مَالٍ**): استثناء ناقص منفي غرضه الحصر والتخصيص. وتنكير (**مالٍ**) للتكثير. وقوله: (**فَإِنَّ ذَا المَالِ**) تأكيد وتعليل للنهي وتبيين لأسبابه، وكذا في الجملة التي تليها. وبين كلمة (**النَّاس**) في الجملتين جناس تامٌّ.

١- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٧٧.

[٤٧٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«يَا أَبَا مُوسَى، إِنِّي مُسْتَعْمِلُكَ، إِنِّي أَبْعَثُكَ إِلَى أَرْضٍ قَدْ بَاضَ بِهَا الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ، فَالْزَمْ مَا تَعْرِفُ، وَلَا تَسْتَبْدِلْ فَيَسْتَبْدِلَ اللهُ بِكَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين أبا موسى الأشعريَّ رضي الله عنهما، مبينا له ما في الأرض التي أرسله إليها من السوء، وكيف يعالج ذلك.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا أَبَا مُوسَى**): أسلوب نداء غرضه التنبيه، واستعمل هنا أداة النداء (**يا**) التي للبعيد؛ إنزالا للمنادى منزلة البعيد؛ إمعانا في التنبيه. وقوله: (**إِنِّي مُسْتَعْمِلُكَ**)، (**إِنِّي أَبْعَثُكَ**): جمل خبرية مؤكدة، تدل على ثبوت الحكم واستقراره. وقوله: (**إِلَى أَرْضٍ**): تنكير (**أرض**) للتحقير. وقوله: (**قَدْ بَاضَ بِهَا الشَّيْطَانُ**): جملة خبرية مؤكدة، وفيها استعارة مكنية؛ حيث شبَّه الشيطان وكأنه طائر يبيض ويفرخ، مما يدل على استشراء الفساد وكثرته فيها. وقوله: (**فَالْزَمْ مَا تَعْرِفْ**): أمر ونصيحة بالتزام الكتاب والسنة والاحتكام إليهما في كل أمر، وعبر عنهما بـ (**ما تعرف**)؛ ليدل على أنهما أهم وأجلُّ من أن يُجهلا، ولثقته في أبي موسى أن مثله يعرفهما. وقوله: (**وَلَا تَسْتَبْدِلْ**): نهي وتحذير عن التخلي عن القرآن والسنة

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٧٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٦٠/ ٣٨.

واستبدالهما بغيرهما من الشرائع. وقوله: (**فَيَسْتَبْدِلُ اللهُ بِكَ**): تحذير مما سيؤدي إليه ذلك، وبيان لعاقبته.

[٤٧٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَنْ يُغَسِّلُوا دَانْيَالَ بِالسِّدْرِ وَمَاءِ الرَّيْحَانِ، وَأَنْ يُصَلَّى عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لَا يَلِيَهُ[١] إِلَّا الْمُسْلِمُونَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ذكر الإمام الطبري في تاريخه أنَّ نبي الله دانيال مات بالسُّوس، «فكان هنالك يستسقى بجسده، فلما افتتحها المسلمون أتوا به فأقروه في أيديهم، حتى إذا ولَّى أبو سبره عنهم إلى جند سابور = أقام أبو موسى بالسوس وكتب إلى عمر فيه، فكتب إليه ...» هذا النصَّ.

البيان والبلاغة: بدأ النصُّ بـ (**أَنْ**) التفسيرية التي تحلُّ محل المقدمة قبل الكلام، قوله: (**يُغَسِّلُوا دَانْيَالَ**): أمر يدل على إحاطة عمر رضي الله عنه وعلمه بالأمم السابقة وأنبيائها. وقوله: (**بِالسِّدْرِ وَمَاءِ الرَّيْحَانِ**): فيه حرص على تكريم نبي الله دانيال؛ مرضاة لله تعالى. وقوله: (**يُصَلَّى عَلَيْهِ**): حرص على تطبيق الشرائع الإسلامية على نبي من الأمم السابقة؛ لفهم عمر وإدراكه أن الإسلام هو دين كل الأنبياء.

١- عِندَ البيهقيِّ: «نبيٌّ دعا ربَّهُ أنْ لا يوليه إِلَّا المُسلِمونَ». وعندَ ابنِ عساكرَ: «فإِنَّهُ نبيٌّ دعا رَبَّهُ أَلَّا يُوارِيَهُ إِلَّا المُسلِمُونَ».

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥١٠) والبيهقيُّ في «دلائلِ النُّبوَّةِ» ١/ ٣٩١ واللَّفظُ لهُ، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٦٧/ ١٦٠.

وقوله: (**فَإِنَّهُ نَبِيٌّ دَعَا**): تعليل للأمر السابق وتوضيح لأسبابه. وقوله: (**لَا يَلِيه إِلَّا الْمُسْلِمُونَ**): استثناء ناقص منفي أفاد القصر والتخصيص.

[٤٧٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ سَتَرَتْ بَيْتَهَا كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ، وَإِنِّي عَزَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا أَرْسَلْتَ إِلَيْهَا حِينَ تَقْرَأُ كِتَابِي مَنْ يَنْزِعُ سُتُورَهُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ كتابٌ من أمير المؤمنين إلى أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنهما في شأن امرأة سَترت بيتها بسِترٍ كستر الكعبة، يأمره بإرسال من ينزع ذلك الستر.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): جملة استهلالية، الغرض منها جذب الانتباه لما سيقال. وقوله: (**فَإِنَّهُ بَلَغَنِي**): فيه حث لأبي موسى على التحري والتثبت من هذا الخبر، ولم يذكر المبلِّغ؛ لتركيز الاهتمام على الخبر لا على المخبر. والتنكير في قوله: (**امْرَأَةً**) للجهالة. وقوله: (**كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ**): فيه استنكار واستعظام أن تشبه بيوت النَّاس ببيت الله الحرام. وقوله: (**وَإِنِّي عَزَمْتُ عَلَيْكَ**): طلب مؤكد بـ (**إنَّ**)، و(**عزمت عليك**)، أي: أقسمت عليك، ودلالته واضحة في الحث والتحفيز. وقوله: (**لَمَا أَرْسَلْتَ**): أسلوب طلب مؤكد بـ (**لام القسم**)، و(**ما**) الزائدة للتأكيد، والفعل الماضي الدال على انقضاء الحدث. وقوله: (**حِينَ تَقْرَأُ كِتَابِي**)؛ للدلالة على

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٩١.

خطورة الأمر، والحث على سرعة تغييره. وقوله: (مَنْ): اسم موصول يستخدم للعاقل، وفيه تنكير للمرسَل؛ دلالة على عدم أهمية تعيينه وتسميته. وقوله: (يَنْزِعَ سُتُورَهُ): فيه دلالة على رحمة عمر برعاياه وعدم المبادرة إلى معاقبة المخطئ إذا كان خطؤه عن جهل، فهو يكتفي بنزع ستور البيت دون معاقبة صاحبته.

[٤٧٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى حُرْقُوصِ بْنِ زُهَيْرٍ (١)

«بَلَغَنِي أَنَّكَ نَزَلْتَ مَنْزِلًا كَؤُودًا، لَا تُؤْتَى فِيهِ إِلَّا عَلَى مَشَقَّةٍ، فَأَسْهِلْ وَلَا تَشُقَّ عَلَى مُسْلِمٍ وَلَا مُعَاهَدٍ. وَقُمْ فِي أَمْرِكَ عَلَى وَجَلٍ تُدْرِكِ الْآخِرَةَ، وَتَصْفُ لَكَ الدُّنْيَا. وَلَا تُدْرِكَنَّكَ فَتْرَةٌ وَلَا عَجَلَةٌ؛ فَتَكْدَرَ دُنْيَاكَ، وَتَذْهَبَ آخِرَتُكَ» (٢).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ كتابٌ من أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أحد قادة الجند، وهو حُرْقُوصُ بن زهير السعديُّ، يأمره فيه ببعض ما يُصلح دنياه وآخرته.

البيان والبلاغة: في هذا الحديث دلالة على أن الراشِدين كانوا يجيزون تدابير ولاتهم متى اقتنعوا بوجاهتها، ويوجهونهم لتغييرها إذا ثبت لهم خطؤها. ونجد الحرص على

١- حُرْقُوصُ بنُ زُهَيْرٍ السَّعْدِيُّ: فارسٌ شجاعٌ، زعمَ بعضُ مَن ترجمَ لهُ أنَّهُ هو ذو الخويصرةِ التَّميميُّ، ولا دليلَ ينهضُ بهذا، وقد كنتُ أميلُ إلى التَّفريقِ بينَهما؛ لِاستحالةِ أن يكونَ عمرُ بنُ الخطَّابِ الَّذي شهد ما فعلهُ ذو الخويصرةِ في تقسيمِ غنائمِ حُنينٍ، حتَّى طلبَ مِن النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - أن يضربَ عنقَه، هو الَّذي يعتمدُ عليهِ في القتالِ ويَرتضِيهِ بعدَ ذلكَ، حتَّى وقفتُ على قولِ الهيثمِ بنِ عديٍّ: إنَّ الخوارجَ تزعمُ أنَّ حُرقوصَ بنَ زهيرٍ كانَ مِن أصحابِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، وأنَّهُ قُتِلَ معَهم يومَ النَّهْرَوانِ، قالَ: فسألتُ عن ذلكَ، فلم أَجِدْ أحدًا يعرفُه. أمرهُ عمرُ بنُ الخطَّابِ بقتالِ الهُرْمُزانِ، فاستولى على سوقِ الأهوازِ ونزلَ بها. ويُذكَرُ مِن جملةِ الخارجينَ على عُثمانَ، ثُمَّ شهد صِفِّينَ معَ عليٍّ. وبعدَ الحكمينِ صارَ مِن أشدِّ الخوارجِ على عليٍّ، وكانَ أميرَ الرَّاجلةِ في جيشِهم، فقُتِلَ فيمَن قُتِلَ بالنَّهروانِ. «الإصابة» ٢/ ٤٤.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٧٨-٧٩.

مصالح الناس شغلَهم الشاغل في كل التعليمات التي يوجهونها، فعندما استقر أحد الولاة بجبل الأهواز وهو منطقة وعرة كتب إليه عمر ﵁ يقول: (**بلغني أنك نزلت منزلا كؤودا**)، فقال: (**بَلَغَنِي**)؛ ليشعر المخاطَب أنه لم يتأكد بعدُ من الخبر، ويدل أيضا على حرص الخليفة على استقصاء أحوال رعيته واهتمامه بكل ما يرِده عنهم. وقوله: (**كَئُودا**): صفة مشبَّهة تدلُّ على صعوبة المُرْتَقى أو مشقة المصعد من (كأَدَ). وقوله: (**لَا تُؤْتَى فِيهِ إِلَّا عَلَى مَشَقَّةٍ**): فيه دلالة على وعورة هذه المنطقة، وصعوبة الارتقاء إليها مما يسبب مشقة للناس إذا أرادوا الوصول للوالي حرقوص بن زهير والاحتكام إليه في أمورهم. وقوله: (**فَأَسْهِلْ**): أمره عمر بأن ينزل عن هذا المنزل الكئود وأن يسكن السهل؛ ليكون قريبا من الرعية، وليسهل عليهم الوصول إليه، وفي ذلك مراعاة من عمر لصالح رعيته وحرص منه على التيسير عليهم. وقوله: (**وَلَا تَشُقَّ عَلَى مُسْلِمٍ**) فيه تأكيد للمعنى السابق، وهو حرص عمر على مصالح رعيته. وقوله: (**وَلَا مُعَاهَدٍ**): يدل على عظمة دين الإسلام وحرصه على الوفاء للمعاهدين والإحسان إليهم. وقوله: (**وَقُمْ فِي أَمْرِكَ عَلَى رِجْلٍ**): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد، وكناية عن الحرص والحذر الشديد وتحري مصلحة الرعية وعدم التهاون أو التفريط. وقوله: (**تُدْرِكِ الآخِرَةَ**): جواب الطلب، وفيه توضيح لعاقبة الإخلاص في العمل ومراعاة الرعية، وفيه تشجيع وحث لحرقوص على ذلك. وقوله: (**وَتَصْفُ لَكَ الدُّنْيَا**): عطف على جواب الطلب، وفيه أيضا تحفيز له بحسن العاقبة، وفيه استعارة مكنية وكأن الدنيا ماء يصفو ويروق، وكناية عن طيب العيش. وقوله: (**وَلَا تُدْرِكَنَّكَ فَتْرَةٌ**): نهي مؤكد بالنون، وتنكير (فترة) للتقليل، وفيه نهي لحرقوص عن التفريط في أمر الرعية أو التكاسل ولو قليلا. وقوله: (**وَلَا عَجَلَةٌ**): عطف على (فترة)، وبينهما تضاد يبرز

المعنى ويوضحه، والعطف؛ لتأكيد النهي. وقوله: (**فَتُكَدِّرَ دُنْيَاكَ وتُذْهِبَ آخِرَتَكَ**): تحذير من سوء عاقبة الإفراط والتفريط، وتوضيح لمغبة ذلك في الدنيا والآخرة. وبين (**دُنياك**) و(**آخرتك**) تضاد يبرز المعنى ويوضحه.

[٤٧٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي جَنْدَلٍ رضي الله عنه، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ قَدْ وَسْوَسَ

«مِنْ عُمَرَ، إِلَى أَبِي جَنْدَلٍ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، فَتُبْ، وَارْفَعْ رَأْسَكَ، وَابْرُزْ، وَلَا تَقْنَطْ؛ فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ رسالة من أمير المؤمنين إلى أبي جندل رضي الله عنهما يذكره فيها بما يدفع عنه وساوسه، ويجعله يؤمل في رحمة الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: **(من عمر إلى أبي جندل)** ذِكر اسمه مجردا من الألقاب فيه تواضع وحسن خلق. وبدء الرسالة بآية قرآنية فيه حسن استهلال. وقوله: **(فتب)**: جملة طلبية فيها نصح وإرشاد. وقوله: **(وارفع رأسك)**: كناية عن الثقة بالله وبالنفس، والعزة للمؤمن الواثق. وقوله: **(وابرُز)**: تكرار الأمر للنصح والإرشاد، وفيه نهي عن العُزلة والانطواء. وقوله: **(ولا تقنط)**: نهي عن القنوط واليأس. ومجمل الرسالة يدل على حرص عمر رضي الله عنه على تتبع أصحابه ورجاله واستقصاء أخبارهم وأحوالهم، وتعهدهم بالنَّصيحة.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٧٠٧٨)، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٩٧ واللَّفظُ لهُ، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٨٢٢٧)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٥/ ٣٠٣، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٧١.

[٤٧٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

لِعُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ[١] رضي الله عنه بِأَذْرَبِيجَانَ

«إِذَا رَأَيْتُمُ الْهِلَالَ نَهَارًا قَبْلَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ تَمَامَ ثَلَاثِينَ فَأَفْطِرُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ بَعْدَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ فَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تُمْسُوا»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين واليه عتبةَ بنَ فرقدٍ رضي الله عنهما يأمره ويعلمه بعض أحكام الصيام.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا رَأَيْتُمُ**): جملة شرطية، وحرف الشرط (**إذا**) يستخدم للأمور كثيرة أو متوقعة الحدوث، أما (إنْ) فيستخدم للأمور نادرة الحدوث، واستخدام الضمير فيه تعميم؛ حيث أطلق الكل وأراد البعض، أي: إذا رأى بعضكم. وقوله: (**الْهِلَالَ**): (اللام) لام العهد، والمراد هلال رمضان. وقوله: (**نَهَارًا**): ظرف زمان عام، حدده بقوله: (**قَبْلَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ**). وقوله: (**ثَلَاثِينَ**): ذكر العدد وحذف المعدود؛ للعهد، والمراد ثلاثين يوما. وقوله: (**فَأَفْطِرُوا**): جواب الشرط، وفيه توجيه ونصح للرعية، واهتمام بأمورهم الدينية، وتعليم لفقه الصيام.

١- عُتبةُ بنُ فَرقدٍ السُّلَمِيُّ، لَهُ صحبةٌ وروايةٌ، غزا معَ رسولِ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - غزوتَينِ، وروى أبو المعافى في «تاريخ الموصل» عن حُصينٍ - وهو مِن أقرباءِ عُتبةَ - أنَّه شهِد خيبرَ، وقُسِم لهُ منها، فكانَ يُعطِيهِ لبني أخوالِه عامًا ولبني أعمامِه عامًا. وأنَّ عمرَ ولَّاهُ في الفتوحِ، ففتح الموصل سنة ثمان عشرة مع عياضِ بنِ غَنْمٍ، وبلغ بالفتح أذربيجانَ، ثمَّ نزل بعد ذلك الكوفة ومات بها. «أسد الغابة» ٣/ ٥٦١، و«الإصابة» ٤/ ٣٦٤.

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٧٣٣٢)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٧٩٨٥).

[٤٧٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، أَوْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ[١] رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ بِكِتَابٍ لَمْ آلُكَ وَنَفْسِي فِيهِ خَيْرًا؛ الْزَمْ خَمْسَ خِلَالٍ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ، وَتَحْظَى بِأَفْضَلِ حَظِّكَ: إِذَا حَضَرَكَ الْخَصْمَانِ؛ فَعَلَيْكَ بِالْبَيِّنَاتِ الْعُدُولِ وَالْأَيْمَانِ الْقَاطِعَةِ، ثُمَّ أَدْنِ الضَّعِيفَ حَتَّى يَنْبَسِطَ لِسَانُهُ وَيَجْتَرِئَ قَلْبُهُ، وَتَعَاهَدِ الْغَرِيبَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا طَالَ حَبْسُهُ تَرَكَ حَاجَتَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى أَهْلِهِ، وَإِذَا الَّذِي أَبْطَلَ حَقَّهُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا، وَاحْرِصْ عَلَى الصُّلْحِ مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ الْقَضَاءُ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: من رسائله - رضي الله عنه وأرضاه - لأمرائه على الأقطار الإسلامية، يأمرهم فيها بالعدل في القضاء بين الرعية. والروايات متضاربة أكانت الرسالة لأبي عبيدة أم لمعاوية رضي الله عنهما ، ولم يُذكر زمان ولا مكان تلك الرسالة.

البيان والبلاغة: إن الحديث عن عدالة الفاروق رضي الله عنه يستطيع المرء التماسه من خلال الجانب الفعلي والقولي، والمقام هنا مقام تذوق للجانب القولي الذي نلتمسه

١- عندَ أبي يوسفَ، وابنِ أبي الدُّنيا أنَّ الكِتابَ وُجِّهَ إلى أبي عُبيدةَ. وعندَ وكيعٍ البغداديِّ، وقاضي المارستانِ أنَّه لمعاويةَ. وتردَّد البلاذريُّ فقال: (إلى أبي موسى، أو معاوية)!

٢- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص١٣٠، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٩١، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (١٠٩)، ووكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٧٥، وقاضي المارستان في «أحاديثِ الشُّيوخِ الثِّقاتِ» (٣٤٣).

في العديد من الأحاديث التي يأمر فيها أمراءه بالعدل والمساواة. وهذا النَّص من جملة النَّصوص التي استعرضناها وسنستعرضها فيما هو آتٍ - بإذن الله تعالى -.
يبدأ الفاروق رضي الله عنه بفصل الخِطَاب **(أما بعد)**، وبها فصل الخِطَاب - الذي يبدأ عادة بالحمد والثناء - عن الموضوع الرئيس الذي يرغب الحديث عنه. ثم يقول: **(فَإِنِّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ بِكِتَابٍ لَمْ آلُكَ وَنَفْسِي فِيهِ خَيْرًا)**، فاستعمل **(إنَّ)** الثقيلة والفعل الماضي **(كتب)** للتوكيد. وقوله: **(لَمْ آلُكَ وَنَفْسِي فِيهِ خَيْرًا)**: فيه دليل أن الإمام ينبغي له أن يكتب إلى عماله في كل وقت يوصيهم، وفيه بيان على أنه لم يُقَصِّر بل بالغ في تذكيره وتذكير نفسه بالخير[1]. أما قوله: **(الْزَمْ خَمْسَ خِلَالٍ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ وَتَحْظَ بِأَفْضَلِ حَظِّكَ)**: فقد بدأ هذا الخطاب الإلزامي الآمر الحازم الذي لا يستقيم القضاء إلا به = بالفعل **(الزم)**، وعلى الرغم من إلزامية الفعل = تعطي جملتا جواب الطلب تعزيزًا فوق الزاميته وسلطته؛ إذ في اتباع هذه الخصال الخمس سلامة الدين وأفضلُ الأجر والثواب. ويفهم ضمنًا أن عدم اتباعها يحول الحوافز الإيجابية إلى حوافز سلبية. وقد أشرنا إلى أن أسلوب التحذير يثير شوق المتلقي لسماع ما هو آت خاصة إن علم شدة وصرامة الآمر، فتجد المتلقي متطلعا إلى الاستماع إلى تلك الخصال التي فيها سلامة الدين والأخذ بأفضل الحظ؛ ولذلك قدَّم جواب الطلب المتضمن الحوافز الإيجابية قبل الشروع في تعدادها، فقال: **(يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك)**؛ لينقاد المتلقي إليها وفي ذهنه تلك الحوافز تؤثر فيه وتدعم تقبله، ومما له صلة بالفعل **(الزم)** العدد الذي أعقبه فهو مبهم، ويأتي التفصيل مفسِّرا. والانتقال بين الإبهام والتفصيل يضفي جاذبية وتأكيدًا عند المتلقي، وهو ينتظر إيضاح ما أبهم بالعدد. فقوله: **(الزم خمس)**: يشكل تركيبًا محوريًّا لا تكتمل دلالته إلا بعد النظر في

١- يُنظر «المبسوط»، للسرخسي، بتصرف يسير (١٦/ ٦٥).

التراكيب التفصيلية التالية له التي تترابط فيما بينها بمقتضى الاتصال التفصيلي. ثم يبدأ في تفصيل تلك الخصال الخمس التي تجعل المتلقي مهيئا ذهنيا لتلقيها فيقول: (**إِذَا حَضَرَكَ الْخُصْمَانِ فَعَلَيْكَ بِالْبَيِّنَاتِ الْعُدُولِ وَالْأَيْمَانِ الْقَاطِعَةِ**)، فصدَّر الفاروق ﵁ حديثه بـ (**إذا**) الشرطية. ثم لجأ إلى لون آخر من الأمر وهو اسم الفعل (**عليك**) وفي استخدامه إبعاد للرتابة التي قد يحدثها تكثيف الأفعال الأمرية المباشرة في النَّص، فضلًا عن كونه يخفف من وقع الأمر المباشر في نفس المتلقي، واسم الفعل كذلك آكد وأبلغ في الإفادة من الأفعال التي يقال إنها جاءت بمعناها. ومعنى: (**الْبَيِّنَاتِ الْعُدُولِ وَالْأَيْمَانِ الْقَاطِعَةِ**): فيه أمر للقاضي بتحري الدقة بالسماع إلى الأدلة البينة والعدول، واللجوء إلى اليمين القاطعة لفض الخصومة والمنازعة، ثم ينتقل إلى فعل الأمر المباشر في قوله: (**ثُمَّ أَدْنِ الضَّعِيفَ حَتَّى يَنْبَسِطَ لِسَانُهُ وَيَجْتَرِئَ قَلْبُهُ**): فـ (**أدن**): أسلوب إنشائي أمر، الغرض منه التوجيه والإرشاد. وقد انتقل الخطاب إلى الرقة؛ لارتباطه بالضعف، والإدناء هنا معنوي، أي: قربه من نفسك ولا تزدريه، وهو كذلك مادي، أي: قربه مكانًا ولا تقصيه؛ ليستمد منك القوة، وليستشعر الأمان فيدلي بحجته، ويطالب بحقِّه. ولم يرد بهذا الأمر تقديم الضعيف على القوي، وإنما أراد الأمر بالمساواة؛ لأن القوي يدنو بنفسه لقوته والضعيف لا يتجاسر على ذلك، والقوي يتكلم بحجته، وربما يعجز الضعيف عن ذلك فعلى القاضي أن يدني الضعيف؛ ليساويه بخصمه حتى يقوى قلبه وينبسط لسانه فيتكلم بحجته. وفي المعنى تضمين للمساواة بين الطرفين ونصرة الضعيف. وقوله: (**وَتَعَاهَدِ الْغَرِيبَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا طَالَ حَبْسُهُ تَرَكَ حَاجَتَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى أَهْلِهِ**): والأمر الرابع: (**تعاهد**) ارتبط بالغرباء، فالغريب في عهدة القاضي وفي ذمته، فكأنه أمانة عند القاضي عليه المحافظة عليه إلى حين عودته إلى دياره وقد نال حقه دونما غبن

وطول انتظار. وقد قيل: هذا أمر بتقديم الغرباء عند الازدحام في مجلس القضاء؛ فإن الغريب قلبه مع أهله فينبغي للقاضي أن يقدمه في سماع الخصومة؛ ليرجع إلى أهله. وقد كان رسول الله ﷺ يأمر بتعاهد الغرباء، وقيل: مراده أن الغريب منكسر القلب. ثم يقول: (**وَإِذَا الَّذِي أَبْطَلَ حَقَّهُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا**)، فإذا لم يخصه القاضي بالتعاهد عجز عن إظهار حجته فيترك حقه ويرجع إلى أهله، والقاضي هو من تسبب في تضييع حقه حين لم يرفع به رأسا. و(رفع الرأس) كناية عن الاهتمام به والجهر بحقه. وأخيرا: (**وَاحْرُصْ عَلَى الصُّلْحِ مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ الْقَضَاءُ**): وفيه دليل أن القاضي مندوب إليه أن يدعو الخصم إلى الصلح، خصوصا في موضع اشتباه الأمر. وبالنظر للوحدات الفعلية الآمرة: (**الْزَمْ**)، (**فَعَلَيْكَ**)، (**أَدْنِ**)، (**تَعَاهَدِ**)، (**احْرُصْ**) يمكننا توزيع تلك الأفعال على مجموعتين ينضم تحت أولاها: (**الْزَمْ، فَعَلَيْكَ**)، ويندرج في ثانيها: (**أَدْنِ، تَعَاهَدِ، احْرُصْ**) وتلعب كلا المجموعتين دورًا تأثيريًّا مميزًا؛ فقد كان عمر رضي الله عنه دقيقا جدًّا في اختيار أفعال الأمر حسب ما يقتضيه المقام، وما يستدعيه الجوُّ النفسيُّ في التعامل مع النَّاس؛ فاستخدم الفعل (**الزم**) وما يدور في فلكه من أفعال الأمر؛ ليربط بين الخصال الخمس في ضرورة الاتباع، وحين جاء إلى التفصيل تنوعت صيغ الأفعال وقوتها حسب مقام كل خصلة؛ إذ لجأ إلى اسم فعل الأمر (**عليك**) في مقام البينة واليمين والصلح، في حين اتخذ الأمر مسارًا عاطفيًّا نفسيًّا في مقام الضعف والغربة والمساواة فيما هو غير مادي.

[٤٨٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي سَبْرَةَ بْنِ أَبِي رُهْمٍ الْعَامِرِيِّ[١] رضي الله عنه

وَقَدْ كَاتَبَهُ فِي عَبْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَعْطَى أَهْلَ جُنْدَيْسَابُورَ[٢]، فَقَالُوا: إِنَّا لَا نَعْرِفُ حُرَّكُمْ مِنْ عَبْدِكُمْ، قَدْ جَاءَ أَمَانٌ فَنَحْنُ عَلَيْهِ، قَدْ قَبِلْنَاهُ

«إِنَّ اللهَ عَظَّمَ الْوَفَاءَ، فَلَا تَكُونُونَ أَوْفِيَاءَ حَتَّى تَفُوا. مَا دُمْتُمْ فِي شَكٍّ، أَجِيزُوهُمْ، وَفُوا لَهُمْ»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين أبا سبرةَ بن أبي رُهم رضي الله عنهما في شأن عبد مسلم أعطى مشركي جنديسابور أمانا، أن يمضي لهم ذلك الأمان.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ اللهَ عَظَّمَ الوَفَاءَ**): جملة خبرية، مؤكدة بـ (**إِنَّ**)، واستعمال الفعل الماضي (**عظَّم**) يدلُّ على ثبوت الحكم واستقراره. وقوله: (**لا تَكُونُونَ**): الفعل المضارع يدل على الاستمرار والتجدد، وقد عُلِّق على شرط أو قيد

١- أبو سَبْرَةَ بنُ أبي رُهْمٍ القرشيُّ العامريُّ: قديمُ الإسلامِ، هاجرَ الهجرتينِ جميعًا، شهد بدرًا، وأُحُدًا، والخندقَ، والمشاهدَ كلَّها معَ رسولِ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -. وآخى رسولُ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - بينَه وبينَ سلامةَ بنِ وَقشٍ، ولم يختلفوا في شهودِه بدرًا والمشاهدَ كلَّها، وَإِنَّما اختلفوا في هجرتِه إلى الحبشةِ. تُوفِّي أبو سبرةَ في خلافةِ عثمانَ. «أسد الغابة» ٦/ ١٣٠.

٢- جُنْدَيْسَابُورُ: مدينةٌ بِخُوزستانَ، بناها سابورُ بنُ أردشيرَ، فنُسِبت إليهِ، وأَسكنَها سبيَ الرُّومِ وطائفةً مِن جُندِه. «معجم البلدان» ٢/ ١٧٠.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٩٣.

وهو تحقق الوفاء فعلا لا قولا فحسب. وقوله: (**حَتَّى تَفُوا**): صيغت الجملة على غرار الحديث الشريف: «**لا تَدْخُلونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤمِنُوْا ...**». وقوله: (**فِي شَكٍّ**): تنكير (**شك**) للتقليل. وقوله: (**أَجِيزُوهُمْ**)، (**وَفُوا**): في هذا الأمر دليل على عظمة الإسلام ومساواته بين المسلمين، وكذلك على عظمة الفاروق ﵁ وحسن فهمه للإسلام.

[٤٨١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
لِعُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ رضي الله عنه بِأَذْرَبِيجَانَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَائْتَزِرُوا[١]، وَارْتَدُوا[٢]، وَانْتَعِلُوا[٣]، وَأَلْقُوا الْخِفَافَ[٤]، وَأَلْقُوا السَّرَاوِيلَاتِ، وَعَلَيْكُمْ بِالشَّمْسِ؛ فَإِنَّهَا حَمَّامُ الْعَرَبِ، وَعَلَيْكُمْ بِلِبَاسِ أَبِيكُمْ إِسْمَاعِيلَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ، وَزِيَّ الْعَجَمِ، وَتَمَعْدَدُوا[٥]، وَاخْشَوْشِنُوا[٦]، وَاخْلَوْلِقُوا، وَاقْطَعُوا الرُّكُبَ[٧]، وَانْزُوا نَزْوًا، وَارْمُوا الْأَغْرَاضَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - نَهَى عَنِ الْحَرِيرِ إِلَّا هَكَذَا وَهَكَذَا. وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى. فَمَا عَلِمْنَا أَنَّهُ يَعْنِي الْأَعْلَامَ»[٨].

١- أي: شُدُّوا الأُزرَ. انظر: «لسان العرب» ٤/ ١٦.

٢- أي ضَعُوا عليكمُ الأَرْدِيَةَ. انظر: «لسان العرب» ١٤/ ٣١٦-٣١٧.

٣- أي: الْبسُوا النِّعالَ. انظر: «لسان العرب» ١١/ ٦٦٧.

٤- يعني مِن الثِّيابِ. في «لسان العرب» ٩/ ٨٢: (الخُفَاخِفُ: صوتُ الثَّوبِ الجديدِ إذا لُبِسَ وحَرَّكتَه).

٥- يُقالُ: تَمَعْدَدَ الغُلامُ؛ إذا شَبَّ وغَلُظَ. وقيلَ: أرادَ: تَشَبَّهوا بعَيْشِ مَعَدِّ بنِ عدنانَ. وكانوا أهلَ غِلَظٍ وقَشَفٍ. أي: كونوا مِثْلَهم، ودَعُوا التَّنعُّمَ وزِيَّ العَجَم. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (معد).

٦- ويُروَى بالباءِ: «اخْشَوْشِبُوا». قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٣٢: (اخْشَوْشَبَ الرَّجُلُ: إذا كانَ صُلْبًا خَشِنًا في دِينِه، ومَلبَسِه، ومَطعَمِه، وجميعِ أحوالِه. ويُروَى بالجيمِ وبالخاءِ المُعجَمةِ والنُّونِ. يُريدُ: عِيشُوا عَيْشَ العربِ الأُولَى، ولا تُعوِّدوا أنفسَكم التَّرفُّهَ، فيَقعُدَ بِكم عنِ الغَزْوِ).

٧- الرِّكَابُ لِلسَّرْجِ كالفرزِ للرَّحلِ، والجمع رُكُبٌ «غريب الحديث» لأبي عُبيدٍ ٣/ ٣٢٥، «لسان العرب» ١/ ٤٣٠، «القاموس» ص١١٧، وإنَّما أمرهم بذلكَ حتَّى يعتادوا ركوبَ الخيلِ بغيرِ رُكُبٍ.

٨- رواهُ ابنُ الجعدِ في «مُسنَدِه» (٩٩٥)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٥٤٥٤)، وأحمدُ في «مُسنَدِه» (٣٠١) مُختصَرًا [وهو في عيون الأخبار (١/ ١٣٢) مسندا بتقديم وتأخير].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين لعامله عتبة بن فرقد رضي الله عنه ينصحه بجملة من النصائح تدور حول انتهاج نهج العرب في العيش وترك رفاهية العجم.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): اقتضاب يشبه التخلص، ينتقل به الفاروق من مقدمة الرسالة إلى موضوعها. وقوله: (**فَائْتَزِرُوا**): يوضح مدى اهتمام الفاروق بأدق تفاصيل حياة الرعية وحرصه على كل ما ينفعهم ويصلح شأنهم من لباس ونعل ... إلخ. وقوله: (**وَعَلَيْكُمْ**): اسم فعل أمر بمعنى الزموا. وقوله: (**حَمَّامُ الْعَرَبِ**): تشبيه بليغ شبه الشمس بالحمام ليبين فوائدها المتعددة. وقوله: (**أَبِيكُمْ**): الإضافة لضمير المخاطبين؛ لإثارة عاطفة القربى. وقوله: (**وَإِيَّاكُمْ**): اسم فعل أمر بمعنى احذروا، غرضه التحذير. وقوله: (**وَالتَّنَعُّمَ**): حذرهم من التنعم رغم أنه محبب للنفوس، وفي ذلك بُعد نظر من عمر الفاروق وإحاطة ببواطن الأمور وعدم اغترار بنعيم الدنيا. وقوله: (**وَزِيَّ الْعَجَمِ**): تحذير من التبعية والتقليد وحث على الاستقلالية والثقة بالنفس. وقوله: (**وَتَمَعْدَدُوا**): نصائح متتالية في مجملها تنهى عن التنعم وتحض على الزهد والإعراض عن الدنيا.

[٤٨٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى جَزْءِ بْنِ مُعَاوِيَةَ التَّمِيمِيِّ[١] رضي الله عنه (عَامِلِ الْأَهْوَازِ)[٢]

«أَنِ اعْرِضُوا عَلَى مَنْ قِبَلَكُمْ مِنَ الْمَجُوسِ، أَنْ يَدَعُوا نِكَاحَ أُمَّهَاتِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَأَخَوَاتِهِمْ، وَأَنْ يَأْكُلُوا جَمِيعًا كَيْمَا نُلْحِقَهُمْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَاقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَكَاهِنٍ»[٣]، «وَانْهَوْهُمْ عَنِ الزَّمْزَمَةِ[٤]»[٥].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النص كتاب من أمير المؤمنين إلى عامله على الأحواز جَزء بن معاوية التميمي رضي الله عنه يأمره أن يعرض على المجوس قِبَلَه أمورًا إن التزموها سنَّ فيهم سنة أهل الكتاب.

البيان والبلاغة: قوله: (**اعْرِضُوا**): جملة طلبية، غرضها الأمر، وفي الجملة تخيير للمجوس وحسن تطبيق لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

١- جَزْءُ بنُ مُعاويةَ التَّميميُّ السَّعدِيُّ، عمُّ الأحنفِ بنِ قيسٍ. قالَ ابنُ عبدِ البرِّ: كانَ عامِلَ عمرَ على الأهوازِ. وقيلَ: لهُ صحبةٌ. ولا يَصِحُّ. وعاشَ جَزْءٌ إلى أن وَلِيَ لزيادٍ بعضَ عملِه. «الإصابة» ١/ ٥٨٦.

٢- الأَهْوَاز، آخِرُه زايٌ، وهي جمعُ هوز، وأصله حوز، فلمّا كثر استعمالُ الفرسِ لهذه اللَّفظةِ؛ غيَّرتها حتَّى أذهبتْ أصلَها جملةً؛ لأنَّه ليسَ في كلامِ الفرسِ حاءٌ مهملةٌ، وإذا تكلَّموا بكلمةٍ فيها حاءٌ؛ قلبوها هاءً، فقالوا في حَسَن: «هَسَن». وفي مُحَمَّدٍ: «مُهمَّد». ثمَّ تلقَّفها منهم العربُ، فقُلِبت بحكمِ الكثرةِ في الاستعمالِ، وعلى هذا يكونُ «الأهوازُ» اسمًا عربيًّا سُمِّي بهِ في الإسلامِ، وكان اسمُها في أيَّامِ الفرسِ «خوزستان». «معجم البلدان» ١/ ٢٨٤.

٣- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٣٢٢)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (١٣٥).

٤- الزَّمْزَمَةُ: كلامٌ يقولهُ المجوسُ عندَ أكلِهم بصوتٍ خَفِيٍّ. «النِّهاية» ٢/ ٣١٣.

٥- رواهُ أبو داودَ في «السُّنَنِ» (٣٠٤٣)، وقالَ الألبانيُّ: صحيحٌ.

وقوله: (مِنَ) للتبعيض. وقوله: (وَاقْتُلُوا): أمر حاسم قاطع لا تهاون فيه. وقوله: (كُلَّ): توكيد لفظي يدل على الجدية والحسم. وقوله: (سَاحِرٍ وَكَاهِنٍ): العطف أيضا للتوكيد. وقوله: (وَانْهَوْهُمْ): جملة طلبية توضح مدى إحاطة الخليفة بأحوال رعيته وحسن معاملته لأهل الديانات الأخرى.

[٤٨٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ[١] رضي الله عنه وَهُوَ بِالْبَحْرَيْنِ

«أَنْ سِرْ إِلَى عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ عَمَلَهُ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى، لَمْ أَعْزِلْهُ إِلَّا يَكُونُ عَفِيفًا صَلِيبًا شَدِيدَ الْبَأْسِ، وَلَكِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَغْنَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ مِنْهُ، فَاعْرِفْ لَهُ حَقَّهُ، وَقَدْ وَلَّيْتُ قَبْلَكَ رَجُلًا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ، فَإِنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ تَلِيَ وُلِّيتَ، وَإِنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَلِيَ عُتْبَةُ، فَالْخَلْقُ وَالْأَمْرُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَاعْلَمْ أَنَّ أَمْرَ اللهِ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ، فَانْظُرِ الَّذِي خُلِقْتَ لَهُ فَاكْدَحْ لَهُ، وَدَعْ مَا سِوَاهُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا أَمَدٌ وَالْآخِرَةَ أَبَدٌ، فَلَا يَشْغَلَنَّكَ شَيْءٌ مُدْبِرٌ خَيْرُهُ عَنْ شَيْءٍ بَاقٍ شَرُّهُ، وَاهْرَبْ إِلَى اللهِ مِنْ سَخَطِهِ، فَإِنَّ اللهَ يَجْمَعُ لِمَنْ شَاءَ الْفَضِيلَةَ فِي حُكْمِهِ وَعِلْمِهِ. نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكَ الْعَوْنَ عَلَى طَاعَتِهِ وَالنَّجَاةَ مِنْ عَذَابِهِ»[٢].

١- العَلاءُ بنُ عبدِ الله بنِ عِمادٍ الحَضْرَمِيُّ، كانَ مِن حُلَفاءِ بني أُميَّةَ، ومِن سادةِ المُهاجِرينَ. واستعملَ النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - العلاءَ على البحرينِ، وأقرَّهُ أبو بكرٍ، ثُمَّ عمرُ. كان يُقالُ: إنَّه مُجابُ الدَّعوةِ، وخاضَ البحرَ بكلماتٍ قالَها، وذلكَ مشهورٌ في كتبِ الفتوحِ. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ٢٦٢، و«الإصابة» ٤/ ٤٤٥.

٢- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٤/ ٣٦٢، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ٢٤٢.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: رسالة بديعة من أمير المؤمنين إلى عامله العلاء بن عبد الله الحضرمي رضي الله عنهما يأمره بالسير إلى عتبة بن غزوان رضي الله عنه لِيَلي عمله، وينصحه بما يقربه من الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (سِرْ): جملة طلبية، والأمر بالسير ليس هو المراد بذاته ولكن المراد هو التوجه وتنفيذ الأمر. وقوله: (**فَقَدْ وَلَّيْتُكَ عَمَلَهُ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**قد**)، والفعل الماضي. وقوله: (**وَاعْلَمْ**): جملة طلبية، غرضها النُّصح والإرشاد. وقوله: (**عَلَى رَجُلٍ**): تنكير رجل للتعظيم، وفيه تنبيه للعلاء بن الحضرمي ليعرف لعتبة قدره. وقوله: (**مِنَ المُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ**): تعظيم لعتبة بن غزوان وعرفان بقدره وفضله، وفي الوقت نفسه تفضيل لمصلحة المسلمين العامة على الأفراد، فرغم فضل عتبة وقدره إلا أن مصلحة المسلمين في هذا الوقت تقتضي غيره. وقوله: (**لَمْ أَعْرِفْهُ إِلَّا يَكُونُ**): استثناء ناقص منفي غرضه القصر والتأكيد. وقوله: (**عَفِيفًا صَلِيبًا شَدِيدَ الْبَأْسِ**): تعدد الصفات الطيبة يوضح قدر عتبة وقيمته. وقوله: (**وَلَكِنِّي**): استدراك يوضح تقدير الفاروق للأمور وتفضيله لمصلحة المسلمين العامة على أي اعتبارات أخرى. وقوله: (**ظَنَنْتُ**): يوضح تواضع عمر وعدم تشبثه برأيه وإدراكه أن اجتهاده قد يصيب وقد يخطئ. وقوله: (**أَغْنَى عَنِ المُسْلِمِينَ**): أفعل التفضيل يثبت وجود صفة الغَناء في كل من عتبة والعلاء ولكنها في العلاء أكثر، وفي ذلك - أيضًا - تقدير لقدر عتبة رغم عزله. وقوله: (**فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ**): تخصيص جانب التفضيل وتحديده؛ لأن عتبة قد يفضله في جوانب أخرى. وقوله: (**فَاعْرِفْ لَهُ حَقَّهُ**): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد، وفيها مراعاة من عمر لمشاعر عتبة

وحرص على رضاه. وقوله: (رَجُلا): تنكير (رجلا)؛ لعدم الرغبة في تعيينه لعدم أهمية ذلك. وقوله: (فَإِنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ تَلِيَ وُلِّيتَ): جملة شرطية غرضها تثبيت قاعدة أن كل شيء بيد الله وإقرارها في قلب العلاء. وقوله: (فَالْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَاعْلَمْ أَنَّ أَمْرَ الله مَحْفُوظٌ بِحِفْظِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ): نصائح إيمانية يهدف منها عمر إلى تثبيت اليقين بقلب ولاته. وقوله: (فَانْظُرِ): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (خُلِقْتَ): بناء الفعل لما يعرف اسمه، وهو الله - تعالى -، فيه لمحة إيمانية لطيفة. وقوله: (لَهُ): أسلوب قصر غرضه الحصر والتخصيص. وقوله: (فَاكْدَحْ): فيه حث على السعي لمرضاة الله والجد في طاعته. وقوله: (وَدَعْ): أمر غرضه النَّص والإرشاد. وقوله: (مَا سِوَاهُ)، (ما) الموصولة للإطلاق والتعميم. وقوله: (الدُّنْيَا أَمَدٌ وَالْآخِرَةَ أَبَدٌ): (الدُّنْيَا) و(الْآخِرَة) بينهما تضاد، و(أمد) و(أبد): بينهما جناس ناقص، وتضاد يوضح المعنى ويبرزه. وقوله: (فَلَا يَشْغَلَنَّكَ): نهي مؤكد بالنون. وقوله: (شَيْءٌ): التنكير للتقليل والتعميم. وقوله: (وَاهْرُبْ إِلَى الله): كناية عن التوبة والرجوع إلى الله. وقوله: (فَإِنَّ اللهَ يَجْمَعُ): جملة خبرية مؤكدة، غرضها النَّصح والإرشاد.

[٤٨٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

إِلَى عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

«يَا عُتْبَةُ، إِنِّي قَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى أَرْضِ الْهِنْدِ، وَهِيَ حَوْمَةٌ مِنْ حَوْمَةِ الْعَدُوِّ، وَأَرْجُو أَنْ يَكْفِيَكَ اللهُ مَا حَوْلَهَا، وَأَنْ يُعِينَكَ عَلَيْهَا، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ أَنْ يَمُدَّكَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ[1]، وَهُوَ ذُو مُجَاهَدَةِ الْعَدُوِّ وَمُكَايَدَتِهِ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ فَاسْتَشِرْهُ وَقَرِّبْهُ، وَادْعُ إِلَى اللهِ، فَمَنْ أَجَابَكَ فَاقْبَلْ مِنْهُ، وَمَنْ أَبَى فَالْجِزْيَةُ عَنْ صَغَارٍ وَذِلَّةٍ، وَإِلَّا فَالسَّيْفُ فِي غَيْرِ هَوَادَةٍ، وَاتَّقِ اللهَ فِيمَا وُلِّيتَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُنَازِعَكَ نَفْسُكَ إِلَى كِبْرٍ يُفْسِدُ عَلَيْكَ إِخْوَتَكَ، وَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَزَزْتَ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ، وَقَوِيتَ بِهِ بَعْدَ الضَّعْفِ، حَتَّى صِرْتَ أَمِيرًا مُسَلَّطًا وَمَلِكًا مُطَاعًا، تَقُولُ فَيُسْمَعُ مِنْكَ، وَتَأْمُرُ فَيُطَاعُ أَمْرُكَ، فَيَا لَهَا نِعْمَةٌ، إِنْ لَمْ تَرْفَعْكَ فَوْقَ قَدْرِكَ وَتُبْطِرْكَ عَلَى مَنْ دُونَكَ! احْتَفِظْ مِنَ النِّعْمَةِ احْتِفَاظَكَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَلَهِيَ أَخْوَفُهُمَا عِنْدِي عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَدْرِجَكَ وَتَخْدَعَكَ، فَتَسْقُطَ سَقْطَةً تَصِيرُ بِهَا إِلَى جَهَنَّمَ، أُعِيذُكَ بِاللهِ وَنَفْسِي مِنْ ذَلِكَ. إِنَّ النَّاس أَسْرَعُوا إِلَى اللهِ حِينَ رُفِعَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا فَأَرَادُوهَا، فَأَرِدِ اللهَ وَلَا تُرِدِ الدُّنْيَا، وَاتَّقِ مَصَارِعَ الظَّالِمِينَ»[2].

١- عَرْفَجةُ بنُ هَرثَمةَ بنِ عبدِ العُزَّى بن زهيرٍ البارقيُّ، أحدُ الأمراءِ في الفتوحِ. وذكروا أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ أمدَّ بِهِ جَيْفَرَ بنَ الجُلَنْدَى لَمَّا ارتدَّ أهلُها. «الإصابة» ٤/ ٤٠١.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٩٣، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٦٤٠.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: رسالة ووصية رائقة من أمير المؤمنين إلى عتبة بن غزوان رضي الله عنهما حين استعمله على أرض الهند، يأمره فيها ببعض ما يجب عليه فعله، ويوصيه بتقوى الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا عُتْبَةُ**): بدأ الرسالة بالنداء للتنبيه. وقوله: (**إِنِّي قَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إن**)، و(**قد**)، والفعل الماضي. و(**الحومة**): أشدُّ مواضع القتال، وفي استخدام هذا اللفظ تحذير لعتبة؛ لتوخي الحيطة والحذر. وقوله: (**وَأَرْجُو أَنْ يَكْفِيَكَ اللهُ مَا حَوْلَهَا، وَأَنْ يُعِينَكَ عَلَيْهَا**): جمل دعائية، غرضها تنبيه عتبة وتشجيعه على بذل ما في وسعه لحمايتها. وقوله: (**يَمُدَّكَ**): إجراء فيه تشجيع ودعم لعتبة. وقوله: (**ذُو مُجَاهَدَةِ الْعَدُوِّ وَمُكَايَدَتِهِ**): ذكر أوصاف عرفجة فيه طمأنةٌ لعتبة، وكناية عن دهاء عرفجة وقوة بأسه. وقوله: (**فَاسْتَشِرْهُ وَقَرِّبْهُ**): جمل طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**فَمَنْ أَجَابَكَ**): جملة شرطية يعلِّم فيها عمر واليه كيفية التعامل مع البلاد المفتوحة، وفيه إيجاز بحذف الجار والمجرور المتعلق بالفعل (**أجاب**). وقوله: (**فَاقْبَلْ مِنْهُ**): فيه إيجاز بحذف المفعول به. وقوله: (**فَالْجِزْيَةَ**): فيه إيجاز بحذف الفعل والمفعول الأول، والمراد: فألزمه الجزية. وقوله: (**صَغَارٍ وَذِلَّةٍ**): العطف لتوكيد المعنى، والتنكير للتكثير والتحقير. وقوله: (**فَالسَّيْفَ**): إيجاز بحذف الفعل والفاعل. وقوله: (**وُلِّيتَ**): بناء الفعل للمجهول فيع تواضع من عمر؛ لأنه هو الفاعل. وقوله: (**وَإِيَّاكَ**): اسم فعل أمر بمعنى احذر. وقوله: (**تُنَازِعَكَ نَفْسُكَ**): استعارة مكنية صور فيها النفس كأنها مصارع يصارع الرجل وينازعه، ثم حذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه، وهو المنازعة.

وقوله: (**كِبْرٍ**): التنكير للتقليل والتحقير. وقوله: (**وَقَدْ صَحِبْتَ**): (**الواو**) واو الحال، و(**قد**) للتوكيد. وقوله: (**فَعَزَزْتَ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ، وَقَوِيتَ بِهِ بَعْدَ الضَّعْفِ**): التضاد بين (**عزِّزْتَ، والذِّلَّةِ**) وبين (**قَويت، والضَّعف**) يبرز المعنى ويوضحه. وقوله: (**حَتَّى**): يفيد الغاية. وقوله: (**تَقُولُ فَيُسْمَعُ**): فاء السرعة تبين ما صار إليه من العزة والتمكين، وبناء الفعل (**يُسمع**) للمجهول أفادت العموم والإطلاق، ومثله قوله: (**وَتَأْمُرُ فَيُطَاعُ**). وقوله: (**فَيَالَهَا نِعْمَةٌ**): أسلوب تعجب، فيه تذكير بهذه النعم. وقوله: (**إِنْ لَمْ تَرْفَعْكَ فَوْقَ قَدْرِكَ**): أسلوب شرط يوضح متى تكون السلطة نعمة ومتى تصير نقمة على صاحبها. وقوله: (**احْتَفِظْ**): جملة طلبية فيها تحذير من الاغترار بالنعم. وقوله: (**احْتِفَاظَكَ**): مفعول مطلق مبين للنوع. وقوله: (**وَلَهِيَ**): لام القسم للتوكيد. وقوله: (**عِنْدِي**): تقديم شبه الجملة للتخصيص. وقوله: (**فَتَسْقُطَ**): (**الفاء**) فاء السببية، والجملة تحذير من المعاصي. وقوله: (**أُعِيذُكَ بِاللهِ وَنَفْسِي**): تقديم ضمير المخاطب في الدعاء فيه تواضع وحسن خلق من الخليفة ﵁. وقوله: (**إِنَّ النَّاس أَسْرَعُوا إِلَى اللهِ**): جملة خبرية غرضها التحذير بالاعتبار. وقوله: (**حتى رُفِعَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا فَأَرَادُوهَا**): فيه اعتبار بأحوال النَّاس واغترارهم بالدنيا. وقوله: (**فَأَرِدِ اللهَ**): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**فَأَرِدِ اللهَ وَلا تُرِدِ الدُّنْيَا**): فيه تضاد مقابلة تبرز المعنى وتوضحه. وقوله: (**مَصَارِعَ الظَّالِمِينَ**): في الجملة إيجاز، والتقدير: إياك والظلم فتبوء بمصارع الظالمين.

[٤٨٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ رضي الله عنه

«إِنَّ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ خَرَجَ بِجَيْشٍ، فَأَقْطَعَهُمْ أَهْلُ فَارِسَ، وَعَصَانِي، وَأَظُنُّهُ لَمْ يُرِدِ اللهَ بِذَلِكَ، فَخَشِيتُ عَلَيْهِمْ إِنْ لَا يُنْصَرُوا أَنْ يُغْلَبُوا وَيَنْشَبُوا، فَانْدُبْ إِلَيْهِمُ النَّاس، وَاضْمُمْهُمْ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُجْتَاحُوا»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يُجْتَاحُوا**)، أي: يُستأصلوا.

مقتضى الحال: يخاطب أميرُ المؤمنين واليَه عتبة بن غزوان في شأن العلاء بن الحضرمي - رضي الله عن الجميع - ومخالفته أمر أمير المؤمنين، ثم يبين له التوجيه الصحيح في تلك الحال.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَعَصَانِي**): فيه تعبير عن حزن الفاروق وأسفه لما فعل واليه. وقوله: (**وَأَظُنُّهُ**): تواضع من عمر رضي الله عنه واتهام لرأيه وعدم تكبر. وقوله: (**فَخَشِيتُ**): فيه حرص من الفاروق على المسلمين برغم عصيان الوالي له. وقوله: (**يُنْصَرُوا**): بناء الفعل للمفعول في موضع الهزيمة أو عدم النَّصر من حسن الأدب مع الله - تعالى -. وقوله: (**يُغْلَبُوا وَيُنْشَبُوا**): تحذير من عواقب معصية الله وأولي

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٨١، وعنهُ ابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٥٥.

الأمر. وقوله: (**فَانْدُبْ**): جملة طلبية فيها أمر بالإسراع في النجدة. وقوله: (**النَّاس**): أطلق الكل وأراد البعض للتعميم. وقوله: (**يُجْتَاحُوا**): بناء الفعل للمجهول لعدم أهمية تعيين الفاعل.

[٤٨٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى قُطْبَةَ بْنِ قَتَادَةَ السَّدُوسِيِّ (١) رضي الله عنه

«إِنَّهُ أَتَانِي كِتَابُكَ أَنَّكَ تُغِيرُ عَلَى مَنْ قِبَلَكَ مِنَ الْأَعَاجِمِ، وَقَدْ أَصَبْتَ وَوُفِّقْتَ. أَقِمْ مَكَانَكَ، وَاحْذَرْ عَلَى مَنْ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي» (٢).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين إلى قطبة بن قتادة السدوسي رضي الله عنهما يُقِر فيه فعله في قتال الأعاجم، ويأمره بالإقامة على ما هو عليه حتى يأمره بشيء آخر.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّهُ أَتَانِي**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**). وقوله: (**أَنَّكَ تُغِيرُ عَلَى مَنْ قِبَلَكَ**): ذكر محتوى الكتاب لتحديد الكتاب المقصود وتعيينه. وقوله: (**وَقَدْ أَصَبْتَ**): فيه إقرار وتأييد لقطبة فيما توجه إليه. وقوله: (**وَوُفِّقْتَ**): العطف؛ لتأكيد الإقرار. وقوله: (**أَقِمْ مَكَانَكَ**): جملة طلبية فيها أمر حاسم بالتريث والانتظار. وقوله: (**حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي**): (**حتى**) للغاية. والخطاب دليل على حسم الفاروق في أمور الفتح والجهاد وتأييده لآراء ولاته إذا ثبتت وجاهتها.

١- قُطْبَةُ بنُ قتادةَ بنِ جريرٍ السَّدُوسِيُّ، أبو الحويصلةِ، قال البخاريُّ: لهُ صحبةٌ. وقالَ ابنُ حبَّانَ: أتى النَّبيَّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - فبايعهُ. استخلفهُ خالدُ بنُ الوليدِ على البصرةِ لمَّا سارَ إلى السَّوادِ. «الإصابة» ٥/ ٣٣٩.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٩٣.

[٤٨٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ يَجْلِسُ لِلرَّعِيَّةِ فَوْقَ جَبَلٍ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَأَسْهِلْ تُثْمِرْ. وَالسَّلَامُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ الوجيز رسالة من أمير المؤمنين إلى أخيه وواليه سمرة بن جندب رضي الله عنهما يأمره باتخاذ مكان سهل قريب من الناس؛ كي يكون ذلك أيسر لهم وأثمر.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): جملة افتتاحية ينتقل بها من مقدمة الرسالة إلى محتواها. وقوله: (**فَأَسْهِلْ**)، أي: أقم في السهل وانزل عن الجبل، وصياغة الفعل فيها إيجاز، والجملة طلبية. وقوله: (**تُثْمِرْ**): جواب الطلب، فيه حث وتشجيع على سكنى السهل وترك الجبل، والرسالة موجزة أيما إيجاز.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٠.

[٤٨٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

لِعُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ رضي الله عنه بِأَذْرَبِيجَانَ وَقَدْ أَرْسَلَ لَهُ عُتْبَةُ بَعِيرًا يَحْمِلُ خَبِيصًا حُلْوًا

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَيْسَ مِنْ كَدِّ أَبِيكَ، وَلَا مِنْ كَدِّ أُمِّكَ، فَأَشْبِعِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ، وَإِيَّاكُمْ وَزِيَّ الْأَعَاجِمِ وَنَعِيمَهَا، وَعَلَيْكُمْ بِالمَعَدِّيَّةِ[١]»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين والِيَه عتبة بن فرقد رضي الله عنهما مقرِّعا، وآمرا له بالتوسعة على المسلمين.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): جملة افتتاحية مقتضبة ينتقل بها من مقدمة الرسالة إلى موضوعها. وقوله: (**فَلَيْسَ مِنْ كَدِّ أَبِيكَ**): فيه إيجاز بحذف اسم ليس، والجملة فيها تعنيف شديد، ولوم للوالي على تنعمه دون رعيته. وقوله: (**وَلَا مِنْ كَدِّ أُمِّكَ**): العطف؛ لتوكيد المعنى وتوضيحه. وقوله: (**الْمُسْلِمِينَ**): أطلق الكل وأراد البعض، والمراد: رعيته. وقوله: (**مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ**): فيه حث للوالي على المساواة بينه وبين رعيته، وهذا من قمة عدل الفاروق. وقوله: (**وَإِيَّاكُمْ**): تحذير من التبعية والانهزام وتقليد الأعاجم.

١- أي: باللِّبْسَةِ الخَشِنةِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (معد).

٢- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣٩).

[٤٨٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَلِ: أَنْ لَا تُؤَخِّرَ عَمَلَ الْيَوْمِ لِغَدٍ؛ فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ تَدَارَكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَعْمَالُ، فَلَمْ تَدْرُوا بِأَيِّهَا تَأْخُذُونَ، فَأَضَعْتُمْ، وَإِنَّ الْأَعْمَالَ مُؤَدَّاةٌ إِلَى الْأَمِيرِ مَا أَدَّى الْأَمِيرُ إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَإِذَا رَتَعَ الْأَمِيرُ رَتَعُوا، وَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً عَنْ سُلْطَانِهِم، فَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكَنِي - أَوْ قَالَ: تُدْرِكَنَا -؛ فَإِنَّهَا ضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُتَّبَعَةٌ، فَأَقِيمُوا الْحَقَّ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(تداركت عليكم)**: تدارك القومُ، ادَّاركوا: أَدْركَ بعضُهم بعضًا، ولحِق آخِرهُم بأوَّلهمُ. تداركَتِ الأخبارُ: تتابعَت، تلاحَقَتْ. تَدارَكَت الأعمال، أي: تتابعت وتراكمت وتكاثرت حتى تعجزوا عن أدائها. وقوله: **(رَتَعَ)**: رَتَعَتِ الماشية تَرْتَعُ رُتوعًا، أي: أكلت ما شاءت. ويقال: خرجنا نَرْتَعُ ونلعب، أي: ننعم ونلهو، وإبلٌ رِتاعٌ: جمعُ راتِعٍ، وقومٌ راتِعونَ. والموضعُ مَرْتَع. وأَرْتَعَ إبلَه فَرَتَعَتْ، وقومٌ مُرْتِعونَ. وأَرْتَعَ الغيثُ، أي: أنبت ما تَرْتَعُ فيه الإبل. وقوله: **(نُفْرَة)**: من النفور والجفاء. وقوله: **(ضَغَائِنُ)**: جمع ضغينة، وهي: الأحقاد والإحن. وقوله: **(مُؤْثَرَة)**: أي: مفضلة على غيرها، من الأثرة التي حذر منها الرسول ﷺ في قوله: «**سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً ...**».

١- رواهُ أبو عُبَيدٍ في «الأموالِ» (١٠)، و«الخطبِ والمواعظِ» (١٣٦).

مقتضى الحال: المقام مقام وعظ وإرشاد ونصح وتوجيه من عمر ﵁ الذي كان يحرص على تعهد عماله وولاته بين حين وآخر، يذكرهم بالله وينبههم على ما قد يغفل عنه بعضهم من حقوق الرعية.

البيان والبلاغة: استهل عمر ﵁ خطابه لعامله أبي موسى الأشعري بقوله: (**أَمَّا بَعْدُ**)؛ ليستثير انتباهه لما سيرد في الخطاب من نصائح، وكون أبي موسى الأشعري من كبار صحابة النبي ﷺ لم يمنع عمر من توجيه النُّصح له. وقوله: (**فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَلِ أَنْ لَا تُؤَخرَ**): جملة خبرية فيها معنى الإنشاء؛ حيث استعاض عمر عن توجيه الأمر مباشرة إلى أبي موسى بجملة خبرية يفهم منها اللبيب أنها حض له على المبادرة بالعمل وعدم التسويف والتأجيل. وتنكير قوله: (**عَمَل**) و(**غَد**) للعموم والشمول؛ فالمراد أن لا يؤخر عملا، أيَّ عمل، صغيرا كان أو كبيرا، عظيما كان أو حقيرا، لغَد، أي غد. وقوله: (**إِذَا فَعَلْتُمْ**): أسلوب شرط، وهذا الأسلوب والذي بعده الغرض منها التحذير؛ للتنبيه والتخويف من التسويف وإضاعة الأعمال، عن طريق توضيح عواقب هذه الأمور ومآلاتها في جواب هذه الجملة الشرطية. ويؤكد ذلك تعدد الأفعال المذكورة في جواب الشرط: (**تَدَارَكَتْ**)، (**فلم تَدْرُوا**)، (**فَأَضَعْتُمْ**). وقوله: (**مُؤَدَّاة**): اسم مفعول لم يذكر فاعله؛ ليدل على العموم فإذا أدى الأمير ما عليه فإن غالب الرعية ومعظمها يؤدون أعمالهم، اقتداء به وتأسيا. وقوله: (**فَإِذَا رَتَعَ الْأَمِيرُ رَتَعُوا**): فعل الشرط هو نفس فعل الجواب؛ ليدل على أن الجزاء من جنس العمل. وقوله: (**وَإِنَّ لِلنَّاسِ نُفْرَةً**): تقديم لخبر (**إِنَّ**) على اسمها للاختصاص والتنبيه، وتنكير (**نُفْرَةً**): للتعظيم والتهويل والتحذير. وقوله: (**سُلْطَانِهِم**): أضاف السلطان إلى ضمير الغائبين العائد على النَّاس؛ ليبين ارتباطهم بالسلطان وحبهم

لطاعته، ورغم ذلك ينفرون عنه ويعصونه ويخرجون عليه إذا قصَّر في رعايتهم والقيام على مصالحهم. وقوله: (**فَأَعُوذُ بِالله أَنْ تُدْرِكَنِي**): تعوذ عمر من هذه النفرة وتخوفه منها رغم سعيه لإقامة دولة العدل، ورغم تلقيب النَّاس له بالفاروق، وهذا من خصائص عمر التي تميز بها، وهو دوام الخوف من الله والمراقبة له واستصغار عمله رضي الله عنه. وقوله: (**مَحْمُولَة**)، (**مُؤْثَرَة**)، (**مُتَّبَعَة**): استعمل أسماء المفعولين دون ذكر الفاعلين؛ لجهالة الزمان والقوم الذين تحدُث في عهدهم هذه الفتنة. وقوله: (**وَدُنْيَا مُؤْثَرَة، وَأَهْوَاء مُتَّبَعَة**): تحذير من الأثرة واتباع الهوى اللذين حذر منهما النبي ﷺ في قوله: «**حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ**». وقوله: (**فَأَقِيمُوا الْحَقَّ**): استعارة مكنية؛ شبه فيها الحق وكأنه بناء يؤمر الولاة بإقامته. وقوله: (**وَلَوْ سَاعَة مِنْ نَهَار**): فيه حذف على غرار قول المصطفى ﷺ: «**الْتَمِسْ، وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ**»، أي: ولو كانت مدة إقامتكم للحق ساعة من نهار. وتنكير (نهار) للعموم والشمول.

[٤٩٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ

«إِذَا تَدَاعَتِ الْقَبَائِلُ فَاضْرِبُوهُمْ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يَصِيرُوا إِلَى دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب حاسم من أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أمراء جنده، يأمرهم بقتال من دعا إلى الشرك أو دعوة جاهلية، حتَّى يعود إلى دعوة الإسلام.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا تَدَاعَتِ**): جملة شرطية غرضها الأمر والتوجيه، وأتى بالفعل بصيغة الماضي ووزن التفاعل؛ لتحري التأكد من حدوث التداعي والتألب والتعاضد والتعاون والإصرار على سيِّئ الفعل. وقوله: (**الْقَبَائِلُ**): فيه تحقير للقبائل وتذكير بالجاهلية والعصبية القبلية، والتعريف بـ (**أل**) للعموم والإطلاق. وقوله: (**فَاضْرِبُوهُمْ**): جملة طلبية حاسمة غرضها الأمر والحسم. وقوله: (**بِالسَّيْفِ**): التعريف بـ (**أل**) العهد؛ للتهديد والوعيد وتعظيم السيف والتخويف به. وقوله: (**حَتَّى يَصِيرُوا**): (حتى) تفيد الغاية، مما يدل أن الأمر بالضرب والقتال مسبب بسبب وله غاية إذا تحققت يتوقف. وقوله: (**يَصِيرُوا**): تفيد التحول والانتقال وتغير الحال من الكفر إلى الإيمان. وقوله: (**إِلَى دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ**): فيه حرص من عمر على دعوة النَّاس وهدايتهم، وإدراك لوظيفته الأولى وهي الدعوة إلى الإسلام.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٣٤٠).

[٤٩١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ، وَأَنْفِذْ إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ، آسِ[١] بَيْنَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِكَ، وَفِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ؛ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ[٢]، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ، فَالْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا، وَلَا يَمْنَعْكَ مِنْ قَضَاءٍ قَضَيْتَ بِهِ الْيَوْمَ، فَرَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ، وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ، أَنْ تُرَاجِعَ فِيهِ الْحَقَّ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ، وَلَا يُبْطِلُ الْحَقَّ شَيْءٌ، وَإِنَّ مُرَاجَعَةَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ. الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا يَتَلَجْلَجُ[٣] فِي نَفْسِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي قُرْآنٍ وَلَا سُنَّةٍ، ثُمَّ اعْرِفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ، وَقِسِ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ اعْمِدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى، فَاجْعَلْ لِمَنِ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً أَخَذَ بِحَقِّهِ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْهَا اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ؛ فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ، وَأَجْلَى لِلْعَمَى. الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ، أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ، أَوْ ظَنِينًا[٤] فِي

١- آسِ بينَ النَّاس: أي سَوِّ بينَهم «الكامل في اللُّغةِ» ١/ ١٧.

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٤٦٩: (أي: في مَيلِكَ معَه لشَرَفِه. والحَيفُ: الجورُ والظُّلمُ).

٣- تَلَجْلَجَ: أي تَرَدَّدَ في صَدرِكَ، وقَلِقَ ولم يَستقِرَّ. «لسان العرب» ٢/ ٣٥٦.

٤- أو ظَنِينًا في وَلَاءٍ أو نَسَبٍ، أي: مُتَّهَم. «الكامل في اللُّغة» ١/ ١٨.

وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ؛ فَإِنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تَوَلَّى مِنكُمُ السَّرَائِرَ، وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْأَيْمَانِ. وَإِيَّاكَ وَالْغَلَقَ، وَالْغِلَظَ، وَالضَّجَرَ، وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاسِ عِنْدَ الْخُصُومِ، وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِي يُوجِبُ اللهُ فِيهِ الْأَجْرَ، وَيُحْسِنُ فِيهِ الذُّخْرَ، فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ - وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ - كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ شَانَهُ اللهُ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ عَبْدِهِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ[١] -، وَعَاجِلِ رِزْقِهِ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: وَلِيَ أبو موسى الأشعري ﵁ قضاء البصرة مع ولايتها من عام سبعة عشر إلى خمسة وعشرين من الهجرة، ما عدا سنة اثنين وعشرين من الهجرة؛ حيث تولى البصرة مع قضائها لعمر، وتلك الرسالة إلى أبي موسى الأشعري في بداية ولايته ﵁، أي: في العام السابع عشر من هجرة النبي ﷺ. والمقام هنا مقام إرشاد وعظة؛ فأمير المؤمنين ﵁ يأمر الراعي بطاعة الله في رعيته، وتعد تلك الرسالة بكل ما حملته من تشريعات قضائية تعد مرسومًا قضائيًّا يحتاج إليه القضاة جميعًا، والولاة الذين كان القضاء جزءًا من مهامهم.

١- وفي «إعلامِ المُوقِّعينَ» ٢/ ١٢٥: «فما ظنُّك بثوابِ عبدِ الله» قالَ ابنُ القيِّم: (يريدُ بِهِ تعظيمَ جزاءِ المُخلِصِ، وبيانَ أنَّ جزاءَ العاملينَ كما ذُكِرَ في القرآنِ مِرارًا لا يقدرُ قدرُه عندَ اللهِ، وأنَّهم سيُوفَّوْنَ أجرَهم في هذه الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ).

٢- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٦، ووكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٧٠، والدَّارقطنيُّ في «السُّنَنِ» (٤٤٧١)، والشَّجريُّ في «ترتيبِ الأمالي الخميسيَّةِ» (٢٦٢٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٥٣٧)، و«معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (١٩٧٩٢).

البيان والبلاغة: اجتمع في هذه الرسالة البليغة التوجه التشريعي والقانوني والأدب القضائي الذي صِيغَ بأسلوب أدبي يعتمد على الإقناع العقلي والتأثير العاطفي، ونلتمس ذلك من خلال ما يلي: بدأ الفاروق - رضي الله تعالى عنه - بقوله: (**سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**): فتلك البداية من خصائص الرسائل بعد الإسلام؛ إذ تبدأ بالسلام، ثم حمد الله - تعالى -. و(**أَمَّا بَعْدُ**): هي فصل الخطاب لقطع الكلام واستئناف كلام آخر غيره، بلا علاقة تكون بينه وبينه؛ فقد بدأ الفاروق حديثه بالسلام وذكر الله وتحميده، فلما أراد الخروج إلى الغرض المطلوب من الخطاب فصل حديثه بـ: (**أما بعد**). وقوله: (**فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ**): أسلوب مؤكد بـ (**إِنَّ**) الثقيلة؛ للدلالة على أهمية القضاء كفريضة واجبة قاطعة لا يمكن أن تستقيم حياة البشر بدونها، والوجوب في حكمها مستمد من قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص : ٢٦]، ومن قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة : ٤٨]، والكلام في الآية الكريمة موجه للنبي ﷺ، وذلك يسمى بلاغيًّا بالتناص الخفي. و(**القضاء**) هو: الحكم بين النَّاس بالحق، فهو ضروري لمساس الحاجة إليه؛ لإنصاف المظلوم من الظالم وقطع المنازعات التي هي مادة الفساد، وغير ذلك من المصالح التي لا يستتب الأمن ولا يسود النظام في المجتمع الإنساني إلا برعايتها والقيام عليها بالأحكام المبنية على الأوامر والنواهي المستنبطة من شرع سماوي. وقوله: (**محكمة**): يريد به أن ما يحكم به الحاكم نوعان: أحدهما: فرض محكم غير منسوخ؛ كالأحكام الكلية التي أحكمها الله في كتابه فهي لا تحتمل النسخ ولا التخصيص ولا التأويل أو هي الأحكام التي عرف وجوبها بالعقل. والقسم الثاني: من الأحكام التي سنها رسول الله ﷺ. وهذان النوعان هما المذكوران

في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ فَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ**»[1]. وقوله: (**وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ**)، أي: طريقة مسلوكة في الدين يجب اتباعها على كل حال. والملاحظ على العبارة الأولى أن الفاروق اعتمد الوضوح والمباشرة في التعبير؛ فقد بدأ بتعريف القضاء، واعتمد في تعريفه على العبارات الموجزة، وهذا ما ترمي إليه الرسائل الإدارية، فتكون غاية النَّص توصيل فكرة للمتلقي بألفاظ واضحة بعيدة عن التصنع والتطويل. فالعبارة الأولى: (**فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ**): فيها إيجاز بعبارة مجملة بعيدة عن الإطناب والشرح؛ لاعتماده على فهم متلقي الرسالة. ثم يقول: (**فافهم إذا أدلي إليك**) و(**الإدلاء**): رفع الخصومة إلى الحاكم، و(**الفهم**): إصابة الحق في إدراك ما يلقى إليه، فمعناه: عليك ببذل المجهود في إصابة الحق إذا أدلي إليك، وقيل: اسمع كلام كل واحد من الخصمين وافهم مراده، وبهذا يؤمر كل قاض؛ لأنه لا يتمكن من تمييز المُحِق من المبطل إلا بذلك، وربما يجري على لسان أحد الخصمين ما يكون فيه إقرار بالحق لخصمه، ويقول العلامة ابن قيم الجوزية معلقا على قول الفاروق: «(**فافهم إذا أدلي إليك**)؛ لأن صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده؛ لأن صحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ومادته: حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الله في السر والعلانية. ويقطع مادته: اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى. ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط بها علما.

١- أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٤/ ٣٦٩ - ٧٩٤٩)، وضعفه الذهبي.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو: فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر»[١]. ويُلاحظ على كلام الفاروق رضي الله عنه أنه سيبدأ من تلك الجملة: (**فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ**) في توجيه الأوامر للقاضي. والأسلوب الإنشائي الأمر الغرض منه ههنا النَّصح والإرشاد، وتلك النَّصيحة الأولى وقد مضى تفسيرها. ثم يمضي إلى النَّصيحة الثانية: (**وَأَنْفِذْ إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ**): ومراد الفاروق رضي الله عنه هنا التحريض على تنفيذ الحق إذا فهمه الحاكم، ولا ينفع تكلمه به إن لم يكن له قوة تنفيذه، فهو تحريض منه على العلم بالحق والقوة في تنفيذه، والأسلوب الآمر ههنا كسابقه الغرض منه النَّصح والإرشاد. وزاد من البلاغة هنا استخدامه أسلوب التفصيل بعد الإجمال؛ فقد أجمل القول في: (**وَأَنْفِذْ إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ**)، ثم فصله في بيان مراده في قوله: (**فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ**)، واستخدم التأكيد بـ (**إنَّ**) للدلالة على قطعية الأمر. ثم ينطلق للنصيحة الثالثة: (**آسِ بَيْنَ النَّاس فِي مَجْلِسِكَ، وَفِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ**)، أي: أنه لابد على القاضي أن يسوي بين الخصوم إذا تقدموا إليه، اتفقت أحوالهم وصفاتهم أو اختلفت؛ لأن كلمة (**النَّاس**) اسم جمع تتناول الكل. والتسوية تكون في النظر إلى الخصمين، والإقبال عليهما في جلوسهما بين يديه حتى لا يقدم أحدهما على الآخر؛ لأن هذا عنوان عدله في الحكومة، فمتى خص أحد الخصمين بالدخول عليه أو القيام له أو بصدر المجلس والإقبال عليه والبشاشة له والنظر إليه = كان عنوان حيفه وظلمه. و قوله: (**وَجْهِكَ**): مجاز مرسل علاقته الجزئية، وإنما ذكر الوجه؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل عليه بوجهه؛ لأن أول ما يستقبل الإنسان الوجه فعبر به عن

١- «إعلام الموقعين» (١/ ٦٩).

إقباله على الخصمين، وعدم الالتفات لأحدهما دون الآخر. وقوله: (**عدلك**): فإن كان حضه على مراعاة الإقبال على الخصمين والبشاشة في وجههما، فالعدل بهما أولى وأجدر والعطف بين الفعلين؛ للتأكيد على أهميتهما. ثم ينتهج نفس المنهج الذي اتبعه في النَّصيحة السابقة فيقول: (**حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ**): فإذا قدَّم الشريف طمع في ظلمه، أي: في أن تكون الغلبة له، وانكسر بهذا التقديم قلب خصمه الضعيف فيخاف الجور وييأس من عدله، وربما يتمكن الشريف عند التقديم من التلبيس على القاضي، ويعجز الضعيف عن إثبات حقه بالحجة، والقاضي هو المتسبب لذلك بإقباله على أحدهما وتركه التسوية بينهما في المجلس، ويصير متهما بالميل أيضًا. فيظهر من خلال ما سبق احترام الفاروق لمشاعر الضعفاء، وفي قوله تناص خفي بقول الخليفة الأول الصديق ﷺ: «والضعيفُ فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله»، فالنَّصان يحضان على توجيه الاهتمام بالضعيف وعدم العناية بشريف القوم على حساب من لا ناقة له ولا جمل. وانظر هنا إلى الانتقال المنطقي الذي انتقل إليه الفاروق ببراعة فائقة بعد أن أمره بما سبق الإشارة إليه، فقد يجد تساويًا في الحجج المنطقية المقدمة من كلا الطرفين، فماذا على القاضي أن يفعل؟! يقول الفاروق ﷺ: (**فَالْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**): وهذا تناص جلي من قول النبي ﷺ؛ فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ إِلَّا فِي الْقَسَامَةِ**» و(**البينة**): كل ما يبين الدعوى ويظهر المقصود، وهي حجة المدعي التي يُثبت بها دعواه، وذهب جمهور الفقهاء إلى أن المراد بالبينة: الشهود، وذهب فريق آخر إلى أن البينة هي: كل ما يبين الحق ويظهره من الشهود، والإقرار، والقرائن، وغير ذلك. أما اليمين فلا يلجأ

القاضي إلى تحليف المدعى عليه إلا عند عجز المدعي عن إقامة البينة فإذا حلف المدعَى عليه اليمين قضى الحاكم بإبرائه، فإن أحضر المدعِي بينة بعد ذلك حكم بها القاضي، وللفاروق رضي الله عنه قول في هذا: «البينة الصادقة أحب إليَّ من اليمين الفاجرة». ومن توجهت إليه اليمين فعليه أن يحلف ولا يترك حقه، وقد أمر عمر بذلك فقال وهو على المنبر يخطب النَّاس وفي يده عصا: (**يا أيها النَّاس لا تمنعكم اليمين من حقوقكم؛ فوالذي نفسي بيده إن في يدي لعصا**). وقوله: (**وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ النَّاس، إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالا**): وفي ذلك الحديث أيضًا تناص جلي بحديث عمرو بن عوف المزنيِّ أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «**الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلاَّ صُلْحًا حَرَّمَ حَلاَلاً، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا، وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا**». وقد ندب الله - سبحانه وتعالى - إلى الصلح في كثير من الآيات الكريمة، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات : ٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء : ١٢٨]، لهذا كان القاضي مأمورًا بدعاء الخصمين إلى الصلح، كما أن الفاروق رضي الله عنه حض على الصلح فقال: «ردوا الخصوم حتى يصطلحوا؛ فإن فصل القضاء يحدث بين القوم الضغائن»، وقال أيضًا: «ردوا الخصوم لعلهم أن يصطلحوا؛ فإنه آثر للصدق وأقل للخيانة»، وقال أيضًا: «ردوا الخصوم إذا كانت بينهم قرابة؛ فإن فصل القضاء يورث بينهم الشنآن والعداوة والبغضاء»، وذلك كله مأخوذ من المعلم الأكبر ﷺ في قضائه؛ فعن أم سَلَمَة قالت: أتى رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَجُلَانِ يَخْتَصِمانِ في مواريث لهما لم تكن لهما بينة إلا دعواهما، فقال النَّبِيُّ - صلى اللهُ عليه وسلم -: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ**

مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِشَيْءٍ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ» فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: حَقِّي لَكَ؛ فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**أَمَّا إِذْ فَعَلْتُمَا مَا فَعَلْتُمَا فَاقْتَسِمَا وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ ثُمَّ اسْتَهِمَا ثُمَّ تَحَالا**». وقوله: (**إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالا**): استثنى من الصلح ما يتعلق بشرائع الله وحدوده؛ فالتسامح والمصالحة تكون في حق العباد إن قبلوا الصلح، أما حق الله فلا صلح فيه، ولابد من إقامة الحد درءًا للفتن المترتبة على ذلك. وقد مضت الإشارة إلى الترتيب المنطقي الذي يتبعه الفاروق رضي الله عنه في حصر المواقف التي قد تواجه القاضي. وهنا ينتقل الفاروق للحديث عن القاضي ذي النفس الوقَّافة على الحق الأوابة إلى الصواب؛ فيقول: (**وَلَا يَمْنَعْكَ مِنْ قَضَاءٍ قَضَيْتَ بِهِ الْيَوْمَ فَرَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ، وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ، أَنْ تُرَاجِعَ فِيهِ الْحَقَّ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ، وَلَا يُبْطِلُ الْحَقَّ شَيْءٌ، وَإِنَّ مُرَاجَعَةَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ**). يقول ابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين: «يريد إنك إذا اجتهدت في حكومة ثم وقعت لك مرة أخرى، فلا يمنعك الاجتهاد الأول من إعادته؛ فإن الاجتهاد قد يتغير، ولا يكون الاجتهاد الأول مانعا من العمل بالثاني إذا ظهر أنه الحق؛ فإن الحق أولى بالإيثار؛ لأنه قديم سابق على الباطل، فإن كان الاجتهاد الأول قد سبق الثاني والثاني هو الحق فهو أسبق من الاجتهاد الأول؛ لأنه قديم سابق على ما سواه، ولا يبطله وقوع الاجتهاد الأول على خلافه، بل الرجوع إليه أولى من التمادي على الاجتهاد الأول. قال عبد الرزاق: حدثنا معمر عن سماك بن الفضل عن وهب بن منبه عن الحكم بن مسعود الثقفي قال: قضى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في امرأة توفيت وتركت زوجها وأمها وأخوتها لأبيها وأمها وأخويها لأمها، فأشرك عمر بين الأخوة للأم والأب والإخوة للأم في الثلث، فقال له رجل: إنك لم تشرك

بينهم عام كذا وكذا، قال عمر: تلك على ما قضينا يومئذ، وهذه على ما قضينا اليوم. فأخذ أمير المؤمنين في كلا الاجتهادين بما ظهر له أنه الحق، ولم يمنعه القضاء الأول من الرجوع إلى الثاني، ولم ينقُضِ الأول بالثاني، فجرى أئمة الإسلام بعده على هذين الأصلين»[١]. وقوله: (**فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ**): كناية عن أن الحق ثابت لا يتغير بتغير الأحوال والأزمان. وبين (**الحق**) و(**الباطل**): تضاد يبرز المعنى ويؤكده، وبين (**مُرَاجَعَةَ الْحَقِّ**) و(**التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ**): طباق يؤكد المعنى ويبرزه. وهنا ينتقل لحادثة جديدة قد تصادف القاضي في مهمته، يتعرض لها الفاروق في حصره المنطقي المبهر، فيقول: (**الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا يَتَلَجْلَجُ فِي نَفْسِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي قُرْآنٍ وَلَا سُنَّةٍ، ثُمَّ اعْرِفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ، وَقِسِ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ اعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى**): ومراده أن القاضي يحكم أولا بما في القوانين المشروعة، فإن لم يجد فيقضي بمقتضى العرف، أي: يعمد إلى المشابهة والقياس، فإن لم يجد فبمقتضى مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدل، وله - أيضًا - أن يعمد إلى المشابهة أو القياس على نظائر الواقعة الواردة عليه في الشريعة الإسلامية ويقضي فيها كما قضت به. ويبدأ حديثه بأسلوب الإغراء (**الفهم الفهم**): وصيغة الإغراء إذا تقدمت فإنها تطرق سمع السامع فينتفض من شواغله، ويلقى انتباهه، وخاصة إن عرف في مغريه حرص الناصح الأمين. واستخدام الفعل (**يتلَجْلَج**) الذي يفيد التردد والارتباك، وكأن تكرار المقطع (لج) (لج) ناسب ذاك التردد القائم في النفس فكان اختيار اللفظ موافقا للسياق. وقوله: (**اعْرِفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ**)، وقوله: (**قِسِ الْأُمُورَ**)، وقوله: (**اعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ**): أساليب إنشائية أمر الغرض منها النَّصح والإرشاد، والعبارة السابقة كلها للدلالة على إعمال العقل إن غاب النقل والمرونة

١- «إعلام الموقعين» (١/ ٨٦ - ٨٧).

في استنباط الأحكام. وقوله: (**فَاجْعَلْ لِمَنِ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ**)؛ لأن المدعي قد تكون حجته أو بينته غائبة، فعلى القاضي أن يضرب له أمدًا ليحضر حجته؛ حتى إذا قال: شهودي حاضرون، أمهله ليأتي بهم لربما لم يأتِ بهم في المجلس الأول بناء على أن الخصم لا ينكر حقه لوضوحه فيحتاج إلى مدة ليأتي بهم. وبعدما أقام البينة إذا ادعى الخصم الدفع أمهله القاضي ليأتي بدفعه؛ فإنه مأمور بالتسوية بينهما في عدله، وليكن إمهاله على وجه لا يضر؛ فإن الاستعجال إضرار بمدعي الدفع وفي تطويل مدةِ إمهاله إضرار بمن أثبت حقه، وخير الأمور أوسطها، وأصل التركيب: (فاجعل أمدا لمن ادعى ...)، ولكنه قدم شبه الجملة؛ للتخصيص والتوكيد. ثم يقول: (**فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً أَخَذَ بِحَقِّهِ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْهَا اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ؛ فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ، وَأَجْلَى لِلْعَمَى**)، ومعنى ذلك: أنه إذا أقام المدعي بينة على حقه حكم له القاضي بحقه، وإن أعجزه ذلك حكم برفض دعواه، وإن ادعى المدعَى عليه بدفع وإقامة الحجة على دفعه = حكم القاضي بمقتضى دفعه. وقوله: (**اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ**)، أي: كان حلالا لك أيها القاضي أن تدفع دعوى المدعي، ومعنى هذا: أن المدعي الذي يحل من صاحبه ما حرم عليه، بأن يدعي عليه دعوى لا دليل له عليها، استحل القاضي عليه الدعوى، أي: دفع دعواه وكان دفعه حلالا؛ لأن المدعي هو البادئ بارتكاب ما حرم، ولهذا قالوا: إن إحلال البادئ ظلم وإحلال الدافع مباح. ويمكن تفسير معنى: (**استحللت عليه القضية**): بأنه من المقرر شرعًا أنه إذا استكملت للقاضي شرائط الحكم وجب عليه القضاء فورا؛ إلا في ثلاث حالات يجوز فيها تأخير الحكم: رجاء الصلح، إذا ارتاب في الشهود فله تأخير الحكم حتى يتثبت، إذا استمهله المدعي حتى يحضر بينته أو استمهله المدعى عليه ليحضر بينة على الدفع، فإن لم يكن شيء من ذلك وقد أخَّر القضاء فإنه يأثم؛

لتركه الواجب، ويستحق العزل؛ لفسقه ويعزر؛ لارتكابه ما لا يجوز شرعًا. وعلى هذا يكون مراد عمر ﵁ أنه إذا عجز المدعى عليه عن إحضار البينة على الدفع وطلب أجلا آخر لا يجيبه القاضي، وصار في حل من القضاء للمدعي؛ لأنه إذا أجابه مع قيام بينة المدعي على دعواه يأثم ويعزر ويستحق العزل. وقوله: (**فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ، وَأَجْلَى لِلْعَمَى**)، أي: لإزالة الاشتباه، وأبلغ في العذر للقاضي عند توجه القضاء عليه؛ لأنه إذا وجه القضاء بعد إمهاله حتى يظهر عجزه عن الدفع انصرف من مجلسه شاكرا له ساكتا، وإذا لم يمهله انصرف شاكيا منه، يقول: مال إلى خصمي ولم يسمع حجتي ولم يمكني من إثبات الدفع عنده. واستخدم أفعل التفضيل (**أَبْلَغُ**) و (**أَجْلى**)؛ لبيان أن حال تأخره عن إحضار البينة يكون القاضي قد أمهله وبلغ من لدنه عذرًا، فجاءت أفعل التفضيل؛ لبيان أن الإمهال والعذر أولى من غيره. ثم ينتقل الفاروق ﵁ لعنصر جديد يتناول فيه حدَّ العدالة، فيقول: (**الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ، أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ، أَوْ ظَنِينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ**): أصَّل الفاروق ﵁ بدءا بقوله: (**المسلمون عدول**)، فتلك القاعدة الأصلية التي ارتضاها الله - تعالى - للمسلم المؤمن؛ فكل مسلم عدل باعتبار اعتقاده؛ لأن دينه يمنعه من الإقدام على ما يعتقد الحرمة فيه، ففي ذلك دلالة على ضرورة صدقه في شهادته. وقوله: (**بعضهم على بعض إلا ...**): استخدام الفاروق ﵁ لهذا التعبير فيه بيان؛ فقد أورد القاعدة الرئيسة (**المسلمون عدول**)، ثم يأتي لاحقًا المستثنون من هؤلاء العدول، ولكن هل كل من لا يأتي بفعل من الأفعال المستثناة يعدُّ عدلا بنفس النسبة مع صاحبه؟ بالقطع يتفاوت النَّاس في العدالة فبعض النَّاس أعدل من بعض على وجه الإجمال وعدم تعيين الفاضل من المفضول؛ ذلك أن كل فريق اشتركوا في صفة العدالة لا يخلون من أن

يكون بعضهم أفضل من بعض في الصفة نفسها. ثم يذهب للمستثنيين من القاعدة العامة: (**مَجْلُودًا فِي حَدٍّ**)، فمن جلد في حدٍّ؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - نهى عن قبول شهادته، إلا أن يتوب إلى الله - تعالى -، ولكن القاعدة العامة عدم قبول شهادتهم، وفيها تناص خفي بقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٤]، ثم ينتقل إلى الفعل الثاني الذي يطعن في عدالة المسلم: (**أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ**): فمن جرب عليه شهادة الزور - ولو مرة واحدة - فلا يوثق بعد ذلك في شهادته؛ لظهور خيانته بارتكاب كبيرة من الكبائر، وقد تأثر ﷺ في قوله بالعديد من الآثار التي قالت بالطعن في من عُلِمَ عليه شهادة الزور؛ كقول النبي ﷺ: «**عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللهِّ**»[1]. وقد قرن الله - سبحانه وتعالى - الإشراك بالله بقول الزور، فقال: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج : ٣٠-٣١]، وعن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلاثًا**». قَالُوا: بَلى، يا رَسُولَ الله. قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِالله وَعُقوقُ الْوالِدَيْنِ**». وَجَلَسَ، وَكانَ مُتَّكِئًا، فَقالَ: «**أَلا، وَقَوْلُ الزُّورِ**». قَالَ: فَما زَالَ يُكَرِّرُها، حَتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَتَ. والفعل الثالث والأخير: (**أَوْ ظَنِينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ**)، أي: متهمًا في ولاء أو قرابة. وعلى هذا لا تجوز شهادة السيد لعتيقه بمال، أو شهادة العتيق لسيده إذا كان لا يزال منقطعًا إليه يناله نفعه، وكذلك لا تقبل شهادة القريب لقريبه، وقد اختلف الفقهاء في ذلك؛ فمنهم من جوَّز شهادة القريب لقريبه مطلقًا، ومنهم من منع شهادة الأصول للفروع والفروع للأصول، وجوَّز شهادة الأقارب بعضهم لبعض. وفي قوله: (**الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ، أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ**

١- أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي، وضعفه الألباني.

شَهَادَةُ زُورٍ، أَوْ ظَنِّينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ): استخدام الاستثناء أفاد الحصر؛ وفي القول كله تناص خفي بما ورد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلَا خَائِنَةٍ، وَلَا مَحْدُودٍ فِي الإِسْلَامِ، وَلَا ذِي غِمْرٍ عَلَى أَخِيهِ**»[١]. ويجدر الإشارة إلى اعتراض ابن حزم على العبارة السابقة؛ فقد عارضها بما رواه مالك بن أنس في الموطأ: قَدِمَ على عمر بن الخطَّاب رَجُلٌ مِن أهل العراقِ، فقالَ: لقد جئتك لأمرٍ ما له رأسٌ ولا ذَنَبٌ. فقال عمر: ما هو؟ قال: شَهاداتُ الزُّورِ ظهرتْ بِأرضِنا. فقال عمر: أَوَقد كانَ ذلكَ؟! قال: نعم. فقال عمر: وَاللهِّ لاَ يُؤْسَرُ رَجُلٌ فِي الإسلاَم بغيرِ العُدُولِ. وعلَّق ابن فرحون على قول عمر: «وقول عمر رضي الله عنه في هذه الرسالة: (**الْمُؤمِنُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ**)، رجع عمر - رحمه الله - عن ذلك بما رواه مالك في الموطأ، وهذا يدل على رجوعه عما في هذه الرسالة»[٢]. نعود لسياق النَّص فبعد أن تحدث عن أصحاب العدالة ومن سقطت عدالتهم = ينتقل لبيان آخر رضي الله عنه فيقول: (**فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْأَيْمَانِ**). وقوله: (**فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ**): يعني أن المحق والمبطل ليس للقاضي طريق إلى معرفة حقيقته؛ فإن ذلك غيب ولا يعرف الغيب إلا الله؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق : ٩]، فالسَّرائِرُ ما أسرَّ في القلوب من العقائد والنيَّات وما أخفي من الأعمال، وبلاؤها تعرفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث، ولا طريق للقاضي لمعرفتها إلا بما يظهر عنده من الحجة وما يقوم من برهان. أما قوله: (**وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْأَيْمَانِ**)، فالمراد بالبينات الأدلة والشواهد كدلالة الحمل على الزنا، ورائحة الخمر

١- أخرجه أبو داود وابن ماجه، وحسنه الألباني.

٢ ( ) «تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» (١/ ٣١).

على السكران، أما الأيمان فيراد بها أيمان الزوج في اللعان وأولياء القتيل في القسامة. وبين قوله: (**تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ**) وقوله: (**دَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**): طباق يؤكد المعنى ويبرزه. واستخدم الفاروق في العبارة السابقة اليُسر في التعبير، وكأنه أراد أن يخبره بأنه لن يستطيع الاطلاع على كل شيء ولو حرص على ذلك. وفي إخباره بأن الله يعلم السر وأخفى رفع للحرج عن القاضي لو أخطأ أو جانبه الصواب في حكم ما وقد تحرى أشد التحري قبل الحكم، وفيه دليل على رفق عمر رضي الله عنه بمن يوكل إليه القضاء بين الخلق. ثم يعود مرة أخرى لتحذيره فيقول: (**وَإِيَّاكَ وَالْغَلَقَ وَالْغِلَظَ وَالضَّجَرَ وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاس عِنْدَ الْخُصُومِ، وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِي يُوجِبُ اللهُ فِيهِ الْأَجْرَ، وَيُحْسِنُ فِيهِ الذُّخْرَ**): (**الغلق والغلظ والضجر**): كلها أنواع من إظهار الغضب؛ فـ(**الغلق**): ضيق الصدر وقلة الصبر، و(**الغلظ**): ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش، و(**الضجر**): القلق من الغم، وفلان ضجر معناه ضيق النفس، والقاضي منهي عن ذلك؛ لأنه يكسر قلب الخصم به ويمنعه من إقامة حجته ويشتبه على القاضي بسببه طريق الإصابة وربما لا يفهم كلام أحد الخصمين. وقوله: (**وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاس عِنْدَ الْخُصُومِ**): يعني إظهار الملال منهم إذا أطال أحدهم في كلامه بما لا حاجة به إليه، فلا ينبغي للقاضي أن يظهر التأذي بذلك ما لم يتجاوز المتكلم الحد، فإذا تكلم بما يرجع إلى الاستخفاف بالقاضي ويذهب بحشمة مجلس القضاء = فحينئذ يمنعه عن ذلك ويؤدبه. أما: (**وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ**): فهو أن يقطب وجهه إذا تقدم إليه خصمان، فإن فعل ذلك مع أحدهما فهو جور، وإن فعله معهما ربما عجز المحق عن إظهار حقه فذهب وترك حقه. أما قوله: (**فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِي يُوجِبُ اللهُ فِيهِ الْأَجْرَ، وَيُحْسِنُ فِيهِ الذُّخْرَ**): يريد القضاء في مجالس الحكم؛ لأن الحلم وترك الضجر والغلق وإظهار البشر مع النَّاس محمود

في كل موضع وفي مجلس القضاء أولى؛ لأنه مما يوجب الله به الأجر ويحسن الذكر، وقد صدَّر العبارة الماضية بأسلوب التحذير (**إياك**)، وصيغة التحذير إذا تقدمت فإنها تطرق سمع السامع فينتفض من شواغله، ويلقى انتباهه، وخاصة إن عرف في محذره الشدة والصرامة، وقد كان ﷺ لا تأخذه في الله لومة لائم. وقد وظف العديد من المترادفات كـ: (**الغلق، والغلظ، والضجر، والتنكر**)، وكلها معان تصب في بوتقة الضيق وإظهار الملل من المتحدث، وتوظيفها يفيد الإنكار على من ينتهج هذا النهج من القضاة. وقوله: (**فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ، كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ شَانَهُ اللهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ عَبْدِهِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَعَاجِلِ رِزْقِهِ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ**). والعبارة السابقة يختتم بها الفاروق ﷺ هذا الحديث الماتع بعظات تتلخص في: إخلاص النية لله، وترك الرياء والنفاق؛ فمن خلصت نيته فيما بينه وبين الله - تعالى - ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين النَّاس.

وقد وردت العديد من الآثار في المرائين، منها قوله - تعالى -: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**قَالَ الله تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، وعن جُندب بن عبد الله بن سفيان ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ، وَمَنْ يُرائِي يُرائِي اللهُ بِهِ**».

وأما قوله: (**فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَعَاجِلِ رِزْقِهِ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ**)، فمراده أن المرائي بعمله يقصد اكتساب محمدة أو نوال شيء مما في يد النَّاس، فإذا ترك الإخلاص فاته ثواب الله - تعالى -، فالعاقل إذا قابل ما هو موعود له من الله - تعالى - عند التقوى والإخلاص بما يطمع فيه من جهة النَّاس = ترجح ما عند الله

لا محالة وذلك عاجل الرزق، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، والمغفرة والرحمة كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ثم اختتم مقالته الخالدة بقوله: (**وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله**)؛ فإلقاء السلام من خصائص النثر الأدبي في صدر الإسلام بدءًا وختامًا، وفيه إعمال بأمر رسول الله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**». وختامًا؛ هناك لمحات مجملة يجدر الإشارة إليها بعد تناول هذا الأثر العظيم: فقد تميزت رسالة الفاروق رضي الله عنه بالإيجاز؛ فتم التعبير عن الأفكار بأقل قدر من الألفاظ الدالة الموحية من غير أن يخل ذلك بالبيان، ومن غير انحراف عن جادة القصد بفضول الحديث وتكرار المعاني. وكذا يلاحظ تكثيف وتلاحم التراكيب والجمل وتماسكها؛ لتؤدي دورًا في إيصال المعنى إلى المتلقي والتأثير فيه. وكان الإيجاز أولى بالاستخدام في هذا المقام الإداري البحت؛ فلا مجال للتصوير واستخدام الصور البيانية والمحسنات إذ المقصود امتلاك أُذُن المتلقي وبث كل المعلومات المطلوب إيصالها دون صرف انتباهه لأي عارض آخر. كذا نلمح الوضوح الدلالي للألفاظ والتعبيرات والبعد بالكلية عن الكلمات والتعبيرات التي تحمل بين طياتها أكثر من معنى أو تثير غموضًا، وهو من سمات الأدب الإداري.

[٤٩٢]

وَمِنْ كِتَاب لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ لِلنَّاسِ وُجُوهٌ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَ النَّاس، فَأَكْرِمْ وُجُوهَ النَّاس، فَحَسْبُ الْمُسْلِمِ الضَّعِيفِ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يُنْصَفَ فِي الْحُكْمِ وَالْقِسْمَةِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(وجوه)**: يقال: وَجُهَ - بالضم - وَجاهَةً، فهو وَجِيهٌ: إذا كان له حظٌّ ورُتبة، والوجه مُستَقبلُ كلِّ شيء. والمراد به هنا صفوة النَّاس وكبراؤهم والقائمون على مصالحهم.

مقتضى الحال: المقام هنا مقام نصح وتوجيه من خطاب أرسله عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أحد عماله.

البيان والبلاغة: قوله: **(لَمْ يَزَلْ)**: يدل على الاستمرار وكون هذا الأمر من طبائع البشر. وقوله: **(لِلنَّاسِ وُجُوه)**: تأخير المبتدأ النكرة وتقديم الخبر شبه الجملة عليه؛ للتنبيه والتعظيم والتفخيم. وفي العبارة تورية؛ حيث تحتمل كلمة وجوه معنى قريبا هو الوجه الذي هو جزء من الرأس، ومعنى بعيدا هو المراد، وهو خيار النَّاس وسادتهم. وقوله: **(يُنْصَفَ)**: بناء الفعل للمجهول وعدم ذكر الفاعل؛ لتوجيه الاهتمام إلى الفعل نفسه، وهو إنصاف الضعيف أيا كان فاعله.

١- رواهُ ابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (١١٦٣)، وأحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (٦٤٩)، والدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٤٣١)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٦٨٨).

[٤٩٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً عَنْ سُلْطَانِهِمْ؛ فَأَعُوذُ بِالله أَنْ يُدْرِكَنِي وَإِيَّاكَ عَمْيَاءُ مَجْهُولَةٌ، وَضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ؛ فَأَقِمِ الْحُدُودَ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَإِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لله وَالْآخَرُ لِلدُّنْيَا فَآثِرْ نَصِيبَكَ مِنَ الله؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا تَنْفَذُ وَالْآخِرَةَ تَبْقَى، وَأَخِفِ الْفُسَّاقَ، وَاجْعَلْهُمْ يَدًا يَدًا وَرِجْلًا رِجْلًا. عُدْ مَرِيضَ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْضُرْ جَنَائِزَهُمْ، وَافْتَحْ بَابَكَ، وَبَاشِرْ أُمُورَهُمْ بِنَفْسِكَ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - جَعَلَكَ أَثْقَلَهُمْ حِمْلًا، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ فَشَا لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ هَيْئَةٌ فِي لِبَاسِكَ وَمَطْعَمِكَ وَمَرْكَبِكَ لَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ مِثْلُهَا؛ فَإِيَّاكَ يَا عَبْدَ الله أَنْ تَكُونَ بِمَنْزِلَةِ الْبَهِيمَةِ مَرَّتْ بِوَادٍ خَصْبٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا هَمٌّ إِلَّا السِّمَنُ وَالْمَاءُ، وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي السِّمَنِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَامِلَ إِذَا زَاغَ زَاغَتْ رَعِيَّتُهُ، وَأَشْقَى النَّاسِ مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين أخاه وعامله أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما ناصحا إياه ببعض الأمور المتعلقة بسياسة الناس، وتقوى الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً**): جملة خبرية مؤكدة بـ (إن)، وتقديم

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١١٩٨) [وبغير سند في عيون الأخبار (١/ ١١)، وينظر: البيان والتبيين (٢/ ٢٩٣)].

الخبر وتأخير المبتدأ للتخصيص والاهتمام، وتنكير (**نفرة**) للتعظيم والتهويل والتحذير. وقوله: (**سُلْطَانِهِمْ**): إضافة السلطان إلى الضمير العائد على النَّاس؛ لتوضيح العلاقة والارتباط الوثيق بين الرعية والحاكم، وتحذير للحاكم من الاطمئنان لهذه العلاقة والركون إليها والاتكال عليها. وقوله: (**فَأَعُوذُ بِالله**): التعوذ بالله فيه دلالة على خطورة الأمر ووجوب الحذر والتيقظ. وقوله: (**يُدْرِكَنِي وَإِيَّاكَ**): قدَّم ضمير المتكلم على المخاطب على غير عادته في الدعاء؛ لأن الأمر جلل ويخاف عمر أن يدركه، ويحذِّر المخاطَب من ذلك. وقوله: (**عَمْيَاءُ مَجْهُولَةٌ، وَضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ**): تعديد الأوصاف واستخدام اسم المفعول؛ لتأكيد الخطر والتحذير منه. وقوله: (**فَأَقِمِ الْحُدُودَ**) بعد أن بيَّن خطورة الأمر ونبَّه على أهميته بدأ في النَّصائح والإرشادات التي تساعد على تجنبه، وأولها: إقامة الحدود، وعرَّف الحدود بـ (**أل**) التي العهد؛ لأنها معروفة ومعلومة للمخاطَب. وقوله: (**وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ**): تنكير (**ساعة**)، و(**نهار**): للتقليل، وفيه حث على الحرص على أقل ما يمكن تطبيقه من الحدود. وقوله: (**وَإِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرَانِ**): جملة شرطية غرضها النَّصح والإرشاد، وتقديم شبه الجملة (**لك**) للتخصيص. وقوله: (**فَآثِرْ**): جملة طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**نَصِيبَكَ**): الإضافة إلى ضمير المخاطب؛ لبيان الارتباط الوثيق للحث على اختيار ما يرضي الله والإيمان بالقضاء والقدر. وقوله: (**فإِنَّ الدُّنْيَا تَنْفَدُ وَالْآخِرَةَ تَبْقَى**): تعليل وتفسير للنصيحة السابقة. وقوله: (**وَأَخِفِ الْفُسَّاقَ**): فيه حث على تحقيق هيبة الدولة ونشر الحق بتخويف الفساق دون الحاجة إلى عقابهم. وقوله: (**يَداً يَداً وَرِجْلاً رِجْلاً**): أمر بالتفريق بين الفساق، والحرص على عدم اجتماعهم؛ حتى لا يدبروا الشر والمكائد ضد الدولة. وقوله: (**عُدْ مَرِيضَ الْمُسْلِمِينَ**): تتوالى نصائح عمر فيما يشبه الوصية العامة غير المخصصة

لأبي موسى وحده، وإضافة (**مريض**) إلى (**المسلمين**)؛ للحث على عيادته، والتذكير برابطة الأخوة في الدين. وقوله: (**وَاحْضَرْ**)، و(**افْتَحْ**)، و(**بَاشِرْ**): أفعال أمر في جمل طلبية غرضها النَّصح والإرشاد. وقوله: (**فَإِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ**): أسلوب قصر غرضه التخصيص والتوكيد. وقوله: (**غَيْرَ أَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - جَعَلَكَ أَثْقَلَهُ حِمْلا**): استدراك وتذكير بالمسئولية الملقاة على عاتق الحاكم. وقوله: (**أَثْقَلَهُمْ**): أفعل تفضيل؛ لاستشعار المسئولية. وقوله: (**وَقَدْ بَلَغَنِي**): يُشعر المخاطب بأنه غير متأكد مما بلغه، ويعطيه فرصة لنفيه. وقوله: (**فَشَا**): دليل على الشيوع والانتشار. وقوله: (**لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ**): تقديم شبه الجملة والعطف للتوكيد. وقوله: (**هَيْئَةٌ**): التنكير للتعظيم والتفخيم. وقوله: (**لِبَاسِكَ وَمَطْعَمِكَ وَمَرْكَبِكَ**): فيه تعدد لمظاهر الثراء والرفاهية. وقوله: (**لَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ مِثْلُهَا**): تكرار هذا المعنى في رسائله؛ للحث على المساواة بين الحاكم والمحكوم. وقوله: (**فَإِيَّاكَ، يَا عَبْدَ اللهِ**): النداء للتنبيه والمبالغة في التحذير. وقوله: (**بِمَنْزِلَةِ الْبَهِيمَةِ**): تشبيه بليغ، يرسم فيه صورة منفرة للإنسان المنعم المرفه الذي همه الدنيا، وتعريف (**البهيمة**) للإطلاق. وقوله: (**بِوَادٍ**): تنكير (**واد**) للعموم والشمول، ووصفه بقوله: (**خَصْبٍ**) للتوضيح. وقوله: (**فَلَمْ يَكُنْ لَهَا هَمٌّ إِلا**): أسلوب قصر غرضه التخصيص، وفيه تبيين للذي يجعل همه الأول التنعم بالشهوات. وتنكير (**هَمٌّ**): للتقليل. وقوله: (**وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي السِّمَنِ**): أسلوب قصر للتخصيص. وإضافة (**حتف**) للضمير؛ للارتباط الوثيق. وقوله: (**وَاعْلَمْ**): تنبيه وتذكير. وقوله: (**إِذَا زَاغَ زَاغَتْ رَعِيَّتُهُ**): جملة شرطية تطابق مبدأ: «الجزاء من جنس العمل». وقوله: (**وَأَشْقَى النَّاس**): استعمل أفعل التفضيل لتأكيد المعنى والنصح. وقوله: (**شَقِيَتْ بِهِ**): باء الجر للسببية. وقوله: (**رَعِيَّتُهُ**): الإضافة للضمير لبيان الارتباط.

[٤٩٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ أَسْعَدَ الرُّعَاةِ مَنْ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ، وَإِنَّ أَشْقَى الرُّعَاةِ عِنْدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْتَعَ فَيَرْتَعَ عُمَّالُكَ، فَيَكُونَ مَثَلُكَ عِنْدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَثَلَ الْبَهِيمَةِ، نَظَرَتْ إِلَى خَضِرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَرَعَتْ فِيهَا تَبْتَغِي بِذَلِكَ السِّمَنَ، وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي سِمَنِهَا. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ كجزء من النصِّ السابق، وقد سبق بيان مقتضاه هناك.

البيان والبلاغة: سبق شرح أكثر عبارات هذا النصِّ في شرح النصِّ السابق، وبيان أهم ما فيه من وجوه البيان والبلاغة.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٥٨٩)، وأبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٠، والحِنَّائيُّ في «فوائدِه» (١٧٣)، وابنُ البخاريِّ في «مَشيختِه» (٤٧).

[٤٩٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«مَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ؛ كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِغَيْرِ مَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْ قَلْبِهِ شَانَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَمَا ظَنُّكَ فِي ثَوَابِ اللهِ فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ؟! وَالسَّلَامُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ كجزء من النصِّ قبل السابق، وقد سبق بيان مقتضاه هناك.

البيان والبلاغة: سبق شرح أكثر عبارات هذا النصِّ خلال شرح النصِّ قبل السابق، وقد بينا هناك أهم ما فيه من وجوه البيان والبلاغة.

١- رواهُ هنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٤٣٦، وأبو نعيمٍ في «حلية الأولياء» ١/ ٥٠.

[٤٩٦]

وَمِنْ وَصِيَّةٍ لَهُ

كَتَبَهَا قَبْلَ اسْتِشْهَادِهِ

«أَنْ لَا يُقَرَّ لِي عَامِلٌ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ، وَأَقِرُّوا الْأَشْعَرِيَّ - يَعْنِي أَبَا مُوسَى - أَرْبَعَ سِنِينَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ وصية من أمير المؤمنين ﷺ بما ينبغي سلوكه مع عماله بعد وفاته.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَنْ لَا يُقَرَّ لِي عَامِلٌ**): حِرص الفاروق على الوصية فيه اقتداء وتطبيق لسنة النبي محمد ﷺ. وقوله: (**لَا يُقَرَّ**): بناء الفعل للمجهول يدل على دقة الفاروق في التعبير وانتقاء الألفاظ والأساليب؛ فهو مشرف على الموت وهو لم يحدد للمسلمين من سيخلفه، وبالتالي فهو لا يعلم من سيطبق هذه الوصية، فبنى الفعل للمفعول؛ ليناسب الحال. وقوله: (**عَامِلٌ**): التنكير للعموم والشمول والإطلاق. وقوله: (**وَأَقِرُّوا**): استثناء من الحكم السابق، وفيه مراعاة لمصلحة الرعية، وحرص عليها حتى في أصعب اللحظات. وقوله: (**لَا يُقَرَّ ... وَأَقِرُّوا**): طباق يبرز المعنى ويقويه، وفيه - أيضا - ما يعرف باشتقاق اللفظ من اللفظ.

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (١٩٤٩٠).

[٤٩٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُؤَدِّبْ رَعِيَّتَكَ بِمِثْلِ أَنْ تَبْدَأَهُمْ بِالْغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ عَلَى أَهْلِ الرِّيبَةِ، بَعُدُوا أَوْ قَرُبُوا؛ فَإِنَّ اللِّينَ بَعْدَ الشِّدَّةِ أَمْنَعُ لِلرَّعِيَّةِ، وَأَحْشَدُ لَهَا، وَإِنَّ الصَّفْحَ بَعْدَ الْعُقُوبَةِ أَرْغَبُ لِأَهْلِ الْحَزْمِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين إلى أخيه وعامله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، يبين فيه الطريقة المثلى لردع الرعية وتأديبهم.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين رضي الله عنه كتابه بفصل الخطاب (**أمّا بعد**)؛ لينتقل به إلى المقصود، ثم أتبع ذلك بتأكيد كلامه بحرف التأكيد (**إنَّ**) بيانا لأهمية ما سيلي من الكلام، وأنه متأكد منه تمام التأكد واليقين. وقوله: (**لَمْ تُؤَدِّبْ رَعِيَّتَكَ بِمِثْلِ**): أسلوب قصر للتخصيص والتوكيد، وإضافة الرعية إلى ضمير المخاطب للارتباط. وقوله: (**أَنْ تَبْدَأَهُمْ**): عدل عن المصدر الصريح إلى المؤول؛ لما له من دلالة على الفاعل وزمن الفعل. وقوله: (**بِالْغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ**): العطف مع الترادف للتوكيد. وقوله: (**بَعُدُوا أَوْ قَرُبُوا**): بين اللفظين تضاد يبرز المعنى ويؤكده. وقوله: (**اللِّينَ بَعْدَ الشِّدَّةِ**): فيه - أيضا - تضاد يبرز المعنى ويؤكده. وقوله: (**أَمْنَعُ لِلرَّعِيَّةِ، وَأَحْشَدُ**): أفعل التفضيل، والعطف للتوكيد. قوله: (**الصَّفْحَ بَعْدَ الْعُقُوبَةِ**): فيه - كذلك - تضاد يبرز المعنى ويؤكده.

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٤.

[٤٩٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ قَيْسَارِيَّةَ[١]، فَسِرْ إِلَيْهَا، وَاسْتَنْصِرِ اللهَ عَلَيْهِمْ، وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، اللهُ رَبُّنَا وَثِقَتُنَا، وَرَجَاؤُنَا وَمَوْلَانَا، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين إلى أخيه وعامله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، يعلمه فيه بأنه قد ولَّاه إمرة قيسارية، ويأمره بالسير إليها، والحرص على أسباب النصر الحقيقية.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين رضي الله عنه كتابه - كما في الكتاب السابق وغيره - بفصل الخطاب (**أمَّا بعد**)؛ لينتقل به إلى المقصود، ثم أتبع ذلك بتأكيد كلامه بحرف التأكيد (**إنَّ**) (**وقد**) والفعل الماضي؛ بيانا لأهمية ما سيلي من الكلام، وأن الحكم قد استقر وتأكَّد تماما، فلا وجه للارتياب فيه. وقوله: (**فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**)، و(**قد**)، والفعل الماضي. وقوله: (**فَسِرْ إِلَيْهَا وَاسْتَنْصِرِ اللهَ**): جملة طلبية. وقوله: (**وَاسْتَنْصِر**): وزن استفعل يدل على طلب النَّصر بالتذلل

١- قَيْسارِيَّةُ: بلدٌ على ساحلِ بحرِ الشَّام، تُعدُّ في أعمالِ فِلَسطِينَ، بينَها وبينَ طَبَرِيَّةَ ثلاثةُ أيَّام، وكانتْ قديمًا مِن أعيانِ أُمَّهاتِ المدنِ، واسعةَ الرُّقعةِ، طيِّبةَ البُقعةِ، كثيرةَ الخيرِ والأهلِ. «معجم البلدان» ٤/ ٤٢١.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٦٠٤.

لله والدعاء. وقوله: (**وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لاحَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ** ...): دائما ما يركز الفاروق على الجانب الإيماني والعقدي في رسائله لولاته؛ حتى يذكرهم بالله، وحتى لا تنسيهم الدنيا هدفهم الأسمى.

[٤٩٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

«فَغَمِّضْ عَنِ الدُّنْيَا عَيْنَكَ، وَوَلِّ عَنْهَا قَلْبَكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُهْلِكَكَ كَمَا أَهْلَكَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ؛ فَقَدْ رَأَيْتَ مَصَارِعَهَا، وَأُخْبِرْتَ بِسُوءِ أَثَرِهَا عَلَى أَهْلِهَا، كَيْفَ عَرَى مَنْ كَسَتْ، وَجَاعَ مَنْ أَطْعَمَتْ، وَمَاتَ مَنْ أَحْيَتْ، إِنَّهَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْآخِرَةِ سِتْرٌ مِثْلَ الْخِمَارِ تُبْصِرُ مَا . . . [1] إِلَيْهَا سَلَفَكَ، وَأَنْتَ غَائِبٌ مُنْتَظِرٌ مَتَى سَفَرُهُ فِي غَيْرِ دَارِ مُقَامٍ، قَدْ نَضَبَ مَاؤُهَا، وَهَاجَتْ ثَمَرَتُهَا، فَأَحْزَمُ النَّاس الرَّاحِلُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا بِزَادٍ بَلَاغٍ»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: النصُّ كتاب من أمير المؤمنين إلى أخيه أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ينصحه فيه بالزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَغَمِّضْ عَنِ الدُّنْيَا عَيْنَكَ**): كناية عن الزهد والترفع عن الدنيا وشهواتها. وقوله: (**عَيْنَكَ**): ذكر العين مفردة للتقليل، وعدم النظر والتطلع للدنيا ولو بعين واحدة. وقوله: (**وَوَلِّ عَنْهَا**): العطف للتوكيد. وقوله: (**وَإِيَّاكَ أَنْ تُهْلِكَكَ**): أسلوب تحذير. وقوله: (**كَمَا أَهْلَكَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ**): فيه حث على الاعتبار بالسابقين. وقوله: (**فَقَدْ رَأَيْت مَصَارِعَهَا وَأُخْبِرْت بِسُوءِ أَثَرِهَا**): حثٌّ

١- بياضٌ في أصلِ الكِتابِ.
٢- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (١٠٢).

على التدبر والاعتبار بأحوال الدنيا مع من سبق. وقوله: (**كَيْفَ عَرَى مَنْ كَسَتْ**): جملة خبرية جاءت على صيغة السؤال؛ للتنبيه. وقوله: (**وَجَاعَ**)، و(**مَاتَ**): العطف للتوكيد. وقوله: (**عَرَى مَنْ كَسَتْ، وَجَاعَ مَنْ أَطْعَمَتْ، وَمَاتَ مَنْ أَحْيَتْ**): التضاد بين معاني الأفعال يوضح المعنى ويؤكده، وبين الجمل سجعٌ أعطى الكلام جرسا حلوا. وقوله: (**إِنَّمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْآخِرَةِ سِتْرٌ**): جملة خبرية مؤكدة، وفيها تقديم لشبه الجملة على خبر (**إنَّ**) للتوكيد، وتشبيه بليغ للدنيا بالستر بين العبد وآخرته. وقوله: (**وَأَنْتَ غَائِبٌ مُنْتَظِرٌ مَتَى سَفَرُهُ**): تذكير بحال الإنسان في الدنيا وعدم بقائه فيها، وفيه تشبيه بليغ للإنسان بالمسافر الذي ينتظر الرجوع. وقوله: (**فِي غَيْرِ دَارِ مُقَامٍ**): تأكيد على نفس المعنى السابق ذكره. وقوله: (**نَضَبَ مَاؤُهَا وَهَاجَتْ ثَمَرَتُهَا**): تنفير من الدنيا وتذكير بعيوبها، وبين الجملتين سجعٌ أعطى الكلام جرسا حلوا. وقوله: (**فَأَحْزَمُ النَّاس الرَّاحِلُ مِنْهَا**): أسلوب تفضيل، وتعريف (**الراحل**) للتعظيم. وقوله: (**غَيْرِهَا**): المراد بها الآخرة دار القرار، ولم يسمها للتشويق.

[٥٠٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ رضي الله عنه، وَقَدْ وَلَّاهُ عَلَى جُنْدِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه

«أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي يَبْقَى وَيَفْنَى مَا سِوَاهُ، الَّذِي هَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَخْرَجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَقَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى جُنْدِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَقُمْ بِأَمْرِهِمُ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيْكَ، لَا تُقَدِّمِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَلَكَةٍ رَجَاءَ غَنِيمَةٍ، وَلَا تُنْزِلْهُمْ مَنْزِلًا قَبْلَ أَنْ تَسْتَرِيدَهُ لَهُمْ، وَتَعْلَمَ كَيْفَ مَأْتَاهُ، وَلَا تَبْعَثْ سَرِيَّةً إِلَّا فِي كَثْفٍ مِنَ النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَإِلْقَاءَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْهَلَكَةِ، وَقَدْ أَبْلَاكَ اللهُ بِي وَأَبْلَانِي بِكَ، فَغَمِّضْ بَصَرَكَ عَنِ الدُّنْيَا، وَأَلْهِ قَلْبَكَ عَنْهَا، وَإِيَّاكَ أَنْ تُهْلِكَكَ كَمَا أَهْلَكَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَقَدْ رَأَيْتَ مَصَارِعَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**تَسْتَرِيْدُه**): من راد المكان إذا طلبه، فهو رائد. والمعنى: لا تنزل الناس منزلا قبل أن تطلع عليه.

مقتضى الحال: ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن هذا الكتاب كان أول كتاب كتبه عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة حين ولاه على الجند، بعد عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي يَبْقَى وَيَفْنَى مَا سِوَاهُ، الَّذِي هَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَخْرَجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**): في قوله: (**أوصيك**): جاء

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٣٤، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٣٦، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٢٦٨، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٥٧٦.

الفعل بصيغة المضارع؛ للدلالة على أنه مستمر على هذا الفعل، وأطنب في ذكر صفات الله - تعالى -؛ تلذذا بذكره وتشويقا لأبي عبيدة. واستعمل الاسم الموصول (**الذي**) في الموضعين؛ للوصف بما تضمَّنته جملة الصلة. وبين (**يبقى**)، و(**يفنى**): طباق، وكذا بين (**هدانا**)، و(**الضلالة**)، وبين (**الظلمات**)، و(**النور**)، وفائدة هذا الطباق حمل المخاطب على تصوُّر هذه المعاني، والمقابلة بينها؛ لاستشعار عظمة الله - تعالى - وفضله. ومجيء الفعلين (**هدانا**)، و(**أخرجنا**) بصيغة الماضي فيه إشارة إلى أن مدلولهما قد حدث وثبت واستقرَّ. وجملة: (**أخرجنا من الظلمات إلى النور**): مقتبسة من قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. وفي ابتداء عمر رضي الله عنه كلامه بهذه الافتتاحية براعة استهلال؛ فقوله: (**يبقى ويفنى ما سواه**) فيه مناسبة لعزل خالد وتولية أبي عبيدة، فكل ما سوى الله - تعالى - يفنى ويزول ويطرأ عليه التغيير والتبديل. وفي قوله: (**الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور**): تذكير بفضل الله - تعالى -، وهذا يستلزم شكره والخضوع لأمره والسعي لنشر دينه، وخروج أبي عبيدة ومَن معه للفتوح داخل في الخضوع لأمر الله والسعي لنشر دينه. وقوله: (**وَقَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى جُنْدِ خالد بن الْوَلِيدِ، فَقُمْ بِأَمْرِهِمُ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيْكَ، لا تُقَدِّمِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَلَكَةٍ رَجَاءَ غَنِيمَةٍ، وَلا تُنْزِلْهُمْ مَنْزِلاً قَبْلَ أَنْ تَسْتَرِيدَهُ لَهُمْ، وَتَعْلَمَ كَيْفَ مَأْتَاهُ، وَلا تَبْعَثْ سَرِيَّةً إِلا فِي كَثْفٍ مِنَ النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَإِلْقَاءَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْهَلَكَةِ**): قوله: (**قد استعملتك**): مجيء الفعل بصيغة الماضي، ودخول (**قد**) عليه يفيد أن الأمر قد ثبت وانقضى. وقوله: (**قم بأمرهم الذي يحقُّ عليك**): استعمل الاسم الموصول (**الذي**) للتعيين. وقوله: (**لا تقدِّم المسلمين لهلكة رجاء غنيمة**): تنكير (**هلكة**) للتعظيم، وتنكير (**غنيمة**) للتحقير. وقوله: (**لا تنزلهم منزلًا قبل أن تستريده لهم**): تنكير

(**منزلا**) في سياق النهي يفيد العموم، وتقييد الفعل (**تستريد**) بالجارِّ والمجرور (**لهم**)؛ لبيان الرعاية والاهتمام بالمجرور. وقوله: (**وتعلم كيف مأتاه**): استعمل المصدر الميمي (**مأتى**) للمبالغة. وقوله: (**ولا تعبث سرية إلا في كثف من الناس**): القصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: (**وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة**): هذه الجملة تذييل تؤكِّد منطوق جملة: (**لا تقدِّم المسلمين لهلكة رجاء غنيمة**)، وتؤكِّد مفهوم الجمل التي بعد هذه الجملة، وقد ساقها بأسلوب التحذير؛ لتقرير وتأكيد أهمية الحفاظ على جيش المسلمين وعدم التفريط في رعايتهم. وقوله: (**وَقَدْ أَبْلاكَ اللهُ بِي وَأَبْلانِي بِكَ، فَغَمِّضْ بَصَرَكَ عَنِ الدُّنْيَا، وَأَلْهِ قَلْبَكَ عَنْهَا**): استعمل أسلوب العكس المعنوي بين (**أبلاك الله بي**) و(**أبلاني بك**)؛ لحمل المخاطب على التسليم للأمر. وفي قوله: (**فغمِّض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها**): استعارة بتشبيه الدنيا بامرأة حسناء تفتن مَن نظر إليها، فينبغي غضُّ البصر عنها والانشغال بغيرها. وفي قوله: (**فغمِّض بصرك**) ترشيح للاستعارة. وقوله: (**وَإِيَّاكَ أَنْ تَهْلِكَك كَمَا أَهْلَكَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَقَدْ رَأَيْتَ مَصَارِعَهُمْ**): في هذا الكلام حسن ختام؛ وذلك بأمر المخاطب من خلال التلويح والرمز أن يتدبَّر القرآن وينظر كيف كان عاقبة الأمم التي خالفت أمر الله؛ ليعتبر بها.

[٥٠١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ
إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

«أَنْ عَلِّمُوا غِلْمَانَكُمُ الْعَوْمَ، وَمُقَاتِلَتَكُمُ الرَّمْيَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب واليه على الشام أبا عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يأمره بتعليم الغلمان السباحة وتعليم المقاتلة الرمي.

لطائف لغوية: قوله: (**غِلمانكم**): قال ابن سيده: الغلام الطار الشارب، وقيل: هو من حين يولد إلى أن يشيب، والجمع: أَغْلِمَة وغِلْمَة وغِلْمان. وأمَّا (**الصبيُّ**)؛ فهو: من لَدُن يولد إلى أن يفطم، والجمع: أصبِيَة وصِبْوَة وصِبْيَة وصَبْيَة وصِبْوان وصُبْوان وصِبيان. ورُبَّما أطلق أحدهما على الآخر.

البيان والبلاغة: قوله: (**علِّموا**): وجَّه الأمر لأبي عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأسند الفعل إلى ضمير الجمع إشارة إلى أنَّ الأمر لا يقتصر عليه، بل هو لمن تحت ولايته في الشام أيضا. وأضاف (**غلمان**) و(**مقاتِلة**) إلى ضمير المخاطبين؛ تذكيرا لهم بمسؤوليَّتهم عن أولئك، وليكونوا أحرص على تنفيذ الأمر. وقوله: (**ومقاتلتكم الرمي**): لم يُعِد الأمر (**علِّموا**) واكتفى بعطف هذين المعمولين على معمولَي (**علِّموا**) السَّابق؛ ليشعرهم بأنَّ الأمر واحد فلا ينبغي لهم الأخذ ببعضه وترك بعض. وعلى ذلك،

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٢٣)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٤٥٥)، و«المُنتقَى» لابنِ الجارودِ (٩٦٤).

ففي الجملة إيجازٌ واضح، والتقدير: وعلموا مقاتلتكم الرمي. وقد استعمل عمر ﵁ هنا أسلوب التقسيم؛ فقسَّم الذكور إلى غلمان ومقاتلة، وبيَّن ما ينبغي لكل قسم منهما، وبدأ بذكر ما للغلمان؛ للرعاية والاهتمام؛ إذ سيصيرون فيما بعدُ مقاتلةً.

[٥٠٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ الَّذِي يَبْدَأُ بِهِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَابْدَؤُوا بِدِمَشْقَ، فَانْهَدُوا لَهَا، فَإِنَّهَا حِصْنُ الشَّامِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ، وَاشْغَلُوا عَنْكُمْ أَهْلَ فِحْلَ[1] بِخَيْلٍ تَكُونُ بِإِزَائِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ، وَأَهْلَ فِلَسْطِينَ، وَأَهْلَ حِمْصَ، فَإِنْ فَتَحَهَا اللهُ قَبْلَ دِمَشْقَ؛ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَأَخَّرَ فَتْحُهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ دِمَشْقَ؛ فَلْيَنْزِلْ بِدِمَشْقَ مَنْ يُمْسِكُ بِهَا، وَدَعُوهَا، وَانْطَلِقْ أَنْتَ وَسَائِرُ الْأُمَرَاءِ حَتَّى تُغِيرُوا عَلَى فِحْلَ، فَإِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ؛ فَانْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدٌ إِلَى حِمْصَ، وَدَعْ شُرَحْبِيلَ وَعَمْرًا، وَأَخْلِهِمَا بِالْأُرْدُنِّ[2] وَفِلَسْطِينَ، وَأَمِيرُ كُلِّ بَلَدٍ وَجُنْدٍ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ إِمَارَتِهِ»[3].

١- فِحْلٌ: بكسرِ أوَّلِه، وسكونِ ثانيه، وآخرُه لامٌ: اسمُ مَوضِعٍ بالشَّامِ، كانتْ فيهِ وقعةٌ للمسلمينَ معَ الرُّومِ، ويومُ فِحْلٍ مذكورٌ في الفتوحِ، وأظنُّه عجميًّا، لم أرهُ في كلامِ العربِ، قُتِل فيه ثمانون ألفًا مِن الرُّومِ، وكانَ بعدَ فتحِ دمشقَ في عامٍ واحدٍ. «معجم البلدان» ٤/ ٢٣٧.

٢- الأُرْدُنُّ: بضمِّ الهمزةِ، وسكونِ الرَّاء، وضمِّ الدَّالِ المهمَلةِ، وآخرُه نونٌ مُشدَّدةٌ، ولا يُنطَقُ إلَّا مُعرَّفًا بالألفِ واللَّام. والأُرْدُنُّ في ذاكَ الزَّمانِ كانَ إقليمًا كبيرًا مِن بلادِ الشَّامِ، يمتدُّ مِن البحرِ الميِّتِ جنوبًا إلى صُورَ مِن لبنانَ شمالًا، ويصلُ إلى البحرِ الأبيضِ غربًا، ويشملُ مِن الشَّرقِ إقليمَ البلقاءِ حيثُ كانتْ جُرَشُ قصبةَ تلك الكورةِ. «معجم المعالم الجغرافيَّة» ص٢٢-٢٣.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٣٧-٤٣٨، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢/ ١٢٨، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٤٣، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٢٦٩، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٥٧٧.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**انهَدُوا**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «المناهدة في الحرب: المناهضة. وفي المحكم: المُناهَدة في الحرب: أن ينْهَد بعض إلى بعض، وهو في معنى نَهَض، إلا أن النهوض: قيام عن قعود، والنهود: نهوض على كل حال. ونَهَد إلى العدو ينهَد، بالفتح: نهض. أبو عبيد: نهد القوم لعدوهم: إذا صمدوا له وشرعوا في قتاله». و(**فِحل**): اسم موضع بالشام.

مقتضى الحال: يخاطب عمر بن الخطاب أبا عبيدة رضي الله عنهما قائدَ جيوش فتح الشام، يجيبه عن سؤاله بخصوص أي المناطق يبدأ بها.

لطائف لغوية: في قوله: (**وَانْطَلِقْ أَنْتَ وَسَائِرُ الأُمَرَاءِ**)، وقوله: (**فَانْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدٌ**): عطف الاسم الظاهر على ضمير الرفع المستتر في (**انطلق**)، و(**انصرف**)؛ لذا فصل بالضمير المنفصل (**أنت**)، وفي هذا يقول ابن مالك:

وإن على ضـمـيرِ رفـعٍ متَّـصـل عطفتَ فافصـل بالضمير المنفصل

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ، فَابْدَؤُوا بِدِمَشْقَ، فَانْهَدُوا لَهَا، فَإِنَّهَا حِصْنُ الشَّامِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ**): بدأ بعد فصل الخطاب بـ (**أمَّا بعد**) بذكر الجواب مباشرة؛ مراعاةً للمقام؛ إذ الأمر يتطلَّب الاستعجال في الردِّ، وعلَّل الجواب بقوله: (**فإنَّها حصن حصين**) معَ أنَّ المقام مقام إيجاز؛ وذلك ليبيِّن لهم أنَّ اختيار البدء بدمشق ليس عبثا، ولينبِّه قائد الجيش كيف يتصرَّف. وقوله: (**وَأَشْغِلُوا عَنْكُمْ أَهْلَ فِحْلَ بِخَيْلٍ تَكُونُ بِإِزَائِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ، وَأَهْلَ فِلَسْطِينَ وَأَهْلَ حِمْصَ**): هنا رجع إلى الإيجاز الذي يتطلَّبه المقام، فقال: (**وأهلَ فلسطين وأهل حمص**): فحذفَ، والتقدير: وأشغلوا

عنكم أهل فلسطين بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، وأشغلوا عنكم أهل حمص بخيل تكون بإزائهم في نحورهم. وقوله: (**في نحورهم**): تتميم يفيد تعيين موقعهم من العدوِّ، وكذا يفيد طلب الاستعداد لهم. وقوله: (**فَإِنْ فَتَحَهَا اللهُ قَبْلَ دِمَشْقَ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَأَخَّرَ فَتْحُهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ دِمَشْقَ فَلْيَنْزِلْ بِدِمَشْقَ مَنْ يُمْسِكُ بِهَا، وَدَعُوهَا**): استعمل هنا أسلوب التقسيم الحاصر، فدمشق إمَّا أن تُفتَح وإمَّا أن يتأخَّر فتحها، ولم يذكر أنَّها لن تُفتَح؛ لأنَّ الله - تعالى - وعد على لسان رسوله ﷺ بفتح الشام فلا شكَّ في ذلك. وقوله: (**فذاك الذي نحبُّ**): استعمل اسم الإشارة؛ لبيان علوِّ شأن المشار إليه، وأخبر عنه بالاسم الموصول بقصد وصفه بما تضمَّنته صلة الموصول. وحين قابل عمر رضي الله عنه بين (**إن فتحها الله قبل دمشق**) و(**وإن تأخَّر فتحها**) تأدَّب مع الله أيّما أدب، فذكر اسمه في الحال التي يحبها فأسند (**فتحها**) إليه جلَّ وعلا، وحين ذكر الحال الأخرى، وهي تأخُّر فتح تلك المناطق عدل عن إسناد ذلك إلى الله فلم يقل: (وإن أخَّر الله فتحها). وقوله: (**فلينزل بدمشق من يمسك بها**): الاسم الموصول (**من**) يفيد العموم فيصلح لذلك الفعل كل أحد يتَّصف بصلة الموصول (**يمسك بها**). وقوله: (**وَانْطَلِقْ أَنْتَ وَسَائِرُ الأُمَرَاءِ حَتَّى تُغِيرُوا عَلَى فِحْلَ**): عطف (**سائر الأمراء**) على ضمير المخاطب (**أنت**)؛ ليشير إلى أنَّهم تبعٌ له. وقوله: (**فَإِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَانْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدُ إِلَى حِمْصَ**): حذف مفعول (**فتح**)؛ لكمال علم المخاطب به. وقوله: (**وَدَعْ شُرَحْبِيلَ وَعَمْرا وَأَخْلِهِمَا بِالأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ**): استعمل عمر رضي الله عنه هنا أسلوب اللف والنشر المرتَّب، فجمع بين شرحبيل وعمرو بجيشَيهما في أن يتركهما أبو عبيدة ولا يكونا معه لفتح حمص. ثمَّ ذكر له ما يأمر به كلَّ واحد منهما، وهو أن يذهب شرحبيل وجيشه إلى الأردن ويذهب عمرو وجيشه إلى فلسطين، ولم يعيِّن عمر ما لكلِّ واحد منهما اعتمادا على

فهم أبي عبيدة. وقوله: (**وَأَمِيرُ كُلِّ بَلَدٍ وَجُنْدٍ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ إِمَارَتِهِ**): ختم عمر ﷺ كتابه بهذه الجملة الموجزة إيجاز قِصَر، ومفادها أنَّ كلَّ أمير جندٍ هو أمير البلد التي وُجِّه إليها بعد فتحها حتى تُجمع كلُّ تلك البلاد المفتوحة تحت ولاية واحدة. وتقدير كلامه: وأمير كل بلدٍ وُجِّه إليها وجند تحت إمرته هو أميرٌ على الناس الذين يسكنون تلك البلاد بعد أن تُفتح، حتى يخرجوا من إمارته حين يولَّى عليهم غيره. وتأمَّل هذا الكتاب تجد أنَّ عمر ﷺ لم يكتفِ بالجواب عن سؤال أبي عبيدة في أي المناطق يبدأ أوَّلا، بل زاد له بيان ما يحتاج إليه، وهذا ما يعرف بـ «جواب الحكيم».

[٥٠٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ

«يَا سَعْدُ، سَعْدَ بَنِي أُهَيْبٍ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا؛ حَبَّبَهُ إِلَى خَلْقِهِ، فَاعْرِفْ مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – بِمَنْزِلَتِكَ مِنَ النَّاسِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا لَكَ عِنْدَ اللهِ مِثْلُ مَا للهِ عِنْدَكَ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب سعدَ بنَ أبي وقَّاص رضي الله عنه قائدَ جيشه في فتح القادسية؛ ناصحًا له ومبينا كيف يعرف مقامه عند الله – تعالى –.

لطائف لغوية: قوله: (**يا سعدُ سعدَ بني أُهَيبٍ**) كرَّر المنادى، فالأوَّل يجوز فيه الفتح والضم، والثاني بالنصب فقط، وفي ذلك يقول ابن مالك:

في نحوِ سعدُ سعدَ الأوسِ ينتصب ثانٍ، وضُم وافتح أوّلا تُصِب

البيان والبلاغة: بدأ بنداء المخاطب وكرَّر اسمه؛ تأكيدا وتحبُّبا، وليُشعره بأنَّه يخصُّه بمضمون هذا الكتاب، وليكونَ أحرص على امتثال ما فيه. وقوله: (**إنَّ اللهَ – تعَالَى – إِذَا أَحَبَّ عَبْدا حَبَّبَهُ إِلَى خَلْقِهِ**): استعمل أداة الشرط (**إذا**) إشارةً إلى تحقق وقوع الجواب، وقرَّر ذلك حين جاء بالجواب (**حبَّبه**) فعلا ماضيا. وتنكير (**عبدا**) في سياق الشرط يفيد العموم، فكل عبد أحبَّه الله – تعالى – حبَّبه إلى خلقه. وقوله:

١- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ١/ ٢١٨، وابنُ عبدِ ربِّه في «العقدِ الفريد» ١/ ١٦٣، والماورديُّ في «أدبِ الدُّنيا والدِّين» ١/ ١٣٧.

(فَاعْرِفْ مَنْزِلَتَك مِنْ الله - تَعَالَى - بِمَنْزِلَتِك مِنْ النَّاسِ): هنا أعاد تقرير ما ذكره قبلُ، وكأنَّه يقول: **(اعرف محبَّة الله لك بمحبَّةِ الناس لك)**، لكنَّه عبَّر عن المحبَّة بالمنزلة؛ ليشير إلى أنَّ المحبَّة درجات ومنازل، وليست على منزلة واحدة، والغرض من ذلك ترغيب المخاطب في السعي إلى نيل أعلى المنازل. وقوله: **(وَاعْلَمْ أَنَّ مَا لَك عِنْدَ الله مِثْلُ مَا لله عِنْدَك)**: استعمل هنا الفعل **(اعلم)** بعد أن استعمل قبلُ الفعل **(اعرف)**؛ لأنَّه أراد هنا معنى التيقُّن، واستعمل الاسم الموصول **(ما)** في الموضعين لإرادة العموم، واستعمل أداة التشبيه **(مثل)** لإفادة تمام المشابهة.

[٥٠٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَقَدْ بَلَغَهُ دُخُولُ سَعْدٍ مَدَائِنَ كِسْرَى

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي بِتَقْوَاهُ سَعِدَ مَنْ سَعِدَ، وَبِتَرْكِهَا شَقِيَ مَنْ شَقِيَ، ثُمَّ قَدْ عَرَفْتَ بَلَاءَ اللهِ عِنْدَنَا أَيُّهَا الرَّهْطُ؛ إِذِ اسْتَنْقَذَنَا مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَأَخْرَجَنَا مِنْ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ، وَهَدَانَا مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، وَعَرَفْتَ مَخْرَجَنَا مِنْ عِنْدِهِمْ، وَخَرَجْنَا، زَادُ الرَّهْطِ عَلَى بَعِيرٍ، مَنْ بَلَغَ مِنَّا مَأْمَنَهُ بَلَغَ مَجْهُودًا، وَمَنْ أَقَامَ بِأَرْضِهِ أَقَامَ مَفْتُونًا فِي دِينِهِ، مُعَذَّبًا فِي بَدَنِهِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا عَلَى تِلْكَ مِنْ حَالِنَا يُقْسِمُ: «**لَتَأْخُذُنَّ كُنُوزَ قَيْصَرَ وَكِسْرَى**». فَنَافَقَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ مُنَافِقُونَ، فَأَبْقَاكَ اللهُ حَتَّى رَأَيْتَ ذَلِكَ بِعَيْنِكَ، وَوَلِيتَهُ بِنَفْسِكَ، وَأَرَانَاهُ مَعَكَ، فَأَعْرِضْ عَنْ زَهْرَةِ مَا أَنْتَ فِيهِ؛ حَتَّى تَلْقَى[١] الْمَاضِينَ[٢] الَّذِينَ دَفَقُوا[٣] فِي شِمَالِهِمْ، لَاصِقَةً بُطُونُهُمْ بِظُهُورِهِمْ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ، لَمْ تَفْتِنْهُمُ الدُّنْيَا وَلَمْ يَفْتَتِنُوا بِهَا، أَسْرَعُوا فَلَمْ يَنْشَبُوا أَنْ لَحِقُوا»[٤].

١- الحُمَّاضُ: نبتٌ جبليٌّ، وهو مِن عُشْبِ الرَّبيعِ، وورقُه عِظامٌ ضخامٌ فُطْحٌ، إلَّا أنَّه شديدُ الحَمْضِ يأكلُه النَّاس، وزَهرُه أحمرُ، وورقُه أخضرُ مُشرَبٌ حُمْرةً، كأنَّ نصفَ لونِه أحمرُ ونصفَه أخضرُ، ويَتَناوَسُ في ثَمرِه مِثلَ حَبِّ الرُّمَّانِ، يأكلُهُ النَّاس شيئًا قليلًا، واحدتُه حُمَّاضةٌ. «المحكم» لابن سيده ٣/ ١٣٨.

٢- في الأصل: (الماضيين)، وهو تصحيفٌ، والصَّحيحُ ما أثبتُّه.

٣- دَفَقَ: الدَّالُ والفاءُ والقافُ أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ قياسُهُ، وهو دَفْعُ الشَّيءِ قُدُمًا. «مقاييس اللُّغة» ٢/ ٢٨٦.

٤- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (٥٤).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الرَّهْطُ**): ما معنى الرَّهط وما الفرق بينه وبين النَّفر؟ جاء في الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ما ملخصه: «الرهط: الجماعةُ نحو العشرة يرجعون إلى أب واحد. وسُمُّوا رهطًا تشبيها بالرَّهط الذي هو: قطعةٌ شقِّقَت سيورا ولم تقطع أطرافها، مثل: الشِّراك، فتكون فروعها شتى وأصلها واحد. وأمَّا النَّفر؛ فهم: الجماعة نحو العشرة من الرجال خاصة، ينفرون لقتال وما أشبهه ومنه قوله - عز وجل -: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]، ثم كثر حتى سُموا نفرا، وإن لم ينفروا». و(**دَفَقُوا**): تقدَّموا ودفعوا إلى الإمام. و(**يَنْشَبُوا**): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية: «ولم ينشب أن فعل كذا: أي لم يلبث. وحقيقته: لم يتعلق بشيء غيره، ولا اشتغل بسواه».

مقتضى الحال: يخاطب سعدَ بن أبي وقَّاص ﷺ أحدَ قادة جيوش فتح العراق، بعد أن دخل مدائن كسرى.

لطائف لغوية: (**أيُّها**) في قوله: (**أيُّها الرهط**): في محلِّ نصب على الاختصاص. وجملة (**زاد الرهط على بعير**): جملة حالية وصاحب الحال هو ضمير الفاعل في (**خرجنا**)، والرابط بين جملة الحال وصاحبها ضمير مقدَّر، أي: زاد الرَّهط منَّا على بعير. والغرض من هذه الجملة بيان الحال التي كانوا عليها من الفقر حين خرجوا من مكَّة.

البيان والبلاغة: قوله: (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**): هذه

الافتتاحية فيها نوع إطناب إذا ما قورنت بافتتاحيات الكتب التي أرسلها عمرُ لِسعدٍ رضي الله عنهما قبل خوض المعركة؛ وذلك أنَّ الأمر بعد النصر قد استقرَّ فساغ الإطناب في الكلام. وتنكير (**سلام**) للتعظيم، واستعمال الفعل (**أحمدُ**) بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار. وقوله: (**أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله الَّذِي بِتَقْوَاهُ سَعِدَ مَنْ سَعِدَ، وَبِتَرْكِهَا شَقِيَ مَنْ شَقِيَ**): استعمل الفعل (**أوصيك**) بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والدوام. وبين (**بتقواه سعِدَ من سعِد**) و(**بتركها شقي من شقي**): مقابلة. واستعمال الاسم الموصول (**من**) في الموضعين يفيد العموم. وقوله: (**ثُمَّ قَدْ عَرَفْتَ بَلَاءَ الله عِنْدَنَا أَيُّهَا الرَّهْطُ؛ إِذْ اسْتَنْقَذَنَا مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَأَخْرَجَنَا مِنْ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ، وَهَدَانَا مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، وَعَرَفْتَ مَخْرَجَنَا مِنْ عِنْدِهِمْ، وَخَرَجْنَا زَادُ الرَّهْطِ عَلَى بَعِيرٍ، مَنْ بَلَغَ مِنَّا مَأْمَنَهُ بَلَغَ مَجْهُودا، وَمَنْ أَقَامَ بِأَرْضِهِ أَقَامَ مَفْتُونا فِي دِينِهِ مُعَذَّبا فِي بَدَنِهِ**): هنا أطنب مرة أخرى في بيان فضل الله - تعالى - عليهم بالإسلام وإنقاذهم من الشرك، وفي ذكر الحال التي كان عليها المسلمون أوَّلَ أمرهم من الضعف، مع أنَّ المقام مقام فرح بالنصر؛ ليذكِّره بنعمة الله عليهم، وليدفع العُجب الذي قد يقع لهم بعد النصر. وقوله: (**أيُّها الرَّهط**): استعمل أسلوب الاختصاص؛ ليخص المسلمين الأوائل بالحكم. وقد عبَّر عنهم بلفظ (**الرَّهط**)، فـ (**أل**) هنا للعهد الذهني، والتعبير عنهم بلفظ (**الرَّهط**) إشارة إلى قلَّتهم. وقوله: (**وأخرجنا من عبادة أصنامهم**): استعمال الفعل (**أخرجنا**) فيه دلالة على أنَّهم كانوا منغمسين في عبادة الأصنام. وفي قوله: (**عبادة أصنامهم**): أضاف الأصنام إلى الضمير العائد على المشركين إشارة إلى أنَّ هذه الأصنام ابتدعوها من عند أنفسهم فهي خاصَّة بهم. وقوله: (**وخرجنا زاد الرهط على بعير**): (**أل**) في (**الرهط**) تحتمل أن تكون للعهد الذكري لإرادة الرهط الذي سبق ذكرهم، وإمَّا إن تكون للعهد الذهني لإرادة

ما هو متعارف عليه في الذهن من مفهوم الرهط، وفي الاحتمال الأوَّل مبالغة في بيان قلَّة ما عندهم من طعام؛ إذ لازم هذا الاحتمال أن يكون كلُّ المسلمين الذين خرجوا من مكَّة لهم من الطعام حمل بعير واحد. وتنكير (**بعير**) يراد به الإفراد. وقد استعمل أسلوب التقسيم في قوله: (**من بلغ منَّا مأمنه بلغ مجهودا، ومن أقام بأرضه أقام مفتونا في دينه معذّبا في بدنه**)؛ ليبيِّن أنَّ المسلمين قبل الهجرة كانوا على قسمين لا ثالث لهما، قسم خرج وهاجر من بلده فارًّا بدينه بمشقَّة وجهد وعناء، وقسم لم يهاجر وبقي معرَّضا للأذى والعذاب من قِبَل المشركين. وقوله: (**وَمُحَمَّدٌ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا عَلَى تِلْكَ مِنْ حَالِنَا يُقْسِمُ: «لَتَأْخُذُنَّ كُنُوزَ قَيْصَرَ وَكِسْرَى»، فَنَافَقَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ مُنَافِقُونَ**): هنا ذكر النبيَّ ﷺ باسمه صريحا ليبين أنَّه في ذلك الوقت قد كذَّب برسالته منافقون. وقوله: (**فنافق**) بمعنى: فكذَّب، ولكنَّه عدل إلى التعبير بالنفاق لأنَّه حقيقة مَن كذَّب بكلام النبي ﷺ. وفي قوله: (**فنافق في ذلك منافقون**) استعمل اسم الإشارة لتعيين المشار إليه، ولم يعيِّن المنافقين تنزُّها عن ذكر أسمائهم، فأَبْهَم وقال: (**منافقون**). وقوله: (**فَأَبْقَاكَ اللهُ حَتَّى رَأَيْتَ ذَلِكَ بِعَيْنِكَ وَوَلِيتَهُ بِنَفْسِكَ، وَأَرَانَاهُ مَعَكَ**): قوله: (**ذلك**) استعمل اسم الإشارة لطلب استحضار صورة المشار إليه في ذهن المخاطب. وقوله: (**بعينك**) احتراس، فائدته دفع توهُّم أن يكون معنى (رأيت): علمتَ، فيكون الفعل قلبيًّا، بل هو: (رأى) البصَرية. وقوله: (**وأراناه معك**): الفعل (أرى) هنا بصري أيضا لا قلبي، وعمر ومَن معه في المدينة لم يروا بأعينهم فتح مدائن كسرى، وإنما رأوا أثر ذلك من الأسرى والغنائم. وقوله: (**فَأَعْرِضْ عَنْ زَهْرَةِ مَا أَنْتَ فِيهِ حَتَّى تَلْقَى الْمَاضِينَ الَّذِينَ دَفَقُوا فِي شِمَالِهِمْ، لَاصِقَةٌ بُطُونُهُمْ بِظُهُورِهِمْ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ، لَمْ تَفْتِنْهُمُ الدُّنْيَا وَلَمْ يَفْتَتِنُوا بِهَا، أَسْرَعُوا فَلَمْ يَنْشَبُوا أَنْ لَحِقُوا**): في قوله: (**ما أنت فيه**) استعمل الاسم الموصول

(ما) لإفادة العموم، فيشمل كلَّ متاع الدنيا. وقد وصف الماضين بجُمل عدَّة، وهي: **(الذين دفقوا في شمالهم)**، و**(لاصقة بطونهم بظهورهم)**، و**(ليس بينهم بين الله حجاب)**، و**(لم تفتنهم الدنيا ولم يفتتنوا بها)**، و**(أسرعوا فلم ينشبوا أن لحقوا)**، وهذه الجمل لم يصل بينها بالعطف بالواو، بل عمد إلى القطع ليكون كلُّ وصف قائما بذاته.

[٥٠٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى الْقُضَاةِ مَعَ أَوَّلِ قِيَامِهِ

«لَا تَبُتُّوا الْقَضَاءَ إِلَّا عَنْ مَلَإٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ رَأْيَ الْوَاحِدِ يَقْصُرُ، وَمَنْ لَزِمَهُ الْقَضَاءُ فَلْيَصْبِرْ وَلْيَحْتَسِبْ، وَلَا تَحْمِلُوا عَلَى حُكَّامِكُمْ مَا جَرَّ عَلَيْكُمْ شُهُودُكُمْ؛ فَإِنَّ الْحَاكِمَ يَحْكُمُ عَلَى مَا يَسْمَعُ، أَوْ يُشْهَدُ بِهِ عِنْدَهُ، وَاللهُ حَسِيبٌ لِلشَّاهِدِ وَالآخِذِ لِغَيْرِ الْحَقِّ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (تَبُتُّوا): البتُّ هو القطعُ، والمقصود: لا تقطعوا وتصدروا أحكام القضاء إلا بالقيد المذكور.

مقتضى الحال: يخاطب القضاة الذين عيَّنهم، يبيِّن لهم كيف يقضون بين الناس، ويرشد الناس الذين يحتكمون إلى القضاء.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٦، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٣٦، واللَّفظُ للبلاذريِّ.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا تَبُتُّوا الْقَضَاءَ إِلا عَنْ مَلأٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**): القصر هنا حقيقي تحقيقي؛ لأنَّه أمر إلزام. وقوله: (**إلا عن ملأٍ من المسلمين**): فيه إيجاز حذف، والتقدير: إلَّا أن يصدر عن استشارة وشهادة ملأٍ من المسلمين؛ لذا استعمل حرف الجر (**عن**). وقوله: (**فَإِنَّ رَأْيَ الْوَاحِدِ يَقْصُرُ**): فيه إيجاز حذف أيضا، والتقدير: يقصر عن بلوغ الصواب والحق. وقوله: (**وَمَنْ لَزِمَهُ الْقَضَاءُ فَلْيَصْبِرْ وَلْيَحْتَسِبْ**): هنا انتقل عمر رضي الله عنه إلى نصح المحكومين ومن وقع عليهم القضاء بعد أن نصح القضاة. وقوله: (**من**) تحتمل أن تكون موصولة وأن تكون شرطية، وعلى كلا الحالين تفيد العموم، فالحكم عام لكل من لزمه القضاء. وعبارة (**فليصبر وليحتسب**): تقال لمن وقعت له مصيبة، كما جاء في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت بنت النبي صلى الله عليه وسلم إليه أنَّ ابنا لي قُبِضَ فأتِنا، فأرسل يُقرئ السلام، ويقول: «**إنَّ لله ما أخذَ، ولهُ ما أعطى، وكلُّ شيءٍ عندَ الله بأجل مسمَّى، فلْتَصبرْ ولْتحتِسبْ**»[1]، وهنا استعمل عمر رضي الله عنه هذه العبارة؛ تحسُّباً لوقوع ما لا يرضى به المحكوم عليه فيكون كالمصيبة عليه. وقوله: (**وَلا تَحْمِلُوا عَلَى حُكَّامِكُمْ مَا جَرَّ عَلَيْكُمْ شُهُودُكُمْ**): أضاف الحكَّام والشهود إلى ضمير المخاطبين إشارة لهم إلى أنَّ الحكَّام والشهود منهم، فجدير بالحاكم أن يتحرَّى في الحكم، وجدير بالشاهد أن يتحرَّى في الشهادة. وقوله: (**وَاللهُ حَسِيبٌ لِلشَّاهِدِ وَالآخِذِ لِغَيْرِ الْحَقِّ**): ختم كلامه بهذه الجملة؛ ليُطمئن المحكوم عليه بأنَّ الحقَّ لا يضيع عند الله - تعالى -، وبدأ بذكر الشاهد توعُّدا؛ لأنَّ الآخذ لغير الحقِّ ما أخذ حقَّ غيره إلا بشهادة الشاهد.

١- رواه البخاري (ح١٢٨٤) ومسلم (ح٩٢٣).

[٥٠٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أُمَرَاءِ الأَمْصَارِ

«بِأَنَّ لَكُمْ - مَعْشَرَ الْوُلَاةِ - حَقًّا فِي الرَّعِيَّةِ، وَلَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِلْمٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ، وَلَا أَعَمَّ نَفْعًا، مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ جَهْلٌ أَبْغَضَ إِلَى اللهِ، وَلَا أَعَمَّ ضَرًّا، مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ[١]، وَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبِ الْعَافِيَةَ فِيمَنْ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ يُنْزِلِ اللهُ عَلَيْهِ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الخُرق**): الجهل والحُمق.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه ولاته وعمّاله مبينا لهم ما ينبغي أن يتحلّى به الولاة وما ينبغي أن يجتنبوه من الخصال والأخلاق.

البيان والبلاغة: قوله: (**بِأَنَّ لَكُمْ مَعْشَرَ الْوُلَاةِ حَقًّا فِي الرَّعِيَّةِ وَلَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ**): قدَّم خبر (**أنَّ**)، أي: (**لكم**) على اسمها، أي: (**حقًّا**) للتخصيص. واستعمل أسلوب التخصيص في (**معشرَ الولاة**)؛ ليُشعر المخاطَب بأنَّه هو المقصود بالحكم. واستعمل أداة التشبيه (**مثل**)؛ لتقرير مماثلة حق الرعية على الولاة لحقِّ الولاة على رعيَّتهم. وقوله: (**فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِلْمٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ وَلَا أَعَمَّ نَفْعاً مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ، وَإِنَّهُ**

١- الخُرْق، بِالضَّمِّ: الجَهْلُ والحُمقُ. وقد خَرِقَ يَخْرَقُ خَرَقًا فهو أخرقُ. والاسمُ الخُرْقُ بالضَّمِّ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (خرق).

٢- رواهُ هنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٦٠٢، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠٨٩).

لَيْسَ جَهْلٌ أَبْغَضَ إِلَى اللهِ وَلَا أَعَمَّ ضَرًّا مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ): قابل بين قوله: (**ليس من حلمٍ أحبَّ إلى الله ولا أعمَّ نفعا من حلم إمام ورفقه**)، وقوله: (**ليس جهل أبغضَ إلى الله ولا أعمَّ ضرًّا من جهل إمام وخرقه**)؛ ليُظهر مدى الفرق بين حلم الإمام برعيته وجهله بهم، وليحمل الأمراء على أن يرفقوا برعيَّتهم ويجتنبوا إلحاق الضرر بهم. وتنكير (**حلم**) و(**جهل**) في سياق النفي يفيد العموم، إلا أنَّه أدخل (من) الزائدة على (**حلم**)؛ لزيادة التنصيص على العموم، وليُغلِّب جانب الترغيب في الاتصاف بالحلم على جانب التنفير من الاتصاف بالجهل. وقوله: (**وَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبِ الْعَافِيَةَ فِيمَنْ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ يُنْزِلِ اللهُ عَلَيْهِ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ**): ختم وصيَّته للأمراء بهذه الجملة التي تحثُّ الأمير على الحرص على رعيَّته وطلب الخير لهم. واستعمل (مَن) الشرطية؛ ليعمَّ الحكمُ كلَّ راعٍ. واستعمل (مَن) الموصولة؛ ليعمَّ الحكمُ كلَّ فرد من الرعية. وقوله: (**يُنزل عليه العافية من فوقه**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**عليه**) على مفعول (**يُنزل**) للتخصيص. وقوله: (**من فوقه**): تتميم يفيد تأكيد نزول العافية عليه.

[٥٠٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ

«ذُكِرَ لِي أَنَّ (مطرس) بِلِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ: الْأَمَنَةُ، فَإِنْ قُلْتُمُوهَا لِمَنْ لَا يَفْقَهُ لِسَانَكُمْ؛ فَهُوَ آمِنٌ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أهل الكوفة، ينبِّههم إلى أنَّهم إن قالوا أو فعلوا ما يَفهم منه الأعاجمُ أمانًا أنه أمانٌ يجب الوفاء به، ويحرم نقضه بغير موجب.

البيان والبلاغة: قوله: **(ذُكر)**: لم يُسمِّ الفاعل؛ لعدم الحاجة إلى ذكره. وقوله: **(لمن لا يفقه لسانكم)**: استعمل (مَن) الموصولة؛ ليعم الحكم كل مَن اتَّصف بالوصف المضمَّن في صلة الموصول. وقوله: **(فهو آمن)**: جعل جواب الشرط جملة اسمية؛ ليدل على ثبوت هذا الحكم.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٤٠٠).

[٥٠٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«إِنَّكَ لَمْ تَنَلْ عَمَلَ الْآخِرَةِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يحثُّه على الزهد في الدنيا.

البيان والبلاغة: جاء عمر رضي الله عنه بهذه الموعظة بصيغة الجملة الاسمية وابتدأها بـ (**إنَّ**) المؤكِّدة؛ ليقرِّر ما تضمَّنته هذه الوصية. وقوله: (**لم تنل**): جاء بالفعل بصيغة المضارع ونفاه بـ (لم)؛ ليدل على استمرار نفي الحدث الذي يدل عليه الفعل. وقوله: (**بشيء**): هذه النكرة في سياق النفي تفيد العموم. وتأخير ذكر (**الزهد في الدنيا**) إلى آخر الكلام يشوِّق المخاطَب لمعرفة ما سيق الكلام من أجله، فيستقر معناه في نفسه.

١- رواهُ [وكيع في الزهد (ص ٢٢١) وعنه] أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٤٧) [وزاد (وإياك ومذاق الأخلاق ودناءتها) هكذا بالذال، وينظر النَّص التالي].

[٥٠٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«إِنَّ الْحِكْمَةَ لَيْسَتْ عَنْ كِبَرِ السِّنِّ، وَلَكِنَّهُ عَطَاءُ الله يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ، فَإِيَّاكَ وَدَنَاءَةَ الْأُمُورِ وَمَذَاقَ الْأَخْلَاقِ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (مذاق الأخلاق): الأخلاق التي يشوبها ما يكدِّرها. وجاء في بعض الروايات بلفظ (مداقّ الأخلاق)، وبهذا اللفظ ورد في المجالسة للدينوري، وعنه كنز العمال وغيره. وورد في مكارم الأخلاق للخرائطي عن إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: «كانوا يكرهون مداق الأخلاق، ويستحبون أن يكون فيهم غفلة السادة»، فلعل المقصود بذلك - على هذا اللفظ - شدة التدقيق في صغار الأمور والمحاسبة على الحبة والدانق، ولذلك قابله بـ (غفلة السادة)، أي: التغافل عن عمد وترك سفاسف الأمور وتوافهها حتى لا تؤثر في معالي الأمور. ومن كلام بعض البلغاء: «من لم يستظهر بالحزم على مداق الأخلاق ودناءتها، ويزجر النفس عن شهواتها، قصر دون رميته، ولم يدرك الثناء الذي سما إليه بأمنيته». وأما بلفظ **(مذاق)** فقد فسره محقق كتاب الزهد لوكيع فقال: «(مذاق الأخلاق)، أي: اختلاط

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٣٦) [بلفظ (ومراق الأخلاق)]، ووكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٢٨٥ [بلفظ (ومداني الأخلاق)]، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠٨٩) [بلفظ (مداق) بالدال، وقال المحقق: سنده ضعيف] [وذكره ابن الجوزي في المناقب (ص ١٧٧) وعنه ابن المبرد في محض الصواب (٢: ٦٨٥) بحذف آخر كلمتين] [ورواه وكيع في الزهد (ص: ٢٢١) بلفظ (إن الفقه ليس عن كبر السن، ولكنه عطاء الله ورزقه .. وإياك ومراق الأخلاق ودناءتها)].

محمودها بمذمومها من قولهم: مذق اللبن أو الشراب بالماء إذا خلطه به فأكثر فيه الماء، ومن المجاز: يمذق الود، ووده ممذوق، وماذقه في الود مذاقا، وهو مماذق في وده ومذاق: إذا لم يخلصه». وأما بلفظ (مراق): فقد فسره محقق كتاب الزهد أيضا فقال: «من الرقة؛ فمن المجاز: أرقت بكم أخلاقكم، إذا شحوا ومنعوا خيرهم». وأما بلفظ (مداني): فهو من الدناءة، وهي الخصلة المذمومة.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري ﷺ، يبيِّن له حقيقة الحكمة، ويحذِّره مما يكدِّر صفوَها.

لطائف لغوية: قوله: (**إيَّاك**): أسلوب تحذير له صورٌ، سبق الحديث عنها في شرح النص رقم واحد ومئتين، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الْحِكْمَةَ لَيْسَتْ عَنْ كِبَرِ السِّنِّ**): بدأ كلامه بنفي ما يتبادر إلى الذهن أنَّه مصدر الحكمة؛ ليشحذ ذهن المخاطب لطلب المصدر الحقيقي لها. وفي الكلام إيجاز حذف، والتقدير: ليست ناتجة عن كبر السنِّ. وقوله: (**وَلَكِنَّهُ عَطَاءُ اللهِ يُعْطِيهِ مِنْ يَشَاءُ**): الضمير في (**لكنَّه**) ضمير الشأن، فهو من الإضمار قبل الذكر، وفسَّره بجملة (**عطاء الله يعطيه من يشاء**). وأضاف (**عطاء**) إلى اسم الله تشريفا، وجاء بالفعل (**يعطيه**) بصيغة المضارع إشارة إلى أنَّ العطاء مستمرٌّ ولم ينقطع. وقوله: (**فَإِيَّاكَ وَدَنَاءَةَ الأُمُورِ وَمَذَاقَ الأَخْلاقِ**): لما ذكر عمرُ قبلُ أنَّ الحكمة لا تُنال بتقدُّم السنِّ أشار هنا إلى ما ينبغي للحكيم أن يترفَّع عنه، فحذَّره من أن يصدر عنه شيء من سفاسف الأمور أو أن يشوب أخلاقه ما يُفسدها، واستعمل في ذلك أسلوب التحذير بـ (**إيَّاك**).

[٥١٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه

«قَدْ فَشَتْ لَكَ فَاشِيَةٌ مِنْ مَتَاعٍ، وَرَقِيقٍ، وَآنِيَةٍ، وَحَيَوَانٍ، لَمْ تَكُنْ لَكَ حِينَ وُلِّيتَ مِصْرَ!» فَكَتَبَ عَمْرٌو: إِنَّ أَرْضَنَا أَرْضُ مَتْجَرٍ وَمُزْدَرَعٍ، فَنَحْنُ نُصِيبُ فَضْلًا عَمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِنَفَقَتِنَا. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «إِنِّي قَدْ خَبَرْتُ مِنْ عُمَّالِ السُّوءِ مَا كَفَى، وَكِتَابُكَ إِلَيَّ كِتَابُ ضَجِرٍ قَدْ أَقْلَقَهُ الْأَخْذُ بِالْحَقِّ؛ فَقَدْ سُؤْتُ بِكَ ظَنًّا، وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ لِيُقَاسِمَكَ مَالَكَ، فَاخْرُجْ مِمَّا يُطَالِبُكَ بِهِ، وَاعْفِهِ مِنَ الْغِلْظَةِ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّهُ بَرِحَ الْخَفَاءُ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (فَشَتْ)، أي: انتشرت وكثرت. و الـ (مُزْدَرَعٍ): موضع الزرع. وقوله: (بَرِحَ الخفاءُ)، أي: ظهر الأمرُ واتَّضح. قال ابن منظور في لسان العرب: «الأزهري: بَرِحَ الخفاءُ، معناه: زال الخفاء. وقيل: معناه ظَهر ما كان خافيا وانكشف، مأخوذ من براح الأرض، وهو البارز الظاهر. وقيل: معناه ظهر ما كنتُ أُخفِي».

مقتضى الحال: يخاطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه واليه على مصر يستفهم منه عن سبب زيادة ماله.

البيان والبلاغة: قوله: (**قَدْ فَشَتْ لَكَ فَاشِيَةٌ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيقٍ وَآنِيَةٍ وَحَيَوَانٍ لَمْ تَكُنْ لَكَ حِينَ وُلِّيتَ مِصْرَ**): استعمل الفعل (فشت) الدال على سرعة الانتشار إشارة

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٩، وأبو الفرجِ البغداديُّ في «الخراجِ» ص٣٣٩.

إلى سرعة ظهور هذا المال له ممَّا لفت الأنظار إليه، وجاء هذا الفعل بصيغة الماضي بقصد تقرير ثبوته، وأكَّد ذلك بإدخال (**قد**) عليه. وتنكير (**فاشية**)، و(**متاع**)، و(**رقيق**)، و(**آنية**)، و(**حيوان**): لإرادة التكثير. وبناء الفعل (**وُلِّيت**) للمفعول لِعِلم المخاطب بالفاعل. وقوله: (**إِنِّي قَدْ خَبَرْتُ مِنْ عُمَّالِ السُّوءِ مَا كَفَى**): أكَّد قول بـ (**إنَّ**) و(**قد**) ليؤكِّد خبرته بعُمَّال ومكرهم، وليزول كلُّ شك في ذلك عن نفسٍ عمرٍو رضي الله عنه. وقوله: (**ما كفى**): استعمل الاسم الموصول (**ما**) لإبهام المخبَر به بقصد التهويل. وقوله: (**وَكِتَابُكَ إِلَيَّ كِتَابُ ضَجِرٍ قَدْ أَقْلَقَهُ الأَخْذُ بِالْحَقِّ**): أضاف (**كتاب**) إلى الصفة المشبَّهه (**ضجر**)، ثمَّ فسَّر هذا الصفة بجملة (**قد أقلقه الأخذ بالحقِّ**)، والغرض من ذلك أن يصف المخاطِب الذي هو صاحب الكتاب بهذا الوصف، لكن بطريق غير مباشر. وقوله: (**وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْك مُحَمَّدَ بنَ مَسْلَمَةَ لِيُقَاسِمَكَ مَالَكَ، فَاخْرُجْ مِمَّا يُطَالِبُكَ بِهِ، وَاعْفِهِ مِنَ الْغِلْظَةِ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ بَرِحَ الْخَفَاء**): قوله: (**قد وجَّهت**) أتى بالفعل (**وجَّهت**) بصيغة الماضي ليُعلِم المخاطَب أنَّ هذا الأمر قد انتهي وفُرغ منه، وأكَّد ذلك بإدخال (**قد**) عليه. وقوله: (**ليقاسمك مالك**): أضاف المال إلى المخاطب مع أنَّه يرى أنَّه ليس له، وذلك من باب التنزُّل، وليقطع الجدال في ذلك، يعنى كأنَّه يقول له: (وإن كان هذا المال مالك فسيقاسمك فيه). وقوله: (**فاخرج مما يطالبك به**): إشارة إلى أنَّ المخاطَب قد أحيط به فلا يخرج ممَّا هو فيه إلا بامتثال الأمر. وقوله: (**واعفه من الغلظة عليك**): إشارة للمخاطَب بأنَّ المرسَل إليه لن يتهاون معه. وقوله: (**فإنَّه بَرِحَ الخفاءُ**): كناية عن ثبوت الحكم ومضيِّه؛ إذ هو حكمٌ مبني على أمرٍ واضحٍ لا لبس فيه ولا غموض.

[٥١١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه بِمِصرَ يَذْكُرُ لَهُ مَا أَصَابَ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ مِنَ الْقَحْطِ

«مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى الْعَاصِ بْنِ الْعَاصِ: سَلَامٌ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَعَمْرِي يَا عَمْرُو، مَا تُبَالِي إِذَا شَبِعْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ أَهْلِكَ أَنَا وَمَنْ مَعِي؛ فَيَا غَوْثَاءُ، ثُمَّ يَا غَوْثَاءُ». فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: «لِعَبْدِ اللهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَيَا لَبَّيْكَ، ثُمَّ يَا لَبَّيْكَ! قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِعِيرٍ أَوَّلُهَا عِنْدَكَ وَآخِرُهَا عِنْدِي. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ».

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِعِيرٍ عَظِيمَةٍ، فَكَانَ أَوَّلُهَا بِالْمَدِينَةِ وَآخِرُهَا بِمِصْرَ، يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَلَمَّا قَدِمَتْ عَلَى عُمَرَ وَسَّعَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، وَدَفَعَ إِلَى أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ بِالْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا بَعِيرًا بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ، وَبَعَثَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقْسِمُونَهَا عَلَى النَّاسِ، فَدَفَعُوا إِلَى أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ بَعِيرًا بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ؛ أَنْ يَأْكُلُوا الطَّعَامَ، وَيَنْحَرُوا الْبَعِيرَ، فَيَأْكُلُوا لَحْمَهُ، وَيَأْتَدِمُوا شَحْمَهُ، وَيَحْتَذُوا جِلْدَهُ، وَيَنْتَفِعُوا بِالْوِعَاءِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الطَّعَامُ لِمَا أَرَادُوا مِنْ لِحَافٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَوَسَّعَ اللهُ بِذَلِكَ عَلَى النَّاسِ.

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عُمَرُ؛ حَمِدَ اللهَ، وَكَتَبَ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ مَعَهُ. فَقَدِمُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «يَا عَمْرُو؛ إِنَّ اللهَ قَدْ فَتَحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِصْرَ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الْخَيْرِ وَالطَّعَامِ، وَقَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي –

لِمَا أَحْبَبْتُ مِنَ الرِّفْقِ بِأَهْلِ الْحَرَمَيْنِ، وَالتَّوْسِعَةِ عَلَيْهِمْ حِينَ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِصْرَ، وَجَعَلَهَا قُوَّةً لَهُمْ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ - أَنْ أَحْفِرَ خَلِيجًا مِنْ نِيلِهَا حَتَّى يَسِيلَ فِي الْبَحْرِ؛ فَهُوَ أَسْهَلُ لِمَا نُرِيدُ مِنْ حَمْلِ الطَّعَامِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ؛ فَإِنَّ حَمْلَهُ عَلَى الظَّهْرِ يَبْعُدُ وَلَا نَبْلُغُ مِنْهُ مَا نُرِيدُ؛ فَانْطَلِقْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ، فَتَشَاوَرُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى يَعْتَدِلَ فِيهِ رَأْيُكُمْ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يَأْتَدِمُوا**): من الإدام، بالكسر، والأُدْم، بالضم؛ وهو: كلُّ يؤكل بالخبز. وقوله: (**يَحْتَذُوا جِلْدَهُ**): يتخذوه حِذاءً. و(**لِحَاف**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «قال أبو عبيد: اللِّحاف كل ما تغطيت به. ولَحَفْتُ الرجل ألحَفُه: إذا فعلت به ذلك، يعني: إذا غطيتُه».

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه يستحثُّه ويستنجده لإغاثة أهل المدينة من القحط، ثمَّ يخاطبه مشاوِرًا في حفر خليجٍ يمتدُّ من النيل إلى البحر الأحمر.

لطائف لغوية: قوله: (**يَا غَوْثَاهُ**): أسلوب ندبةٍ، وهو صورةٌ من صور النداء يراد بها التوجُّع أو التفجُّع، وقد كرره لتأكيد توجُّعه وتفجُّعه رضي الله عنه لما أصاب المسلمين من الجوع والعوز. وقوله: (**رُوعي**): يخلط الكثيرون بين (الرُّوع) بضمِّ الراء و(الرَّوع) بفتحها. قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «الرَّوْعُ والرُّواع والتَّرَوُّع: الفَزَعُ ... والرُّوع: موضع الرَّوْع، وهو القَلبُ». ومن الأوَّل قول النَّبيِّ ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ آمِنْ رَوْعاتِي**»، جمع رَوعة؛ وهي: الفَزعة. ومن الثاني قوله ﷺ: «**إِنَّ رُوْحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوْعِي ...**»، أي: ألقى في قلبي أو نفسي. وقوله: (**انطلق أنت**

١- رواهُ ابنُ عبدِ الحكمِ في «فتوحِ مصرَ» ص١٩٠.

وأصحابُكَ): جاء فيه الفصل بالضمير المنفصل (**أنتَ**) بين المعطوف عليه، وهو ضمير الرفع المستتر في الفعل (**انطلق**)، والمعطوف، وهو كلمة (**أصحابك**). وهذا الفصلُ واجبٌ عند العطف على ضمائر الرفع المستترة، كما يجب عند العطف على ضمائر الرفع المتصلة. وفي ذلك يقول ابن مالكٍ - رحمه الله - في ألفيته:

وإن علـى ضمير رفـع متصـل   عطـفت فافصل بالضمير المنفصل

وقال ابن عقيل في شرحه على الألفية: «الضمير المرفوع المستتر في ذلك كالمتصل، نحو: اضرب أنت وزيد، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، فـ (**زَوْجُكَ**) معطوف على الضمير المستتر في اسكن، وصحَّ ذلك للفصل بالضمير المنفصل وهو (**أَنْتَ**)».

البيان والبلاغة: قوله: (**سَلَامٌ؛ أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَعَمْرِي يَا عَمْرُو، مَا تُبَالِي إِذَا شَبِعْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ أَهْلِكَ أَنَا وَمَنْ مَعِي؛ فَيَا غَوْثَاء، ثُمَّ يَا غَوْثَاء**): أوجز في كلامه إيجازا يناسب ما هم فيه من الشدَّة، فلم يطل في السلام وافتتاح الكتاب. واستعمل أسلوب التعريض في قوله: (**ما تبالي إذا شبعت أنتَ ومن معك أن أهلك أنا ومن معي**)؛ لتحريك نفس المخاطب وحثِّها على المبادرة في تلبية المطلوب. واستعمل أسلوب المقابلة بين (**شبعت أنتَ ومن معك**) و(**أن أهلك أنا ومن معي**)؛ ليُظهر له حقيقة ما هم عليه. وكرَّر قوله: (**يا غوثاء**)؛ لتقرير طلبه. وقوله: (**يَا عَمْرُو؛ إِنَّ اللهَ قَدْ فَتَحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِصْرَ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الخَيْرِ وَالطَّعَامِ**): قوله: (**إنَّ الله قد فتح على المسلمين مصر**): أكَّد للمخاطب الكلام بـ (**إنَّ**) و(**قد**). ومجيء الفعل (**فتح**) بصيغة الماضي، مع أنَّه غير منكِر، ولكن أراد أن يقرِّر له أنَّ الله هو من امتنَّ بفتح مصر، وأنَّ خيرَها منَّة من الله - أيضا -؛ تمهيدا لما سيذكره بعدُ من مواصلة إمداد

المدينة ومكَّة من خير مصر. وقوله: (**كثيرة الخير والطعام**): عطف (**الطعام**) على (**الخير**) من عطف الخاص على العام، نصَّ على الخاص؛ لأنَّه الخير الذي يقصد طلبه. وقوله: (**وَقَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي - لِمَا أَحْبَبْتُ مِنَ الرِّفْقِ بِأَهْلِ الْحَرَمَيْنِ، وَالتَّوْسِعَةِ عَلَيْهِمْ حِينَ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِصْرَ وَجَعَلَهَا قُوَّةً لَهُمْ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ - أَنْ أَحْفِرَ خَلِيجا مِنْ نِيلِهَا حَتَّى يَسِيلَ فِي الْبَحْرِ**): بنى الفعل (**ألقي**) للمفعول؛ لعلم المخاطَبِ بالفاعل، ولشغل ذهنه بالحدث. وأتى بالجملة المعترضة (**لما أحببت ...**) بين الفعل ونائب الفاعل الذي هو المصدر المؤوَّل (**أن أحفر ...**)؛ لإعلام المخاطب بأهمِّيَّة مضمون هذه الجملة المعترضة. وقوله: (**بأهل الحرمين**): اختار هذا الاسم ولم يقل: (أهل المدينة ومكَّة)؛ ليذكِّر المخاطب بحرمة هذين البلدين فيستعطفه على أهلها ويزيد من حرصه عليهم. وقوله: (**حين فتح الله عليهم مصر**): قيَّد الفعل (**فتح**) بالجارِّ والمجرور (**عليهم**)؛ ليقرِّر للمخاطب أنَّ فتح مصر كان لعموم المسلمين ومنهم أهل الحرمين لذا خصَّهم بالذكر. وقدَّم الجارَّ والمجرور (**عليهم**) على المفعول (**مصر**) لمزيد الاهتمام. وفي قوله: (**حتى يسيل في البحر**): مجاز عقلي في إسناد السيل للخليج؛ إذ السيل للماء الذي في الخليج. و(**أل**) الداخلة على (**البحر**) للعهد الذهني، ويقصد به البحر الأحمر. وقوله: (**فَإِنَّ حَمْلَهُ عَلَى الظَّهْرِ يَبْعُدُ، وَلَا نَبْلُغُ مِنْهُ مَا نُرِيدُ**): قوله: (**الظَّهر**): (**أل**) للعهد الذهني، ويقصد ظهر الجمال والبغال التي يُحمل عليه، وهو مجاز بذكر الجزء وإرادة الكل. وقوله: (**يبعد**): عدل عن قول: (يصعب) إلى استعمال هذا الفعل؛ إشارة إلى ما يحقِّقه حفر الخليج من تقريب المسافة. وقوله: (**فَانْطَلِقْ أَنْتَ وَأَصْحَابكَ فَتَشَاوَرُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى يَعْتَدِلَ فِيهِ رَأْيُكُمْ**): استعمل اسم الإشارة (**ذلك**)؛ لطلب تصوُّر المشار إليه في ذهن المخاطب، وقدَّم الجارَّ والمجرور (**فيه**) على الفاعل (**رأيكم**) للتخصيص، وكأنَّه أراد ألا يشغلوا فكرهم بشيء حتى ينتهوا من المشورة في هذا الأمر.

[٥١٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَثْرَةِ كُتُبِي إِلَيْكَ فِي إِبْطَائِكَ بِالْخَرَاجِ، وَكِتَابِكَ إِلَيَّ بِبُنَيَّاتِ[1] الطَّرِيقِ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لَسْتُ أَرْضَى مِنْكَ إِلَّا بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ، وَلَمْ أُقَدِّمْكَ إِلَى مِصْرَ أَجْعَلُهَا لَكَ طُعْمَةً وَلَا لِقَوْمِكَ، لَكِنِّي وَجَّهْتُكَ لِمَا رَجَوْتُ مِنْ تَوْفِيرِ الْخَرَاجِ وَحُسْنِ سِيَاسَتِكَ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْمِلِ الْخَرَاجَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ فَيْءُ الْمُسْلِمِينَ، وَعِنْدِي مَنْ تَعْلَمُ: قَوْمٌ مَحْصُورُونَ. وَالسَّلَامُ». فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، مِنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهُ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَبْطِئُنِي فِي الْخَرَاجِ، وَيَزْعُمُ أَنِّي أَعْنِدُ عَنِ الْحَقِّ، أَنْكُبُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَرْغَبُ عَنْ صَالِحِ مَا تَعْلَمُ، وَلَكِنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ اسْتَنْظَرُونِي إِلَى أَنْ تُدْرِكَ غَلَّتُهُمْ، فَنَظَرْتُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ الرِّفْقُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يُخْرَقَ بِهِمْ، فَنَصِيرَ إِلَى مَا لَا غِنَى لَهُمْ عَنْهُ. وَالسَّلَامُ[2]).

١- بُنَيَّاتُ الطَّرِيقِ: هي الطُّرُقُ الصِّغارُ تَتَشعَّبُ مِن الجادَّةِ، وهي التُّرَّهاتُ. «الصّحاح» للجوهريِّ ٦/ ٢٢٨٧.

٢- ذكرهُ ابنُ عبدِ الحكمِ في «فتوحِ مصرَ» ص١١٠.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**بُنيات الطريق**): الطرق الصغار تتفرع من طريق أوسع وأهم، ويكنَّى بها عن السفاسف والتُّرَّهات.

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه يطلب منه أن يعجِّل في دفع خراج أرض مصر.

لطائف لغوية: قوله: (**يَسْتَبْطِئُنِي**) و(**اسْتَنْظَرُونِي**): سبق الحديث عن وزن استفعل ومعانيه ودلالاته، فراجع لذلك كتاب «نُزهة الطَّرْف شرح بناء الأفعال في علم الصَّرْف»، لصادق البيضاني.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَثْرَةِ كُتُبِي إِلَيْكَ فِي إِبْطَائِكَ بِالخَرَاجِ، وَكِتَابِكَ إِلَيَّ بِبُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ**): استعمل مع المخاطَب أسلوب التعريض في قوله: (**عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج**)؛ ليُعلِمه بطولِ تأخُّره، وأنَّ ذلك غير معهود منه، فهي إشارة من عمر لعمرو رضي الله عنهما ليفسِّر إبطاءه. وقوله: (**وكتابك إليَّ ببنيَّات الطريق**): كنَّى عن أعذار عمرو رضي الله عنه بهذه العبارة؛ ليُعلمه بأنَّها غير مقنعة. وقوله: (**وَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لَسْتُ أَرْضَى مِنْكَ إِلَّا بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ**): أكَّد كلامه وقرَّره هنا بـ (**قد**) ومجيء الفعل (**علم**) بصيغة الماضي و(**إنَّ**) وأسلوب القصر، وذلك لما بدا من المخاطَب ما ظاهره مخالفة هذا الكلام الذي سبق تقريره. والقصر هنا في قوله: (**لست أرضى منك إلا بالحق البين**) حقيقي تحقيقي. وقوله: (**وَلَمْ أُقَدِّمْكَ إِلَى مِصْرَ أَجْعَلُهَا لَكَ طُعْمَةً وَلَا لِقَوْمِكَ، لَكِنِّي وَجَّهْتُكَ لِمَا رَجَوْتُ مِنْ تَوْفِيرِ الخَرَاجِ وَحُسْنِ سِيَاسَتِكَ**): تقديم الجار والمجرور (**لك**) على المفعول (**طعمة**) للتخصيص، ولكن

لما تقدَّم النفي بـ (لم) انتفى التخصيص. وزيادة (**لا**) في (**ولا لقومك**) لزيادة تقرير النفي. والقصر المتحصِّل من النفي بـ (لم) مع الإثبات بـ (**لكن**) قصر إضافي، وهو قصر قلب، لما ظهر من عمل المخاطب. وقوله: (**فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْمِلِ الخَرَاجَ، فَإِنَّمَا هُوَ فَيْءُ المُسْلِمِينَ، وَعِنْدِي مَنْ تَعْلَمُ: قَوْمٌ مَحْصُورُونَ. وَالسَّلَامُ**): قوله: (**فإذا أتاك**): استعمل اسم الشرط (**إذا**) للإشارة إلى تحقُّق وقوع الشرط، وأكَّد تقرير ذلك بمجيء فعل الشرط فعلا ماضيا، واستعمل اسم الإشارة (**هذا**)، لتعيين المشار إليه. والقصر في (**فإنَّما هو فيء المسلمين**): قصر حقيقي تحقيقي. وجملة (**قوم محصورون**) تفسير للاسم الموصول وصلته (**مَن تعلم**).

[٥١٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

لِابْنِهِ عَبْدِ اللهِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّقَاهُ وَقَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَزَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ. اجْعَلِ التَّقْوَى نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَجِلَاءَ قَلْبِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ، وَلَا أَجْرَ لِمَنْ لَا خَشْيَةَ لَهُ، وَلَا مَالَ لِمَنْ لَا رِفْقَ لَهُ، وَلَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا خَلَقَ لَهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**جِلَاءَ قَلْبِكَ**): قال ابن منظور – رحمه الله – في لسان العرب: «جَلَوْتُ، أي: أوضحت وكشفتُ. وجَلَّى الشيء، أي: كشفه. وهو يُجَلِّي عن نفسه، أي: يُعَبِّرُ عن ضميره. وتَجَلَّى الشيءُ، أي: تكشَّف». و(**خَلَق**): قديمٌ بالي.

مقتضى الحال: يخاطب ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يوصيه بتقوى الله – تعالى – ووصايا أخرى.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّقَاهُ وَقَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَزَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ**): قوله: (**فإِنِّي أوصيك**): استعمل الفعل (**أوصي**) بصيغة المضارع؛ دلالة على الاستمرار والمداومة. وجعل الفعل خبرا في جملة اسمية مصدَّرة بـ (**إنَّ**)؛ لإفادة ثبوت ذلك وتأكيده. وقوله: (**من اتَّقاه وقاه**): استعمل الجناس الناقص بين (**اتَّقاه**) و(**وقاه**)؛ لتثبيت المعنى في نفس المخاطب. ومجيء

١- رواهُ أبو عُبَيدٍ في «الخطبِ والمواعظِ» (١٣٧)، وقاضي المارستانِ في «أحاديثِ الشُّيوخِ الثِّقاتِ» (٦٠٠).

جواب الشرط فعلا ماضيا في: (**من اتّقاه وقاه**) و(**من أقرضه جزاه**) يفيد تحقُّق هذا الجواب عند تحقُّق شرطه، وبين (**وقاه**) و(**جزاه**) سجع. وقوله: (**اِجْعَلِ التَّقْوَى نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَجِلَاءَ قَلْبِكَ**): التقوى أمر معنوي، ولكنَّه شخَّصها وجعلها كالأمر الحسي؛ ليستحضر المخاطب معناها. وقوله: (**وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ، وَلَا أَجْرَ لِمَنْ لَا خَشْيَةَ لَهُ، وَلَا مَالَ لِمَنْ لَا رِفْقَ لَهُ، وَلَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا خَلَقَ لَهُ**): ختم كلامه بجمل أربعة موجزة متقاربة في اللَّفظ متَّحدة في الأسلوب، وهو أنَّه نفى جنس النتيجة لمن انتفى عنده جنس سببها، وفي الجملِ موازنةٌ واضحة، وإيجاز حذف؛ إذ التقدير: لا عمل مقبول لمن ...، ولا أجر حاصلٌ لمن ...إلخ.

[٥١٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«بَلَغَنِي أَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ اتَّخَذُوا الْحَمَّامَاتِ، فَلَا يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ - أَوْ قَالَ: مُسْلِمٌ - إِلَّا بِمِئْزَرٍ، وَلَا يَذْكُرْ فِيهِ اسْمَ اللهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ - أَوْ قَالَ: لَا يَذْكُرُوا للهِ فِيهِ اسْمًا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ -، وَلَا يَسْتَنْقِعِ اثْنَانِ فِي حَوْضٍ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (يَسْتَنْقِعِ)، أي: يجتمع. والاستنقاع: اجتماع فيه ثبوت. يُقال: استَنْقَع الماء في الغدير، أي: اجتمع وثبت.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، في شأن اتخاذ الناس الحمامات العامَّة.

البيان والبلاغة: قوله: (**بَلَغَنِي أَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ اتَّخَذُوا الْحَمَّامَاتِ**): لم يذكر مَن أبلغه؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، وحذف المفعول الثاني لـ (**اتَّخذ**)؛ لعلم المخاطب به. وقوله: (**فَلَا يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ إِلَّا بِمِئْزَرٍ**): هذا القصر حقيقي تحقيقي، فالأمر فيه أمر إلزام. وتنكير (**أحد**) في سياق الأمر يفيد العموم - وكذا: (**مسلم**) في الرواية الأخرى - فالأمر يعمُّ كلَّ أحد. وقوله: (**وَلَا يَذْكُرْ فِيهِ اسْمَ اللهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ، - أَوْ قَالَ: لَا يَذْكُرُوا للهِ فِيهِ اسْمًا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ -**): قوله: (**اسم الله**): (**اسم**) مفرد

١- رواهُ البيهقيُّ في «شعبِ الإيمانِ» (٢٣٩٤).

أضيف إلى معرفة فيعم كل اسم لله - تعالى -، وعلى الرواية الأخرى: (**لا يذكروا الله فيه اسما**) جاء (**اسم**) نكرة في سياق نهي فيعم أيضا كل أسماء الله - تعالى -. وقوله: (**وَلَا يَسْتَنْقِعِ اثْنَانِ فِي حَوْضٍ**): تنكير (**حوض**) للإفراد، أي: في حوض واحد.

[٥١٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -

وَقَدْ أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْهُمَا فِيهِ: سَلَامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّا عَهِدْنَاكَ وَأَمْرُ نَفْسِكَ لَكَ مُهِمٌّ، وَأَصْبَحْتَ قَدْ وُلِّيتَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا، يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْكَ الشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ، وَلِكُلٍّ حِصَّتُهُ مِنَ الْعَدْلِ، فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ، فَإِنَّا نُحَذِّرُكَ يَوْمًا تَعْنُو[1] فِيهِ الْوُجُوهُ، وَتَجِفُّ فِيهِ الْقُلُوبُ، وَتُقْطَعُ فِيهِ الْحُجَجُ، يَمْلِكُ قَهْرَهُمْ بِجَبَرُوتِهِ، وَالْخَلْقُ دَاخِرُونَ لَهُ، يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ، وَيَخَافُونَ عِقَابَهُ، وَإِنَّا كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَرْجِعُ إِلَى آخِرِ زَمَانِهَا؛ أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ، وَأَنْ نَعُوذَ بِاللهِ أَنْ يَنْزِلَ كِتَابُنَا إِلَيْكَ سِوَى الْمَنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِنَا؛ فَإِنَّا كَتَبْنَا بِهِ نَصِيحَةً لَكَ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا: مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمَا. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّكُمَا كَتَبْتُمَا إِلَيَّ تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا عَهِدْتُمَانِي وَأَمْرُ نَفْسِي لِي مُهِمٌّ، وَأَنِّي قَدْ أَصْبَحْتُ قَدْ وُلِّيتُ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا، يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيَّ الشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ، وَلِكُلٍّ حِصَّةٌ مِنْ ذَلِكَ. وَكَتَبْتُمَا: فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ؟ وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ عِنْدَ

١- العاني: الخاضع المُتَذَلِّل. قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ}، وهيَ تَعْنُو عُنُوًّا. وجئتُ إليكَ عانيًا: أي: خاضعًا كالأسيرِ المُرتهنُ بذنوبِه. «كتاب العين» ٢/ ٢٥٢.

ذَلِكَ لِعُمَرَ إِلَّا بِالله. وَكَتَبْتُمَا تُحَذِّرَانِي مَا حُذِّرَتْ بِهِ الْأُمَمُ قَبْلَنَا، وَقَدِيمًا كَانَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِآجَالِ النَّاس يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ، حَتَّى يَصِيرَ النَّاس إِلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. كَتَبْتُمَا تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا كُنْتُمَا تُحَدَّثَانِ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا: أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ. وَلَسْتُمْ بِأُولَئِكَ، لَيْسَ هَذَا بِزَمَانِ ذَلِكَ، وَإِنَّ ذَلِكَ زَمَانٌ تَظْهَرُ فِيهِ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ، تَكُونُ رَغْبَةُ بَعْضِ النَّاس إِلَى بَعْضٍ لِصَلَاحِ دُنْيَاهُمْ، وَرَهْبَةُ بَعْضِ النَّاس مِنْ بَعْضٍ. كَتَبْتُمَا بِهِ نَصِيحَةً تَعِظَانِي بِالله أَنْ أُنْزِلَ كِتَابَكُمَا سِوَى الْمُنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِكُمَا، وَأَنَّكُمَا كَتَبْتُمَا بِهِ وَقَدْ صَدَقْتُمَا، فَلَا تَدَعَا الْكِتَابَ إِلَيَّ؛ فَإِنَّهُ لَا غِنَى بِي عَنْكُمَا. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(تَعْنُو)**: تذِلُّ وتخضعُ، مأخوذٌ من العُنُوِّ؛ وهو: الذلُّ والخضوع. ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]. وقوله: **(داخرون)**: جمع داخر، وهو: الذليل المُهان.

مقتضى الحال: يخاطب أبا عبيدة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، يردُّ على كتاب لهما أرسلاه إليه ينصحانه فيه.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٥٩٢)، وأبو عبيدٍ في «الخطبِ والمواعظِ» (١٤٥)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» (٥٣٣)، والطَّبرانيُّ في «المعجمِ الكبيرِ» (٤٥)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٢٣٧.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّكُمَا كَتَبْتُمَا إِلَيَّ تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا عَهِدْتُمَانِي وَأَمْرُ نَفْسِي لِي مُهِمٌّ**): أعاد لهما ما كتباه إليه ليبيِّن لهما أنَّه قرأ كتابهما ووعى ما فيه. وفي أثناء إعادة كلامهما يكرِّر عبارة: (**كتبتما**) ليقرِّر لهما أنَّه يوقن أنَّ هذا الكلام منهما لا من غيرهما. وفي إعادة كلامهما نقل أكثره بنصِّه، ونقل بعضه بمعناه بحسب ما فهم منه. وقوله: (**كَتَبْتُمَا تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا كُنْتُمَا تُحَدَّثَانِ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا: أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ، وَلَسْتُمْ بِأُولَئِكَ، لَيْسَ هَذَا بِزَمَانِ ذَلِكَ**): هنا أدرج كلاما له بيانا لما جاء في كلامهما. وقوله: (**ولستم بأولئك**): استعمل اسم الإشارة (**أولئك**) للاستبعاد. وقوله: (**ليس هذا بزمان ذلك**): هنا استعمل اسم الإشارة في الموضعين؛ لتعيين المشار إليه. وقوله: (**فَلَا تَدَعَا الْكِتَابَ إِلَيَّ فَإِنَّهُ لَا غِنَى بِي عَنْكُمَا. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا**): (**أل**) في (**الكتاب**) تفيد بيان الحقيقة. وقوله: (**لا غنى بي عنكما**): أفاد بدخول (**لا**) النافية للجنس حقيقة عدم إمكان استغنائه عنهما؛ كناية عن شدَّة حاجته إلى نُصحهما.

[٥١٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أُمَرَائِهِ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ؛ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهَا، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا كَانَ قَمِنًا أَنْ يُبَارَكَ لَهُ فِيهَا، وَمَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ كَالْآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ، وَاحْتَسِبُوا إِلَى اللهِ أَعْمَالَكُمْ[1]، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِأَرْضِ عَدُوِّكُمْ، لَا يَفْقَهُونَ كَلَامَكُمْ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالذِّمَّةَ، فَإِنْ أَشَارَ أَحَدُكُمْ إِلَى عَدُوِّهِ بِيَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: وَاللهِ لَئِنْ نَزَلْتَ لَأَقْتُلَنَّكَ، فَنَزَلَ؛ إِنَّمَا نَزَلَ حِينَ أَشَارَ إِلَى السَّمَاءِ، وَذَلِكَ عَقْدُهُ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (قَمِنًا): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية ما ملخصه: «يقال: قَمِن وقَمَن وقَمِين، أي: خليق وجدير. فمن فتح الميم لم يُثَنِّ ولم يجمع ولم يؤنث؛ لأنه مصدر، ومن كسر ثنى وجمع وأنث؛ لأنه وصف، وكذلك القَمِين. ومن ذلك قوله النبي ﷺ: **(أَمَّا الركوعُ فعَظِّموا الرَّب فِيهِ، وَأَمَّا السُّجود فأَكْثِروا فِيهِ مِنَ الدُّعاء فَإِنَّهُ قَمِنٌ أَنْ يُسْتجابَ لَكُمْ)**».

١- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٣٨٢، وزادَ: «فإنَّ مَنِ احتَسَب عملَه؛ كُتِب لهُ أجرُ عملِه وأجرُ حِسْبتِه»، وقالَ: (فالاحتسابُ مِن الحَسْبِ، كالاعتدادِ مِن العَدِّ، وإنَّما قيلَ لِمَن يَنوِي بعملِه وجهَ الله: احْتَسَبَهُ؛ لأنَّ لهُ - حينئذٍ - أن يعتدَّ عملَه، فجعلَ في حالِ مُباشَرةِ الفعلِ كأنَّهُ مُعتدٌّ بهِ).

٢- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٩٢٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٥٨٦)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٧، وابنُ بشرانَ في «أماليه» (٨٦٦)، والنَّص المذكورُ جمعي.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أمراءه، ناصحًا إياهم بتقوى الله، والوفاء بالعهد.

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهَا، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا كَانَ قَمِنا أَنْ يُبَارَكَ لَهُ فِيهَا، وَمَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ كَالآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ**): اقتباس من حديث النبي ﷺ: «**إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ**»[١]، وفي رواية: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا بُورِكَ لَهُ فِيهَا**»[٢]، إلَّا أنه أدخل أسلوب التحذير (**فإيَّاكم وإيَّاها**) وكأنَّه أراد أن يبيِّن مقصد النبي من الحديث، وهو التحذير من الانجرار وراء متاع الدنيا الزائل. وقوله: (**كان قمنا**) إنَّما قال ذلك؛ لأنَّ النبي ﷺ أخبر عن ذلك، وما قاله النبي ﷺ حري به أن يحصل. وقوله: (**وَاحْتَسِبُوا إِلَى اللهِ أَعْمَالَكُمْ**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**إلى الله**) على المفعول (**أعمالكم**)؛ للتخصيص، أي: لا يكون احتساب هذه الأعمال إلَّا إلى الله - تعالى -. وقوله: (**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِأَرْضِ عَدُوِّكُمْ لَا يَفْقَهُونَ كَلَامَكُمْ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالذِّمَّةَ**): (**أل**) في (**العهد**) و(**الذمَّة**) عهديَّة، أي: العهد والذمَّة التي بيَّنها الله ورسوله. وقوله: (**فَإِنْ أَشَارَ أَحَدُكُمْ إِلَى عَدُوِّهِ بِيَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: وَاللهِ لَئِنْ نَزَلْتَ لَأَقْتُلَنَّكَ، فَنَزَلَ، إِنَّمَا نَزَلَ حِينَ أَشَارَ إِلَى السَّمَاءِ، وَذَلِكَ عَقْدُهُ**): قوله: (**إلى السماء**): يقصد بالسماء جهة العلو؛ كناية عن تأكيد القسم؛ إذ العلوُّ من صفات الله - تعالى -.

١- رواه البخاري (ح٦٤٤١)، ومسلم (ح١٠٣٥).

٢- رواه ابن حبَّان في صحيحه (ح٤٥١٢).

[٥١٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ، وَتَفَقَّهُوا فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَأَعْرِبُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَتَمَعْدَدُوا؛ فَإِنَّكُمْ مَعَدِّيُّونَ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (تمعدَدُوا)، أي: تمسَّكوا بخصال العرب الحميدة الذين يرجع نسبهم إلى معدِّ بن عدنان.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يطلب منه أنْ يأمر من تحته بالتفقُّه في الدين والعربية.

لطائف لغوية: قوله: (تمعدَدُوا): اشتقَّ من الاسم الجامد (معدٍّ) فعلا على وزن (تفعلل)، ولذلك نظائر في العربية. قال الأستاذ عباس حسن - رحمه الله - في كتابه النحو الوافي: «يشتق الفعلُ من الاسم العربي الجامد غير الثلاثي على وزن: (فعلل) متعديًا، وعلى وزن (تفعلل) لازمًا».

البيان والبلاغة: قوله: (**فَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ، وَتَفَقَّهُوا فِي الْعَرَبِيَّةِ**): أعاد ذكر الفعل (**تفقَّهوا**)؛ لتقرير التفقُّه في كلٍّ من السُّنَّة والعربية، من غير أن يُتفقَّه في أحدهما دون الأخر، ولكنه قدَّم الأمر بالتَّفقُّه في السنَّة للأهمِّيَّة. وقوله: (**وَأَعْرِبُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ**

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٦١٦٤)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٢٢٢٨).

عَرَبِيٌّ، وَتَمَعْدَدُوا؛ فَإِنَّكُمْ مَعَدِّيُّونَ): هنا ذكر علَّة الأمر مع أنَّه قبلُ اكتفى بذكر الأمر مجرَّدا، وفائدة ذكر علَّة الأمر - هنا - ترغيب المخاطَب في امتثال الأمر حين يعرف علَّته. وبين الفعلين (**تفقَّهوا**) و(**تمعددوا**) سجعٌ؛ حيث تشابهت فواصلهما.

[٥١٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«صَلِّ الظُّهْرَ إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ، وَالْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا صُفْرَةٌ، وَالْمَغْرِبَ إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَأَخِّرِ الْعِشَاءَ مَا لَمْ تَنَمْ، وَصَلِّ الصُّبْحَ وَالنُّجُومُ بَادِيَةٌ مُشْتَبِكَةٌ، وَاقْرَأْ فِيهَا بِسُورَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ مِنَ الْمُفَصَّلِ(١)»(٢).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (مشتبكة): قال ابن الأثير - رحمه الله - في جامع الأصول: «اشتباكُ النُّجومِ: ظهورُ صغارِها بينَ كبارِها، حتَّى لا يَخفَى منها شيءٌ». - **(المفصَّل):** آخر حزب من القرآن الكريم والذي يضمُّ السور القصار. وسُمِّي بذلك لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وينتهي بسورة الناس، واختلف في بداية، والمشهور: أنه يبدأ بسورة (ق).

١- وفي رواية: «صَلِّ الظُّهْرَ حِينَ تَزُولَ الشَّمْسُ، وَصَلِّ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ، وَصَلِّ الْمَغْرِبَ حِينَ تَغِيبُ الشَّمْسُ، أَوْ حِينَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ، وَصَلِّ الْعِشَاءَ حِينَ يَغِيبُ الشَّفَقُ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، وَإِنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ، وَأَقِمِ الْفَجْرَ بِسَوَادٍ، أَوْ بِغَلَسٍ، أَوْ بِالسَّوَادِ، وَأَطِلِ الْقِرَاءَةَ». رواهُ الحارثُ في «مُسنَدِه» كما في «بُغيةِ الباحثِ» (١١٣).

وفي لفظٍ آخرَ: «كَتَبْتُ فِي الصَّلَاةِ، وَأَحَقُّ مَا تَعَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ أَمْرُ دِينِهِمْ. وَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي، حَفِظْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا حَفِظْتُ، وَنَسِيتُ مِنْهُ مَا نَسِيتُ، فَصَلِّ الظُّهْرَ بِالْهَجِيرِ، وَالْعَصْرَ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ، وَالْمَغْرِبَ لِفِطْرِ الصَّائِمِ، وَالْعِشَاءَ مَا لَمْ تَخَفْ رُقَادَ النَّاسِ، وَالصُّبْحَ بِغَلَسٍ، وَأَطِلِ الْقِرَاءَةَ فِيهَا». ذكرهُ البوصيريُّ في «إتحافِ الخيرةِ» (٧٨٣)، وابنُ حجرٍ في «المطالبِ العاليةِ» (٢٥١)، وعزياهُ عن إسحاقَ بنِ راهويهِ في «مُسنَدِه».

٢- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإِ» (١٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٣٦)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٧٢٩).

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، مذكرا إياه بأوقات الصلاة.

لطائف لغوية:

البيان والبلاغة: بيَّن عمر لأبي موسى رضي الله عنهما أوقات الصلاة التي بيَّنها لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم، فألفاظ هذا الكتاب مقتبسة من كلام للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنَّما كتب عمر بهذه الأوقات لأبي موسى رضي الله عنه ولا شك أنَّ أبا موسى يعرفها؛ ليذكِّره بأهمِّيَّة الحفاظ على الصلوات المفروضة في وقتها. وقوله: (**والعَصرَ ... والمغربَ ...**): فيه إيجازٌ، والتقدير: وصلِّ العصرَ ... وصلِّ المغربَ.

[٥١٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ

«بَلَغَنِي أَنَّ نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَاتِ وَمَعَهُنَّ نِسَاءٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَازْجُرْ عَنْ ذَلِكَ، وَحُلْ دُونَهُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**فازْجُرْ**): الزَّجر هو المنع والنهي والانتهار.

مقتضى الحال: يخاطب أبا عبيدة رضي الله عنه في شأن دخول نساء المسلمين الحمَّامات مع نساء الكافرين.

البيان والبلاغة: قوله: (**بَلَغَنِي أَنَّ نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَاتِ وَمَعَهُنَّ نِسَاءٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**): لم يذكر عمر رضي الله عنه مَن أبلغه الخبر؛ لعدم الفائدة في تعيينه. ونكَّر (**نِسَاءً**)؛ لأنَّ الحكم لا يتعلَّق بنساء بعينهن، وإنَّما هو لكلِّ النِّساء المؤمنات. وقوله: (**نساء المؤمنين والمهاجرين**): عطف (**المهاجرين**) على (**المؤمنين**): من عطف الخاصِّ على العامِّ للرِّعاية والاهتمام. وقوله: (**فَازْجُرْ عَنْ ذَلِكَ وَحُلْ دُونَهُ**): عطف (**حل دونه**) على (**ازجر عن ذلك**) ليس من الإطناب، فالزجر يكون قبل حصول الشيء، والحيلولة دون الشيء تكون إذا حصل ووقع، فكأنَّ عمر يقول لأبي عبيدة: (ازجر عن حصول ذلك، فإن خالف أحد هذا الأمر وحصل منه فامنعه ولا تتركه).

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١١٣٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٣٥٤٢) و(١٣٥٤٣).

[٥٢٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«لَا تَبِيعَنَّ، وَلَا تَبْتَاعَنَّ، وَلَا تُشَارَنَّ[١]، وَلَا تُضَارَّنَّ، وَلَا تَرْتَشِ فِي الْحُكْمِ، وَلَا تَحْكُمْ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَأَنْتَ غَضْبَانُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (لا تشارنَّ): لا تعمل بأحد شرًّا.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يوصيه بأمور يتوجب امتناعه عنها لأجل الحُكم.

البيان والبلاغة: في قوله: (**لا تبيعنَّ ولا تبتاعنَّ**): طباق بين (**تبيعنَّ**) و(**تبتاعنَّ**)، ولأنَّ البيع قد يُفهم منه الابتياع؛ ذكر الفعلين ونهى عنهما. وقوله: (**لا تشارَنَّ ولا تضارَّنَّ**): هذان الفعلان متقاربان في المعنى، وكان يمكنه أن يكتفي بالنهي عن أحدهما، ولكن أورد النهي عن الفعلين؛ لتأكيد المعنى وتقريره. وقوله: (**ولا ترتشِ في الحكم**): قيَّد النهي عن الارتشاء بالجارِّ والمجرور (**في الحكم**)، مع أنَّ النَّهي عامٌّ لا يتقيَّد به، ولكنَّه في الحُكم أعظم جُرما وخطرا؛ لما فيه من إضاعة الحقوق. وقوله: (**ولا تحكم بين اثنين وأنت غضبان**): اقتباس من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَا يَحْكُمْ أَحَدٌ**

١- تُشَارَنَّ؛ أي: لا تفعلْ به شَرًّا يُحوِجُه إلى أن يفعلَ بكَ مِثلَه. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (شرر).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٥٢٩٠).

بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ»[١]. وفي الجمل إطنابٌ غرضه التأكيد على المعنى وتقريره، وسجع بيِّن في فواصل الجملة الأربعة الأولى.

١- رواه مسلم (ح١٧١٧).

[٥٢١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«أَنْ مُرْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ: أَنْ يُصَدِّقْنَ حُلِيَّهُنَّ، وَلَا يَجْعَلْنَ الْهَدِيَّةَ وَالزِّيَارَةَ تَقارُضًا بَيْنَهُنَّ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (يُصدِّقن): يخرجن الصدقة.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري ﷺ في شأن حُلِيٍّ وهدايا النساء.

البيان والبلاغة: قوله: **(من نساء المسلمين)**: أضاف (نساء) إلى (المسلمين) للتخصيص، ليتقيَّد الحكم بهذا القيد. وقوله: **(ولا يجعلن الهديَّة والزيارة تقارضا بينهنَّ)**: شبَّه الهديَّة والزيارة إن كانتا مكافأة لهديَّة أو زيارة سابقة بالتقارض، ووجه الشبه بينهما تقدُّم مماثِل في كلٍّ، فيكون الردُّ مساويا في القدْر للسابق. وقد يكون المراد النَّهي عن عدِّ الهدية بين النسوة دينًا حقيقيًّا يجبُ وفاؤه.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٠٢٥٧)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (١٧٦٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٧٥٤٣).

[٥٢٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا؛ فَأَعْلِمْنِي يَوْمًا مِنَ السَّنَةِ لَا يَبْقَى فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ دِرْهَمٌ، حَتَّى يُكْتَسَحَ اكْتِسَاحًا؛ حَتَّى يَعْلَمَ اللهُ أَنِّي قَدْ أَدَّيْتُ إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه في شأن وكيفية إنفاق ما في بيت مال المسلمين.

البيان والبلاغة: قوله: (**كتابي هذا**): استعمل اسم الإشارة لتعيين المشار إليه للمخاطب. وقوله: (**فأعلمني يوما من السنة**): تنكير (**يوما**) للإفراد. وقوله: (**لا يبقى في بيت مال المسلمين درهم**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**في بيت**) على الفاعل (**درهم**) للعناية والاهتمام، ونكَّر (**درهم**) للإفراد. وقوله: (**حتَّى يُكتسح اكتساحا**): بنى الفعل (**يُكتسح**) للمفعول؛ ليبيِّن للمخاطب أهمِّيَّة الحدث بغضِّ النظر عن الفاعل، وأكَّد أهمِّيَّة حصول هذا الحدث على الوجه التام من غير تجوُّز حين أتى بالمصدر (**اكتساحا**). وقوله: (**حتَّى يعلم الله أنِّي قد أدَّيت إلى كلِّ ذي حقٍّ حقَّه**): بيَّن للمخاطب ضرورة حصول ما هو مسئول عنه أمام الله فأتى بالفعل (**أدَّيت**) بصيغة

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٠٣، وابنُ زَنْجُويْهِ في «الأموالِ» (٩٣٣)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٤٣، قالَ الحسنُ البصريُّ في التَّعليقِ على هذا الخبرِ: (فأَوسعَ اللهُ عليهِ، فأَخذَ صَفْوَهَا، وتَركَ كَدرَها، حتَّى أَلحقَهُ اللهُ بِصاحِبَيْهِ).

الماضي مسبوقا بـ (**قد**)، وجعله خبرا لجملة اسميَّة مصدَّرة بـ (**أنَّ**). وفي قوله: (**إلى كلِّ ذي حقّ**) استعمل لفظ (**كلِّ**) لإفادة العموم، وقد خصَّص هذا العموم حين أضافه إلى (**ذي حقٍّ**)؛ ليشمل الحكم كل من اتَّصف بهذا الوصف. وقد قدَّم الجارَّ والمجرور (**إلى كل**) على المفعول (**حقَّه**)؛ للأهمِّيَّة والعناية، وأضاف المفعول (**حق**) إلى ضمير الغائب (**الهاء**)؛ لتقرير ملك هذا الغائب واختصاصه بهذا الحق.

[٥٢٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ حِينَ افْتَتَحَ الْعِرَاقَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ أَنَّ النَّاس سَأَلُوكَ أَنْ تَقْسِمَ بَيْنَهُمْ مَغَانِمَهُمْ وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا؛ فَانْظُرْ مَا أَجْلَبَ النَّاس عَلَيْكَ إِلَى الْعَسْكَرِ مِنْ كُرَاعٍ أَوْ مَالٍ فَاقْسِمْهُ بَيْنَ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَاتْرُكِ الْأَرَضِينَ وَالْأَنْهَارَ لِعُمَّالِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ فِي أَعْطِيَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ قَسَمْتَهَا بَيْنَ مَنْ حَضَرَ، لَمْ يَكُنْ لِمَنْ بَقِيَ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوَ النَّاس ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَمَنِ اسْتَجَابَ لَكَ، وَأَسْلَمَ قَبْلَ الْقِتَالِ فَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ، وَلَهُ سَهْمٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَنِ اسْتَجَابَ لَكَ بَعْدَ الْقِتَالِ، وَبَعْدَ الْهَزِيمَةِ فَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَالُهُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَحْرَزُوهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ. فَهَذَا أَمْرِي، وَعَهْدِي إِلَيْكَ. وَلَا عُشُورَ عَلَى مُسْلِمٍ، وَلَا عَلَى صَاحِبِ ذِمَّةٍ، إِذَا أَدَّى الْمُسْلِمُ زَكَاةَ مَالِهِ، وَأَدَّى صَاحِبُ الذِّمَّةِ جِزْيَتَهُ الَّتِي صَالَحَ عَلَيْهَا، إِنَّمَا الْعُشُورُ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ إِذَا اسْتَأْذَنُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي أَرْضِنَا، فَأُولَئِكَ عَلَيْهِمُ الْعُشُورُ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (كُراع): الكراع في سياق القتال هي: الخيل والسلاح. وأما ما سوى ذلك؛ فقد جاء في المعجم الوسيط: «الكُراع من الإنسان: ما دون

١- رواهُ يحيى بنُ آدمَ في «الخراج» (٤٩) و(١٢١)، والقاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (١٥٠)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٢٢٩)، والبيهقيُّ في «السُّننِ الكُبرَى» (١٨٣٦٩).

الركبة إلى الكعبِ. ومن البقر والغنم: مُستدق الساق العاري من اللحم، يذكر ويؤنث. والجمع: أكرُع وأكارِعُ. وفي المثل: (لا تُطْعِم العبد الكُراع؛ فيطمع في الذراع)». و(**العُشُور**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب ما ملخصه: «العُشُور: جمع عُشر؛ وهو: ما يؤخذ من أموال غير المسلمين على تجاراتهم ونحوها. والذي يلزمهم من ذلك عند الشافعي: ما صولحوا عليه وقت العهد، فإن لم يصالحوا على شيء فلا يلزمهم إلا الجزية. وقال أبو حنيفة: إن أخذوا من المسلمين إذا دخلوا بلادهم أخذنا منهم إذا دخلوا بلادنا للتجارة».

مقتضى الحال: يخاطب سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في شأن مغانم المسلمين في بلاد العراق، وسياسته فيمن أسلم ومن لم يسلم من أهلها.

لطائف لغوية: قوله: (**الأرَضِين**): جمع الأرضين جمع مذكر سالم، ولا يعدُّ من جمع المذكر السالم لأنه لم يجمع شروطه. وإنَّما ألحق به وجرى مجراه في الإعراب. وفي ذلك يقول ابن مالك - رحمه الله -:

وبِهِ عِشْرُونَا ... وبابه أُلحِقَ والأَهْلُونا

أولو وعالمون عليونا ... وأَرَضُون شذَّ والسِّنُونا

البيان والبلاغة: قوله: (**فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ أَنَّ النَّاسَ سَأَلُوكَ أَنْ تَقْسِمَ بَيْنَهُمْ مَغَانِمَهُمْ، وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ**): أعاد للمخاطب مضمون كتابه ليبيِّن له أنَّه قرأه ووعاه واهتمَّ به. وقوله: (**فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَانْظُرْ مَا أَجْلَبَ النَّاسُ عَلَيْكَ إِلَى الْعَسْكَرِ مِنْ كُرَاعٍ أَوْ مَالٍ، فَاقْسِمْهُ بَيْنَ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَاتْرُكِ الْأَرَضِينَ وَالْأَنْهَارَ لِعُمَّالِهَا؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ فِي أُعْطِيَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ قَسَمْتَهَا بَيْنَ مَنْ حَضَرَ، لَمْ يَكُنْ**

لِمَنْ بَقِيَ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ): قوله: (**جاءك كتابي**): أسند المجيء إلى الكتاب على سبيل المجاز العقلي. وقوله: (**أجلب الناس عليك**): يريد بالناس الجندَ الذين شاركوا في القتال، فـ(**الناس**): عام يراد به الخصوص. وقوله: (**من كراع ومال**): أدخل حرف الجر (مِن) على (**كراع ومال**) مع تنكيرهما؛ لتفيد استغراق جنسهما. وقوله: (**فاقسمه بينَ مَن حضر من المسلمين**): (مَن) الموصولة في الجملة تفيد العموم، فيشمل الحكم كل مَن اتَّصف بصِلتها، ولم يقيِّد الفعل (**حضر**) بالمعركة؛ لعلم المخاطب بذلك. وقوله: (**من المسلمين**): تتميم؛ لأنَّ الفيء والغنيمة لا تقسم إلا بين المسلمين، وفائدة هذا القيد: التنبيه على أنَّ اتِّصافهم بالإسلام أوجب لهم هذا الحق. وقوله: (**واترك الأرضين والأنهار لعُمَّالها**): جاء بالأرضين والأنهار بلفظ الجمع؛ ليشمل أنواعها، وأضاف العمَّال إليها؛ ليشير إلى اختصاصهم بها. وقوله: (**ليكون ذلك في أعطيات المسلمين**): استعمال حرف الجر (في) من دقَّة التعبير، ففي ذلك إشارة إلى أنَّ أعطيات المسلمين تشمل تلك الأرضين والأنهار وتشمل غيرها. وقوله: (**إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء**): بين (**مَن حضر**) و(**مَن بقي**) طباق، وفي الظرف (**بعدهم**) تتميم؛ إذ المعنى مفهوم بدون هذا القيد، ولكنَّه جاء به إشارة إلى أنَّ مَن بقي إنَّما سبب عدم أخذهم مِن القسمة هو تأخُّرهم عن أولئك الذين حضروها. وتنكير (**شيء**) في سياق النفي يفيد العموم، فيعم كل ما هو من مال الغنيمة والفيء. وقوله: (**وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَمَنِ اسْتَجَابَ لَكَ، وَأَسْلَمَ قَبْلَ الْقِتَالِ فَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ، وَلَهُ سَهْمٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَنِ اسْتَجَابَ لَكَ بَعْدَ الْقِتَالِ، وَبَعْدَ الْهَزِيمَةِ فَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَالُهُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَحْرَزُوهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ**): ذكَّر المخاطب بمضمون كتاب سابق لهذا الكتاب؛ ليقرِّر مضمونه لأهميته وتعلقه بهذا الكتاب. وقوله: (**فَهَذَا أَمْرِي، وَعَهْدِي**

إِلَيْكَ): استعمل اسم الإشارة؛ لتعيين المشار إليه وتمييزه من غيره. وتعريف طرفي الإسناد يفيد القصر، وهذا القصر ادِّعائي، فائدته بيان أهمية هذا المطلوب، لا أنَّ المخاطب غير مأمور بغيره. وقوله: (**وَلَا عُشُورَ عَلَى مُسْلِمٍ، وَلَا عَلَى صَاحِبِ ذِمَّةٍ، إِذَا أَدَّى الْمُسْلِمُ زَكَاةَ مَالِهِ، وَأَدَّى صَاحِبُ الذِّمَّةِ جِزْيَتَهُ الَّتِي صَالَحَ عَلَيْهَا، إِنَّمَا الْعُشُورُ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ، إِذَا اسْتَأْذَنُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي أَرْضِنَا، فَأُولَئِكَ عَلَيْهِمُ الْعُشُورُ**): هنا انتقل إلى موضوع آخر، وهو (**العشور**)، لكن له صلة بالفيء والغنائم؛ لتعلق هذه الأشياء بالمال. وقوله: (**لا عشور على مسلم ولا على صاحب ذمَّة**): أدخل (**لا**) النافية للجنس على (**العشور**) وأتى بلفظ (**العشور**) جمعا؛ للمبالغة في نفي جميع أنواعها. ثمَّ أعاد (**لا**) في: (**ولا على صاحب ذمَّة**)؛ لتأكيد النفي. وتنكير (**مسلم**) لإرادة الجنس؛ فكل من اتَّصف بهذا الوصف داخل في الحكم. ثمَّ قيَّد النفي المفهوم من (**لا**) النافية للجنس فأتي بأداة الشرط (**إذا**) في قوله: (**إذا أدَّى المسلم زكاة ماله، وأدَّى صاحب الذمَّة جزيته التي صالح عليها**). ووصف (**جزيته**) بالاسم الموصول (**الذي**)؛ لتخصيصه بالمعنى المفهوم من جملة الصلة، ولا يفهم من هذا الشرط أنَّ المسلم إذا لم يؤدِّ الزكاة وصاحبَ الذمَّة إذا لم يؤدِّ الجزية = أنَّ عليهما العشور، وإنَّما ذكر هذا الشرط؛ ليبيِّن أنَّ المسلم وصاحب الجزية إن أُعفوا من دفع العشر فلا يعنى ذلك أنَّهم سلموا من دفع مستحقَّات أخرى. ولدفع توهُّم أن يكون ذلك الشرط على حقيقته أطنب واحترس بقوله: (**إنَّما العشور على أهل الحرب إذا استأذنوا أن يتَّجروا في أرضنا، فأولئك عليهم العشور**)، والقصر هنا حقيقي تحقيقي. والقيد في قوله: (**إذا استأذنوا**): إشارة إلى ضرورة استئذان غير المسلم عند اتِّجاره في أرض المسلمين. وفي قوله: (**فأولئك عليهم العشور**): أعاد هذا المعنى - وإن اختلف اللفظ - لتقرير مضمونه، وتأكيد دفع التوهُّم السابق.

[٥٢٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ

«إِنَّكَ كَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ قَوْمٍ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ فِي خِفَّةِ الْإِسْلَامِ، فَمَاتُوا، قَالَ: تُرْفَعُ أَمْوَالُ أُولَئِكَ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ. وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الرَّجُلِ يُسْلِمُ فَيُعَادُّ الْقَوْمَ وَيُعَاقِلُهُمْ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ وَلَا لَهُمْ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ، فَاجْعَلْ مِيرَاثَهُ لِمَنْ عَاقَلَ وَعَادَّ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**عادَّ القوم**): صار يُعدُّ فيهم. و(**عاقل القوم**): ناصرهم في الدِّية وغيرها.

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه، يجيبه عن أسئلة تتعلق بالفرائض، أرسل يستفتيه فيها.

البيان والبلاغة: ذكر للمخاطب نصَّ السؤالين اللذين سألهما، وبعد كلِّ سؤال إجابته، إشارة إلى ضرورة ربط الإجابة بالسؤال المذكور واقتصاره عليه. وقوله: (**تُرْفَعُ أَمْوَالُ أُولَئِكَ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ**) بنى الفعل (**تُرفع**) للمفعول؛ لتعليق ذهن المخاطب بالحدث من غير تعيين للفاعل. واستعمل اسم الإشارة (**أولئك**)؛ لتعيين المشار إليه. وقوله: (**فَاجْعَلْ مِيرَاثَهُ لِمَنْ عَاقَلَ وَعَادَّ**): حذف مفعولَي (**عادَّ**)

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٠٩).

و(**عاقل**)؛ لعلم المخاطب بهما. وقدَّم (**عاقل**) على (**عادَّ**) مع أنَّ سؤال المخاطب كان فيه تقديم (**من عادَّ**) على (**من عاقل**)، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ (**من عاقل**) أولى بالتقديم والاهتمام؛ لأنَّ من عاقل قوما فهو مشارك لهم بنفسه وماله، أمَّا من عادَّ قوما فهو مشارك لهم في نفسه دون ماله، فبيَّن عمر للمخاطب ما هو أولى، وهذا من أسلوب الحكيم.

[٥٢٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى أَهْلِ الشَّامِ

«أَنْ عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمُ السِّبَاحَةَ وَالرَّمْيَ وَالْفُرُوسِيَّةَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أهل الشَّام في شأن تعليم أولادهم ما فيه تقوية لبدنهم، وزرع الشجاعة في نفوسهم.

البيان والبلاغة: قوله: **(علِّموا)**: أسند الفعل إلى ضمير المخاطبِين، ولم يقيِّده بمخاطب بعينه؛ ليكون كل مخاطب داخلا في الأمر. وأضاف **(الأولاد)** إلى ضمير المخاطبين ليذكِّرهم باختصاصهم بهم؛ ليكون ذلك أدعى لحرصهم عليهم. وقدَّم ذكر السباحة؛ للاهتمام والتنبيه، ولأنها قد يُغفَل عنها بخلاف الرمي والفروسية.

١- رواهُ إسحاقُ القرَّابُ في «فضائلِ الرَّمْيِ» (١٥).

[٥٢٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَقَدْ كَتَبَ لَهُ فِي الرَّاهِبِ يَمُوتُ لَيْسَ لَهُ وَارِثٌ

«أَنْ أَعْطِ مِيرَاثَهُ الَّذِينَ كَانُوا يُؤَدُّونَ جِزْيَتَهُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه، يجيبه عن سؤال له بشأن ميراث الراهب إذا مات.

البيان والبلاغة: قوله: **(أعط ميراثَه الذين كانوا يؤدُّون جزيته)**: المفعول الأوَّل هو الاسم الموصول؛ لأنّه فاعل في المعنى، فحقُّه التقديم على المفعول الثاني **(ميراثَه)**، ولكنَّه قدَّم المفعول الثاني على الأوَّل؛ لأنَّ المفعول الثاني هو المذكور في السؤال، فالسؤال يختصُّ به. واستعمل الاسم الموصول **(الذين)**؛ لبيان علَّة تخصيصه بالحكم، وذلك من خلال ما تضمَّنته جملة الصلة.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٣١٥٩٦).

[٥٢٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى عُمَّالِهِ

«إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ؛ فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ. وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ. ثُمَّ كَتَبَ: أَنْ صَلُّوا الظُّهْرَ إِذَا كَانَ الْفَيْءُ ذِرَاعًا، إِلَى أَنْ يَكُونَ ظِلُّ أَحَدِكُمْ مِثْلَهُ. وَالْعَصْرَ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ قَدْرَ مَا يَسِيرُ الرَّاكِبُ فَرْسَخَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. وَالْمَغْرِبَ إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ. وَالْعِشَاءَ إِذَا غَابَ الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ. فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ. وَالصُّبْحَ وَالنُّجُومُ بَادِيَةٌ مُشْتَبِكَةٌ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه عمَّالَه، يذكِّرهم بأهمية الصلاة ومواقيتها.

لطائف لغوية: جاء في النصِّ ذكر (**الفيء**) و(**الظل**)، فما الفرق بينهما؟ قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية: «والظل: الفيءُ الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس، أيَّ شيء كان. وقيل: هو مخصوص بما كان منه إلى زوال الشمس، وما كان بعده فهو الفيء».

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإِ» (٩)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٣٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٩٦)، والحِنَّائيُّ في «الفوائدِ» (٢٩٦).

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ؛ فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا، حَفِظَ دِينَهُ. وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ**): قوله: (**إنَّ أهمَّ أمركم عندي الصلاة**): الأصل أن يقول: (إنَّ الصلاةَ أهمُّ أمركم عندي)؛ لأنَّ الخبر في المعنى هو (**أهمَّ**)، لكنَّه قلب وجعل الخبر مبتدأ؛ لتشويق السامع. ثمَّ بيَّن سبب كون الصلاة أهمَّ أمر المخاطبين عنده؛ ليكونوا أحرص عليها. واستعمل في ذلك أسلوب المقابلة؛ لتقرير المعنى، فقال: (**فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع**) فقابل بين: (**من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه**) و(**من ضيَّعها فهو لما سواها أضيع**). وقوله: (**أَنْ صَلُّوا الظُّهْرَ، إِذَا كَانَ الْفَيْءُ ذِرَاعا، إِلَى أَنْ يَكُونَ ظِلُّ أَحَدِكُمْ مِثْلَهُ. وَالْعَصْرَ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ، قَدْرَ مَا يَسِيرُ الرَّاكِبُ فَرْسَخَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَالْمُغْرِبَ إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ. وَالْعِشَاءَ إِذَا غَابَ الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ، فَمَنْ نَامَ فَلَا نَامَتْ عَيْنُهُ. وَالصُّبْحَ وَالنُّجُومُ بَادِيَةٌ مُشْتَبِكَةٌ**): هذه الكلمات التي فيها بيان أوقات الصلاة تكرَّرت من عمر رضي الله عنه لعماله[1]. وتكرار قوله في هذا الأثر: (**فمن نام فلا نامت عينه**): توكيد لفظي يراد به التهويل والتقبيح لترك صلاة العشاء.

١- يُنظر شرح النص رقم (٥١٨).

[٥٢٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَقَدْ فَتَحُوا تُسْتَرَ، فَوَجَدُوا رَجُلًا أَنْفُهُ ذِرَاعٌ فِي التَّابُوتِ، كَانُ أَهْلُ تُسْتَرَ يَسْتَظْهِرُونَ وَيَسْتَمْطِرُونَ بِهِ

«إِنَّ هَذَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَالنَّارُ لَا تَأْكُلُ الْأَنْبِيَاءَ، وَالْأَرْضُ لَا تَأْكُلُ الْأَنْبِيَاءَ. فَكَتَبَ أَنِ انْظُرْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ فَادْفِنُوهُ فِي مَكَانٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُكُمَا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه في شأن نبيٍّ ميِّت كان أهل تُستر يتوسَّلون به.

لطائف لغوية: قوله **(انظر أنت وأصحابك)**: سبق - عند شرح الأثر رقم أحد عشر وخمسمئة - الحديث عن حكم عطف الاسم الظاهر على الضمير المستتر، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: قوله: **(إِنَّ هَذَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَالنَّارُ لَا تَأْكُلُ الْأَنْبِيَاءَ، وَالْأَرْضُ لَا تَأْكُلُ الْأَنْبِيَاءَ)**: استعمال اسم الإشارة **(هذا)** فيه تعيين للمشار إليه. وتنكير **(نبي)** للإفراد. وفي قوله: **(والنار لا تأكل الأنبياء، والأرض لا تأكل الأنبياء)**: كان يمكن أن يجمع بين **(النار)** و**(الأرض)** في جملة واحدة، فيوجز ويقول: (والنار والأرض

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥١١).

لا تأكلان الأنبياء)، بل كان يمكن أن يقتصر على قول: (والأرض لا تأكل الأنبياء) اقتصارا على الحال التي يتحدَّث عنها، ولكنَّه أفرد كل واحدة بجملة، وفي ذلك تشريف للأنبياء، وتلذُّذ بالحديث عن تكريم الله - تعالى - لأنبيائه؛ فأطنب في الكلام؛ ففي ذكر (**النار**) إشارة إلى تكريم الله لهم في الآخرة، وفي ذكر (**الأرض**) إشارة إلى تكريم الله لهم في الدنيا. ومقتضى الظاهر أن يقول: (والأرض لا تأكل الأنبياء، والنار لا تأكل الأنبياء)؛ لأنَّ حفظ الله لهم في الدنيا من أن تأكلهم الأرض حاصل قبل حفظه لهم في الآخرة من أن تأكلهم النار، ولكنه قدَّم قوله: (**والنار لا تأكل الأنبياء**) على قوله: (**والأرض لا تأكل الأنبياء**)؛ لأنَّ حفظ الله لأنبيائه من النار أمر مسلَّم به عند كلِّ مسلم، فكأنَّه أراد أن يقول: (كما أنَّ الله حفظ أنبياءه من أن تأكلهم النار، فقد حفظهم من أن تأكلهم الأرض). وقد ورد ذكر حفظ الله - تعالى - لأنبيائه من أن تأكلهم الأرض في قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَّ - عَزَّ وَجَلَّ - حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»[1]. وفي قول عمر رضي الله عنه: (**والنار لا تأكل الأنبياء، والأرض لا تأكل الأنبياء**): تشبيه للنار والأرض - على سبيل الاستعارة - بالحيوان المفترس الذي يأكل جسد من تمكَّن منه. وقوله: (**انْظُرْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ فَادْفِنُوهُ فِي مَكَانٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُكُما**): قيَّد الفعل (**انظر**) بفاعل محدَّد ولم يقل: (**انظروا**) بقصد اقتصار الفعل على الفاعل المذكور. وتنكير (**مكان**) مقصود، وأكَّد تنكيره حين وصفه بقوله: (**لا يعلمه أحد**)، وتنكير (**أحد**) في سياق النفي للعموم، فهذه الألفاظ بهذا الأسلوب تبيِّن شدَّة حرص عمر رضي الله عنه على حماية جناب التوحيد، وقطع السبل الموصلة إلى الشرك، بإخفاء ما قد يخرم ذلك. وتقديمه الحديث عن

١- رواه أحمد (ح١٦١٦٢)، وأبو داود (ح١٠٤٧) والنسائي (ح١٣٧٤)، وابن ماجه (ح١٠٨٥).

تكريم الله - سبحانه وتعالى - لأنبيائه مع إطناب في الحديث إشارة من عمر رضي الله عنه إلى أنَّ منع التوسُّل بالأنبياء والصالحين لا يلزم منه التنقُّص من قدرهم وتكريم الله - تعالى - لهم.

[٥٢٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

«إِنَّ النِّسَاءَ يُعْطِينَ أَزْوَاجَهُنَّ رَغْبَةً وَرَهْبَةً، فَأَيُّمَا امْرَأَةٍ أَعْطَتْ زَوْجَهَا شَيْئًا، فَأَرَادَتْ أَنْ تَعْتَصِرَهُ[١]؛ فَهِيَ أَحَقُّ بِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (تعتصره): تحبسه، وقيل: ترتجعه.

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين ﵁ عن حكم وأنواع العطية من المرأة لزوجها.

لطائف لغوية: قوله: (أَيُّما): هو اسم شرط مركب من (أيّ) الشرطية، و(ما) الزائدة.

البيان والبلاغة: البدء بقوله: (**إِنَّ النِّسَاءَ يُعْطِينَ أَزْوَاجَهُنَّ رَغْبَةً وَرَهْبَةً**): فيه براعة استهلال؛ إذ يقدِّم بمقدِّمة يبني عليها الحكم الذي سيذكره بعدُ. وقد استعمل أسلوب التقسيم ليبيِّن أنَّ النِّساء حين يعطين أزواجهنَّ عطيَّة لا يخلو حالهنَّ في الإعطاء من أن يكون رغبةً أو رهبةً، فقال: (**إنَّ النساء يعطين أزواجهن رغبة ورهبة**): وهذه القسمة حاصرة. ولا يخفى ما بين (رغبة) و(رهبة) من طباق. وقوله: (**فَأَيُّمَا امْرَأَةٍ أَعْطَتْ زَوْجَهَا شَيْئًا فَأَرَادَتْ أَنْ تَعْتَصِرَهُ فَهِيَ أَحَقُّ بِهِ**): تنكير

١- تَعْتَصِره؛ أي: تَحْبسه عنِ الإعطاءِ، وتَمْنَعه مِنهُ. وكلُّ شيءٍ حَبَسْتَهُ ومَنَعْتَهُ فقدِ اعْتَصَرْتَهُ. وقيلَ: يَعْتَصِر: يَرْتَجِعُ. واعْتَصَرَ العطيَّةَ؛ إذَا ارتجَعَهَا. والمعنَى أنَّ الوالدَ إذا أعْطَى ولدَه شيئًا؛ فلهُ أن يأخذَه منهُ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (عصر).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٦٥٦٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢١١٢٢) واللَّفظُ لهُ.

(**امرأة**) و(**شيئا**) في سياق الشرط يفيد العموم؛ فالحكم يشمل كلَّ امرأة تُعطي وكلَّ شيءٍ يعطَى. ومجيء جواب الشرط (**فهي أحقُّ به**) جملة اسميَّة؛ إشارة إلى أنَّ هذا الحكم ثابت لا يتغيَّر.

[٥٣٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى عُمَّالِهِ

«أَلَّا تُفَرِّقُوا بَيْنَ السَّبَايَا وَأَوْلَادِهِنَّ»[١] و«لَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه عمَّالَه في شأن السبايا والأسرى.

البيان والبلاغة: (**أل**) في (**السبايا**) و(**الأخوين**): للاستغراق؛ فالنَّهي شامل للتفريق بين أيِّ امرأة من السبي وأولادها، والتفريق بين أيِّ أخوين. وفي تكراره الفعل (**تُفَرِّقوا**): إطناب، الغرض منه التأكيد على وجوب الامتثال للنهي الثاني، امتثالهم للنهي الأول.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٣٢٧٢).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٣٢٥٩).

[٥٣١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ

«أَنْ لَا تُقْتَلَ نَفْسٌ دُونِي»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين ﵁ عمّاله وأمراءه يأمرهم ألا يُقدموا على قتل أحدٍ في حدٍّ أو غيره، إلا بعد الرجوع إليه.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا تُقتَل نفس دوني**): بنى الفعل (**تُقتَل**) للمفعول؛ ليكون الحكم عامًّا من غير أن يتقيَّد بفاعل بعينه. ومجيء (**نفس**) نكرة في سياق النفي يفيد العموم؛ لذا فأمرُه بألا تُقتل نفس دونَه يشمَل كلَّ فاعل ومفعول به.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٨٤٨٩).

[٥٣٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ وَالِي حِمْصَ وَدِمَشْقَ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَانْهَ مَنْ قَبِلَكَ[1] مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُكَاتِبُوا أَرِقَّاءَهُمْ عَلَى مَسْأَلَةِ النَّاسِ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله (قِبلَكَ)، أي: في جهتك أو ناحيتك.

مقتضى الحال: يخاطب واليه على حمص ودمشق يأمره أن ينهى الناس عن مكاتبة عبيدهم على استجداء وسؤال النَّاس.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَن قِبَلك**): يشمل كلَّ مَن كان في ناحيته لذا قيَّد هذا الظَّرف بالجارِّ والمجرور (**من المسلمين**). وقوله: (**على مسألة الناس**): قد يكون من باب التجوُّز في العبارة؛ لبيان حقيقة ما يؤول إليه الأمر حين يُكاتب العبدُ على ما يشقُّ عليه جمعُهُ وتحصيلُهُ.

١- مضبوطة في الأصل: (قَبِلَك) بفتح القاف وكسر الباء، وهو وهم، والصواب: قِبَلك؛ أي: مَن كان ناحيتَك من المسلمين، وهذا الضبط (قِبَلَكَ) موافق لما في السنن الكبرى للبيهقي (ح٢١٦١٩).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٢٦٤٢)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢١٦١٩).

[٥٣٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى أَمِيرِ الطَّائِفِ فِي عَسَلٍ مَنَعَ أَهْلُهُ مِنْ صَدَقَتِهِ

«إِنْ أَعْطَوْكَ مَا كَانُوا يُعْطُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَاحْمِ لَهُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَحْمِهَا لَهُمْ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فاحم له**): قال ابنُ الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر: «وفي حديث عمر: (كتب إلى عامله بالطائف في خلايا العسل وحمايتها: إن أدى ما كان يؤديه إلى رسول الله ﷺ من عشور نحله فاحم له، فإنما هو ذباب غيث يأكله من شاء)، يريد بالذباب النحل، وإضافته إلى الغيث على معنى أنه يكون مع المطر حيث كان، ولأنه يعيش بأكل ما ينبته الغيث. **ومعنى حماية الوادي له**: أن النحل إنما يرعى أنوار النبات وما رخص منها ونعم، فإذا حميت مراعيها أقامت فيها ورعت وعسلت فكثرت منافع أصحابها، وإذا لم تحم مراعيها احتاجت إلى أن تبعد في طلب المرعى، فيكون رعيها أقل. وقيل: معناه أن يحمي لهم الوادي الذي تعسل فيه فلا يترك أحد يعرض للعسل؛ لأن سبيل العسل المباح سبيل المياه والمعادن والصيود، وإنما يملكه من سبق إليه، فإذا حماه ومنع الناس منه وانفرد به وجب عليه إخراج العشر منه عند من أوجب فيه الزكاة» اهـ.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٠١٤٦).

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه واليه على الطائف في شأن قوم امتنعوا من أداء زكاة عسلهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**إن أعطوك ما كانوا يُعطون رسول الله**): جعل المفعول الثاني لـ (**أعطَوك**) الاسمَ الموصول (**ما**) التي تفيد الإبهام؛ لئلَّا يتحدَّد بمقدار معيَّن وإنَّما يتقيَّد بالوصف المذكور في جملة الصِّلة. وقوله: (**فاحمِ لهم**): حذف مفعول (**احمِ**)؛ لكمال علم المخاطب به. وقوله: (**وإلَّا فلا تحم لهم**): فيه إيجاز حذف، والتقدير: وإن لا يعطونك ما كانوا يُعطون رسول الله ﷺ فلا تحم لهم، وترك ذكر ذلك كراهةَ حصوله.

[٥٣٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ

وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ جَاشَ[1] إِلَيْنَا الْمَوْتُ، وَطَلَبَ الْمَدَدَ:

«إِنَّهُ قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي، وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا وَأَحْضَرُ جُنْدًا: اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَاسْتَنْصِرُوهُ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ نُصِرَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي أَقَلَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ، فَإِذَا أَتَاكُمْ كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ، وَلَا تُرَاجِعُونِي»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا عبيدة رضي الله عنه يرد على كتاب له فيه طلب المدد.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّهُ قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي**): بدأ بإخبار المخاطَب أنَّ كتابه قد وصله، وأكَّد حديثه بـ (**إنَّ**) و(**قد**) لينتفي كلُّ شك في ذهن المخاطَب في عدم اطلاعه على الكتاب، وزاد ذلك تأكيدا بأن أتبعه بذكر مضمون الكتاب ليُعلِمه بأنَّه قد قرأه ووعاه، وفي إسناد المجيء إلى الكتاب مجاز عقلي. وقوله: (**وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْراً وَأَحْضَرُ جُنْدا: اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -**): قوله: (**إنِّي أدلُّكم**): جاء بالفعل بصيغة المضارع إشارة إلى المداومة والاستمرار على هذا الأمر، ومجيء الفعل خبرا لجملة اسميَّة مصدَّرة بـ (**إنَّ**) يؤكِّد ثبوت ذلك ويقرِّره. واستعمال

١- جَاشَ؛ أي: فَاضَ وتَدَفَّقَ وأَقْبَلَ. «النِّهاية» ١/ ٣٢٤، «لسان العرب» ٦/ ٢٧٦، «القاموس» ص٧٥٦.

٢- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٤٤)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» (٥٤٨٥)، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارةِ» (٢٦٢).

الاسم الموصول (مَن) فيه تشويق للمخاطب؛ وذلك أنَّ الاسم الموصول فيه إبهام، فإذا سمعه المخاطب تشوَّفت نفسه لسماع صلة هذا الموصول ليرتفع إبهامه، وصلة الموصول فيها ذكر صفات مَن طلبه المخاطب، وقد زاد من التشويق مجيء اسمَي التفضيل (**أعز**) و(**أحضر**) في صلة الموصول؛ إذ فيهما إبهام أيضا، وارتفع هذا الإبهام بتمييزهما بـ (**نصرا**) و(**جندا**)، لكن صلة هذه لم يتعيَّن بها المقصود بالاسم الموصول، بل زادت من تشوُّف المخاطب وتشوُّقه لمعرفة المقصود بهذا الاسم الموصول، فلمَّا سمع ما ارتفع به الإبهام، وهو قوله: (**اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -**) استقرَّ في نفسه وثبت. وقوله: (**فَإِذَا أَتَاكُمْ كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ، وَلا تُرَاجِعُونِي**): استعمل اسم الإشارة (**هذا**)؛ لتعيين المشار إليه للمخاطب. والفاء في (**فقاتلوهم**): تفيد الترتيب مع التعقيب، فمجيئها يدلُّ على الأمر بقتال العدوِّ فور وصول الكتاب من غير تأخُّر.

[٥٣٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ جُمُوعًا مِنَ الْأَعَاجِمِ كَثِيرَةً قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ بِمَدِينَةِ نَهَاوَنْدَ[١]، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَسِرْ بِأَمْرِ اللهِ، وَبِعَوْنِ اللهِ، وَبِنَصْرِ اللهِ، بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُوطِئْهُمْ وَعْرًا فَتُؤْذِيَهُمْ، وَلَا تَمْنَعْهُمْ حَقَّهُمْ فَتُكَفِّرَهُمْ، وَلَا تُدْخِلَنْهُمْ غَيْضَةً؛ فَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**غَيْضَة**): قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر: «وفي حديث عمر (لا تنزلوا المسلمين الغياض فتضيعوهم). الغياض: جمع غيضة، وهي الشجر الملتف؛ لأنهم إذا نزلوها تفرقوا فيها، فتمكن منهم العدو» اهـ.

مقتضى الحال: يخاطب النعمانَ بن مقرَّن أحدَ قادة جيوشه في شأن معركة نهاوند.

البيان والبلاغة: قوله: (**سَلَامٌ عَلَيْك**): تنكير (**سلام**) للتعظيم. وقوله: (**فَإِنِّي أَحْمَدُ**

١- نَهَاوَنْد: بفَتح النُّونِ الأُولى وتُكسَرُ، والواوُ مفتوحةٌ، ونونٍ ساكنةٍ، ودالٍ مُهمَلةٍ: هي مدينةٌ عظيمةٌ في قَبلةِ همذانَ، بينَهما ثلاثةُ أيَّامٍ، وهي مِن فتوحِ أهلِ الكوفةِ. «معجم البلدان» ٥/ ٣١٣.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ١١٤- ١١٥.

إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ): تكرَّرت هذه العبارة في كتب عمر ﵁، واستعماله الفعل (**أحمد**) بلفظ المضارع إشارة إلى استمراره على هذا الأمر. وقوله: (**فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ جُمُوعًا مِنَ الْأَعَاجِمِ كَثِيرَةً قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ بِمَدِينَةِ نَهَاوَنْدَ**): قوله: (**قد بلغني**): استعمل الفعل (**بلغني**) بلفظ الماضي وأدخل عليه (**قد**)؛ ليحقِّق للمخاطب ثبوت هذا الأمر. وتنكير (**جموعا**) للتكثير، وأكَّد ذلك بالوصف (**كثيرةً**). وجاء في رواية: (**كثيرةٌ**) بالرفعِ لا النصب، وقطعُ إتباعِها لموصوفها المنصوب والعدولُ بها إلى الرفع فيه لفت لانتباه السامع. وقوله: (**قد جمعوا لكم**): حذف مفعول (**جمعوا**)؛ لتذهب نفس المخاطب في تحديده كل مذهب؛ ليكون على استعداد وتأهُّب. وقوله: (**فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَسِرْ بِأَمْرِ اللهِ، وَبِعَوْنِ اللهِ، وَبِنَصْرِ اللهِ، بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**): الباء في (**بأمر الله**) و(**بعون الله**) و(**بنصر الله**) تفيد الاستعانة، وتحتمل المصاحبة، أمَّا الباء في (**بمن معك**) فهي لتعدية الفعل (**سِرْ**) إلى المفعول. وقدَّم تلك المجرورات على المفعول (**بمن معك**)؛ للرعاية والاهتمام بتلك المجرورات. وفي الجملة إطنابٌ ظاهر غرضه التأكيد، مع التلذذ والاستبشار بذكر الله - تعالى -. وقوله: (**وَلَا تُوَطِّئْهُمْ وَعِرا فَتُؤْذِيهِمْ، وَلَا تَمْنَعْهُمْ حَقَّهُمْ فَتكْفُرَهُمْ، وَلَا تُدْخِلَنْهُمْ غَيْضَةً؛ فَإِنَّ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ**): نكَّر (**وعرا**) و(**غيضة**) بعد النهي؛ لإفادة العموم، ولكنَّه لم يفعل ذلك في (**حقَّهم**) وعدل عن التنكير إلى التعريف بالإضافة؛ لتنبيه المخاطَب إلى اختصاصهم بذلك الحق؛ فالإضافة بمعنى لام الملك، كأنَّه قال: (لا تمنعهم حقًّا لهم). وقوله: (**فإنَّ رجلا**): نكَّر (**رجلا**) للإفراد، كأنَّه قال: (**فإنَّ رجلا واحدا من المسلمين أحب**). وقوله: (**وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ**): ختم كتابه بالسلام، إلا أنَّه عرَّفه هنا بعد أن نكَّره في أوَّل كتابه، فـ (**أل**) هنا للعهد الذكري، يعني أنَّه ختم كتابه بالسلام الذي بدأ به.

[٥٣٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ وَهُوَ بِنَهَاوَنْد

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ فَلَا تَفِرُّوا، وَإِذَا ظَفِرْتُمْ فَلَا تَغُلُّوا»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب النعمانَ بن مقرِّن يذكِّره بأمر الصلاة، ويخبره كيف يصنع عند ملاقاة العدو.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا بَعْدُ فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا**): بدأ بذكر الصلاة لأهميتها. وقوله: (**الصلاة**): حذف الصفة، والتقدير: الصلاة المفروضة، وهذا الحذف للاستغناء بـ (**أل**) العهدية في (**الصلاة**) في تعيين الموصوف - في الذهن - مقرونا بصفته. وقوله: (**وَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ فَلَا تَفِرُّوا، وَإِذَا ظَفَرْتُمْ فَلَا تَغُلُّوا**): استعمل (**إذا**) الشرطية إشارة إلى تحقُّق وقوع جواب الشرط. وقد استعمل أسلوب التقسيم ليبيِّن للمخاطب ما ينبغي أن يكون عليه في ساحة المعركة، فذكر أنَّ لهم حالين: حال لقاء العدو، وحال الظفر على العدو، وكانت القسمة العقلية تقتضي حالا ثالثة هي حال هزيمتهم أمام العدو، ولكنَّه أغفلها وترك ذكرها؛ تفاؤلا بالنَّصر، وكراهة ذكر حال تسوء المسلمين. وبين (**تفرُّوا**) و(**تغلُّوا**) سجع.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٢٣٨٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٤٩١) و(٣٤٤٩٢) واللَّفظُ لهُ.

[٥٣٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ(١)

«اسْتَبْشِرْ، وَاسْتَعِنْ فِي حَرْبِكَ بِطُلَيْحَةَ(٢)، وَعَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِبَ(٣)، وَلَا تُوَلِّهِمَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا؛ فَإِنَّ كُلَّ صَانِعٍ هُوَ أَعْلَمُ بِصِنَاعَتِهِ»(٤).

١- النُّعمانُ بنُ مُقرِّنٍ المُزنيُّ: أوَّلُ مَشاهِدِه الأحزابُ، وشهِد بيعةَ الرِّضوانِ، وفتحَ مكَّةَ، وكانَ معَه لِواءُ «مُزَينَةَ» فيها. سكنَ البصرةَ، ثمَّ تحوَّل عنها إلى الكوفةِ. ووجَّهه سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ - بأمرِ عمرَ - إلى مُحارَبةِ الهُرْمُزانِ، فزحفَ بجيشِ الكوفةِ إلى الأهوازِ، وهزمَ الهُرمزانَ. وتقدَّم إلى تُسْتَرَ، فشهِد وقائعَها، وعادَ إلى المدينةِ بشيرًا بفتحِ القادسيَّةِ، ولمَّا وصلتِ الأخبارُ لعمرَ باجتماعِ أهلِ أصبهانَ وهمدانَ والرَّيِّ وأذربيجانَ ونهاوندَ؛ أقلقهُ ذلكَ، فولَّاهُ قتالَهم. وخرجَ النُّعمانُ إلى الكوفةِ، فتجهَّز، وغزا أصفهانَ ففتحَها، وهاجمَ نهاوندَ فاستُشهِد فيها. ولمَّا بلغَ عمرَ مقتلُه؛ دخلَ المسجدَ ونعاهُ إلى النَّاسِ على المنبرِ، ثمَّ وضعَ يدَه على رأسِه يبكي. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ٤٠٣، و«الأعلام» لِلزِّركليِّ ٨/ ٤٢.

٢- طُلَيْحَةُ بنُ خُوَيْلِدِ بنِ نَوْفَلٍ الأَسَدِيُّ: أسلمَ سنةَ تسعٍ، ثمَّ ارتدَّ، وظلمَ نفسَه، وتنبَّأ بنجدٍ، وتمَّت لهُ حروبٌ معَ المسلمينَ، ثمَّ انهزمَ، وخُذِل، ولحِقَ بآلِ جَفْنَةَ الغَسَّانيِّينَ بالشَّام، ثمَّ ارْعَوَى وأسلمَ، وحسُن إسلامُه لمَّا تُوفِّي الصِّدِّيقُ، وأحرمَ بالحجِّ. قالَ ابنُ سعدٍ: كانَ طُلَيحةُ يُعدُّ بألفِ فارسٍ لِشجاعتِه وشدَّتِه، أبلى يومَ نهاوندَ، ثمَّ استُشهِد. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ٣١٦-٣١٧.

٣- عمرُو بنُ مَعْدِ يكَرِبَ [مَعْدِي كَرِبَ] بنِ رَبيعةَ الزُّبَيديُّ: فارسُ اليمنِ، وصاحبُ الغاراتِ المذكورةِ. وفَد على المدينةِ سنةَ ٩ هـ في عشرةٍ مِن بني زُبَيدٍ، فأسلمَ وأسلَموا، وعادُوا. ولمَّا تُوفِّي النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - ارتدَّ عمرٌو في اليمنِ، ثمَّ رجعَ إلى الإسلامِ، فبعثهُ أبو بكرٍ إلى الشَّامِ، فشهِد اليرموكَ، وذهبتْ فيها إحدى عَينَيهِ. وبعثهُ عمرُ إلى العراقِ، فشهِد القادسيَّةَ، وأبلى فيها بلاءً حسنًا. وكانَ عصيَّ النَّفسِ، أبيَّها، فيهِ قسوةُ الجاهليَّةِ. وأخبارُ شجاعتِه كثيرةٌ. لهُ شعرٌ جيِّدٌ، أشهرُه قصيدتُه الَّتي يقولُ فيها:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

تُوفِّي على مقربةٍ مِن الرَّيِّ. وقيلَ: قُتِل عطشًا يومَ القادسيَّةِ. «الطَّبقات الكبرى» ٥/ ٥٢٦، و«الأعلام» للزِّركليِّ ٥/ ٨٦.

٤- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٤٩٣).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب النعمانَ بن مقرِّن يبشِّره بالنصر ويرشده إلى ما يفعل في قتاله.

البيان والبلاغة: قوله: (**اسْتَبْشِرْ**) لم يقيِّد هذا الفعل بما يبيِّن المستبشَر به؛ لتكون البشارة أوقعَ في النفس، وليشوِّق المخاطَب إلى معرفتها. وقوله: (**وَلَا تُوَلِّهِمَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا**): مجيء (**شيئا**) نكرة في سياق النهي يفيد العموم. وقوله: (**فَإِنَّ كُلَّ صَانِعٍ هُوَ أَعْلَمُ بِصِنَاعَتِهِ**): هذا تذييل جرى مجرى المثل، أكَّد به مفهوم قوله: (**لا تولِّهما من الأمر شيئا**). وأتى بضمير الفصل بين اسم (**إنَّ**) وخبرهم؛ ليؤكِّد اتِّصاف اسم (**إنَّ**) بالخبر.

[٥٣٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَه

لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَقَدْ شَاوَرَهُ في جَارِيَةٍ أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَهَا

«لَا تَتَّخِذْ مِنْهُنَّ؛ فَإِنَّهُنَّ قَوْمٌ لَا يَتَعَايَرُونَ[1] الزِّنَا، وَإِنَّ اللهَ نَزَعَ الْحَيَاءَ مِنْ وُجُوهِهِمْ كَمَا نُزِعَ مِنْ وُجُوهِ الْكِلَابِ، وَعَلَيْكَ بِجَارِيَةٍ مِنْ سَبَايَا الْعَرَبِ تَحْفَظُكَ فِي نَفْسِهَا، وَتَخْلُفُكَ فِي وَلَدِهَا»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يتعايرون الزِّنا**)، أي: يعدُّونه عارًا، فيُعير بعضُهم بعضًا به، إذا وقع منهم.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري ﵁، ناصحًا إياه حين استشاره في شراء جارية من العجم.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا تَتَّخِذْ مِنْهُنَّ، فَإِنَّهُنَّ قَوْمٌ لَا يَتَعَايَرُونَ الزِّنَا**): حذف مفعول (**تتَّخذْ**)؛ كراهة ذكره، والتقدير: لا تتَّخذ منهنَّ جارية، ثم استعمل فاء السببية في ذكر علَّة النَّهي، فقال: (**فإنَّهنَّ قومٌ ...**). وقوله: (**وَإِنَّ اللهَ نَزَعَ الْحَيَاءَ مِنْ وُجُوهِهِمْ كَمَا نَزَعَ مِنْ وُجُوهِ الْكِلَابِ**): استعمل أسلوب التشبيه؛ لينفِّر المخاطب من تلك الجارية، فشبَّه النِّساء اللاتي منهنَّ تلك الجارية بالكلاب، وذكر وجه الشبه بين

١- أي: لا يرونه عارًا.

٢- رواهُ ابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٣٨/ ٤٢٧.

المشبَّه والمشبَّه به، وهو خلو كلٍّ من الحياء؛ ليقرِّره في كلٍّ منهما. وفي الجملة استعارة مكنية؛ حيثُ شبه الحياء بالغطاء أو الشيء المحسوس يُنزعُ عن الوجه. وحذف مفعول (**نزع**) في الموضع الثاني؛ لدلالة السياق عليه. وقوله: (**وَعَلَيْكَ بِجَارِيَةٍ مِنْ سَبَايَا الْعَرَبِ تَحْفَظُكَ فِي نَفْسِهَا وَتَخْلُفُكَ فِي وَلَدِهَا**): نكَّر (**جارية**) للإفراد. وقوله: (**تحفظك في نفسها وتخلفك في ولدها**): جواب لسؤال محذوف مفهوم من الجملة السابقة؛ تقديره: لمَ أتَّخذ جارية من سبايا العرب. وبين (**نفسها**) و(**ولدها**) سجعٌ، وبين الجملتين موازنة.

[٥٣٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

لِأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ فِي رَجُلٍ مُسْلِمٍ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

«إِنْ كَانَ لِصًّا أَوْ حَارِبًا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانْ لِطِيَرَةٍ مِنْهُ فِي غَضَبٍ فَأَغْرِمْهُ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (طِيَرَةٍ): الطِيرةُ هي: الفأل الرديء يُتشاءم به، وتطلقُ كذلك على الزلَّة والخطأ، وهو الأنسب هنا.

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري ﵁، يردُّ عليه وقد استفتاه في رجل مسلم قتل رجلاً من أهل الكتاب.

البيان والبلاغة: استعمل في الجواب أسلوب التقسيم؛ إشارة إلى أنَّ حال القاتل لا يخلو من أحد أمرين، فقال: (**إِنْ كَانَ لِصًّا أَوْ حَارِبا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانْ لِطِيَرَةٍ مِنْهُ فِي غَضَبٍ فَأَغْرِمْهُ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ**): وفي قوله: (**وَإِنْ كَانْ لِطِيَرَةٍ مِنْهُ فِي غَضَبٍ**): حذف خبر (**كان**) وأبقى المتعلَّق به - (**لِطيرة منه**) الذي يبيِّن علَّته - دليلا عليه، والتقدير: وإن كان قتله لطيرة منه.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٨٤٨٠).

[٥٤٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ أَخْبَرَنِي بِكَذَا وَكَذَا، وَإِنِّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ فِي مَلَإٍ مِنَ النَّاسِ لَمَا جَلَسْتَ فِي مَلَإٍ مِنْهُمْ فَاقْتَصَّ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ فِي خَلَاءٍ فَاقْعُدْ لَهُ فِي خَلَاءٍ فَيَقْتَصَّ مِنْكَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري، بخصوص رجل شكاه إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه.

لطائف لغوية: قوله: (**كذا وكذا**): كلمة (كذا) - كما قال الأستاذ عباس حسن في النحو الوافي - هي: «كلمة مركبة من (كاف) التشبيه، و(ذا) الإشارية، وصارت بعد التركيب كلمة واحدة ثابتة، تؤدي معنى جديدا مستقلا، لا صلة له بالتشبيه ولا الإشارة». وتستعمل كلمة (**كذا**) كنايةً عن عمل أو عدد. قال صاحب المصباح المنير: «يقال: فعلت كذا، وقلت كذا. فإن قلتَ: فعلتُ كذا وكذا؛ فلتعدد الفعل. والأصل (ذا)، ثم أدخل عليها كاف التشبيه بعد زوال معنى الإشارة والتشبيه، وجعل كناية عما يراد به. وهو معرفة فلا تدخله الألف واللام» اهـ.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥١٨)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٨٠٩، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٠٢٧).

البيان والبلاغة: قوله: (**فَإِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ أَخْبَرَنِي بِكَذَا وَكَذَا**): بدأ بذكر سبب إرسال هذا الكتاب؛ ليكون المخاطب على علم بمضمون الكتاب. وقوله: (**وَإِنِّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ لَمَا جَلَسْتَ فِي مَلَأٍ مِنْهُمْ فَاقْتَصَّ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ فِي خَلَاءٍ فَاقْعُدْ لَهُ فِي خَلَاءٍ فَيَقْتَصَّ مِنْكَ**): قوله: (**إِنِّي أقسم عليك**): استعمل أسلوب القسم ليبيِّن للمخاطب أنَّه جادٌّ في كلامه غير هازل. ثمَّ استعمل أسلوب التقسيم، فذكر له أنَّه في اعتدائه على ذلك الرجل على حالين، وذكر مع كلِّ حال ما يترتَّب عليها. وقوله: (**إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ**): كرَّر هذه العبارة في الموضعين للتخويف والتهديد. واستعمل (**ما**) الموصولة للإبهام؛ لكراهة التصريح بالفعل. وقوله: (**لما جلست**): أدخل (**لام**) التوكيد و(**ما**) الزائدة على الفعل؛ لتقرير حصوله، وزاد في تقرير ذلك حين أتى بالفعل (**جلست**) بصيغة الماضي. وقوله (**فاقتَصَّ منكَ**) و(**فيَقْتَصَّ منك**): بإسناد الفعل إلى الشاكي في الحالين، وجاء في رواية: (**فأقتصُّ منك**) و(**فيُقْتَصَّ منك**): فأسند الفعل لنفسه في الحال الأولى، وبناه للمفعول في الحال الثانية؛ وذلك أنَّ الحال الأولى أشد ضررا فتعيَّن أن يكون هو الذي يقتصُّ بنفسه، وأمَّا في الثانية - وهي أخفُّ - فيقتص أي واحد.

[٥٤١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
إِلَى الْأَمْصَارِ

«إِنِّي لَمْ أَعْزِلْ خَالِدًا عَنْ سَخْطَةٍ وَلَا خِيَانَةٍ، وَلَكِنَّ النَّاس فُتِنُوا بِهِ، فَخِفْتُ أَنْ يُوكَلُوا إِلَيْهِ وَيُبْتَلَوْا بِهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الصَّانِعُ، وَأَلَّا يَكُونُوا بِعَرَضِ فِتْنَةٍ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**بعَرَضِ فتنةٍ**): أراد - والله أعلم -: متعرِّضين لفتنة.

مقتضى الحال: يبيِّن سبب عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه من إمارة الجيش.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَمْ أَعْزِلْ خَالِدا عَنْ سَخْطَةٍ وَلا خِيَانَةٍ**): قوله: (**عن سخطة ولا خيانة**): استعمل حرف الجر (**عن**) إشارة إلى أنَّ المتعلَّق به محذوف، وتقدير الكلام: لم أعزل خالدا صادرا رأيي عن سخطة ... وتنكير (**سخطة**) و(**خيانة**) للإفراد، وزاد (**لا**) لتوكيد النفي. وقوله: (**وَلَكِنَّ النَّاسَ فُتِنُوا بِهِ**): بنى الفعل (**فُتنوا**) للمفعول؛ للفت انتباه المخاطَب إلى وقوع الحدث على المفعول، من غير داع لذكر الفاعل. وقوله: (**فَخِفْتُ أَنْ يوكلوا إِلَيْهِ وَيُبْتَلَوا بِهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الصَّانِعُ، وَأَلا يَكُونُوا بِعَرَضِ فِتْنَةٍ**): قوله: (**أَنَّ الله هو الصانع**): أتى بضمير الفصل بين اسم (**أنَّ**) وخبرها؛ لتأكيد اتصاف الاسم بالخبر.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٦٨، وابنُ عساكرَ ١٦/ ٢٦٨، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ» ٤/ ٢٣١، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٣٦٠، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٤٧.

[٥٤٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَهْلِ رُعَاشٍ(١)

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى أَهْلِ رُعَاشٍ كُلِّهِمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّكُمْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ مُسْلِمُونَ، ثُمَّ ارْتَدَدْتُمْ بَعْدُ، وَإِنَّهُ مَنْ يَتُبْ مِنْكُمْ وَيُصْلِحْ لَا يَضُرُّهُ ارْتِدَادُهُ، وَنُصَاحِبْهُ صُحْبَةً حَسَنَةً، فَادَّكِرُوا وَلَا تَهْلِكُوا، وَلْيُبْشِرْ مَنْ أَسْلَمَ مِنْكُمْ، فَمَنْ أَبَى إِلَّا النَّصْرَانِيَّةَ فَإِنَّ ذِمَّتِي بَرِيئَةٌ مِمَّنْ وَجَدْنَاهُ بَعْدَ عَشْرٍ تَبْقَى مِنْ شَهْرِ الصَّوْمِ مِنَ النَّصَارَى بِنَجْرَانَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ يَعْلَى كَتَبَ يَعْتَذِرُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَهَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، أَوْ عَذَّبَهُ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَسْرًا جَبْرًا، وَوَعِيدًا لَمْ يَنْفُذْ إِلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ أَمَرْتُ يَعْلَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْكُمْ نِصْفَ مَا عَلِمْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي لَنْ أُرِيدَ نَزْعَهَا مِنْكُمْ مَا أَصْلَحْتُمْ»(٢).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أهل رعاش الذين ظهر منهم ارتداد عن الإسلام.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِلَى أَهْلِ رُعَاشٍ كُلِّهِمْ**): أكَّد (**أهل**) بـ (**كلِّهم**)؛ لرفع احتمال عدم الإحاطة والشمول، وفي ذلك إشارة إلى أنَّه يريد إيصال مضمون كتابه هذا إلى كلِّ أهل رعاش من غير استثناء لأحد منهم. وقوله: (**فَإِنَّكُمْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ**

١- الرُّعاش، بضمِّ أوَّلِه، وبالشِّينِ المُعجَمةِ: موضعٌ مِن أرضِ نجرانَ. «معجم ما استعجم» للبكريِّ ٢/ ٦٦٠.

٢- رواهُ القاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٢٧٧)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٤٢٤).

مُسْلِمُونَ، ثُمَّ ارْتَدَدْتُمْ بَعْدُ): استعمل الفعل (**زعم**) إشارة إلى أنَّ ما كانوا عليه من الإسلام مجرَّد زعم منهم؛ لأنَّهم ارتدُّوا بعدُ، فعجيب أمر مَن ذاق حلاوة الإسلام ثم رغب عنه. وقوله: (**وَإِنَّهُ مَنْ يَتُبْ مِنْكُمْ وَيُصْلِحْ لَا يَضُرُّهُ ارْتِدَادُهُ، وَنُصَاحِبُهُ صُحْبَةً حَسَنَةً، فَادَّكِرُوا وَلَا تَهْلِكُوا، وَلْيُبْشِرْ مَنْ أَسْلَمَ مِنْكُمْ**): الضمير في (**وإنَّه**) ضمير الشأن، فهو إضمار قبل ذكر المفسِّر؛ ليحمل المخاطَب على التلهُّف لسماع المفسِّر فيستقر في نفسه حين يسمعه، وقد فسَّر هذا الضمير بقوله: (**من يتب منكم**). وقوله: (**من يتب منكم ويصلح**): اقتباس من قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٣٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات التي أعقبت التوبة بالإصلاح في العمل. وقوله: (**ونصاحبه صحبة حسنة**): تنكير (**صحبة**) للتعظيم. وقوله: (**فادَّكروا ولا تهلكوا**): عبَّر عن الامتثال لأمره في الرجوع إلى الإسلام بالادِّكار؛ لأنَّ الادِّكار سبب له، وعبر عن الإعراض عن الامتثال لأمرْه بالهلاك؛ لأنَّ الهلاك نتيجة له ومسبَّب عنه، فنوَّع في التعبير: مرَّة ذكر السبب ومرَّة ذكر المسبَّب. وفي قوله: (**وليبشر من أسلم منكم**) اكتفاء عن قول: (**وليحذر مَن أعرض منكم**)، وإنَّما اكتفى بذكر ما ذكر رغبةً منه في حصول ذلك لجميع المخاطبين. وقوله: (**فَمَنْ أَبَى إِلَّا النَّصْرَانِيَّةَ فَإِنَّ ذِمَّتِي بَرِيئَةٌ مِمَّنْ وَجَدْنَاهُ بَعْدَ عَشْرٍ تَبْقَى مِنْ شَهْرِ الصَّوْمِ مِنَ النَّصَارَى بِنَجْرَانَ**): القصر في قوله: (**من أبى إلا النصرانية**) حقيقي تحقيقي، وفصل بين الضمير في (**وجدناه**) والحال منه: (**من النصارى بنجران**) بالظرف (**بعد عشر تبقى من شهر الصوم**)؛ لتنبيه المخاطب إلى ضرورة أن يعرفوا هذا الوقت. وقوله: (**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ يَعْلَى كَتَبَ يَعْتَذِرُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَهَ أَحَدا مِنْكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ أَوْ عَذَّبَهُ**

عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَسْرا جَبْرا وَوَعِيدا لَمْ يَنْفُذْ إِلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ): أتى بفصل الخطاب (**أَمَّا بعدُ**): هنا ليشعر المخاطب بأنَّه انتقل إلى موضوع جديد؛ ليكون المخاطب أكثر استعدادا لتلقي هذا الكلام، وقد ذكر في هذا الكلام مضمون كتاب أرسله إليه عاملُه على رُعاش. وقوله: (**أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ أَمَرْتُ يَعْلَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْكُمْ نِصْفَ مَا عَلِمْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي لَنْ أُرِيدَ نَزْعَهَا مِنْكُمْ مَا أَصْلَحْتُمْ**): أتى بفصل الخطاب هنا مرَّة أخرى ليؤكِّد للمخاطب ضرورة الانتباه إلى هذا الكلام الذي ذكر فيه ردَّه على كتاب يعلى، والقصد من ذلك أن يُحيطهم علما به. وقوله: (**وإنِّي لن أريد نزعها منكم ما أصلحتم**): ليس من ضمن ردِّه على كتاب يعلى، ولكنَّه تعقيب على ردِّه، أراد به الاحتراس من أن يفهم المخاطب أن كلامه السابق مطلق، والقصد من ذلك ترغيبهم في الرجوع إلى الإسلام.

[٥٤٣]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه

«الْزَمِ الْحَقَّ يَلْزَمْكَ الْحَقُّ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب معاوية بن أبي سفيان واليه على الشام.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب الطلب وجواب الطلب؛ للدلالة على وجوب تحقُّق جواب الطلب عند تحقُّق فعله. وفي قوله: (**يلزمك الحق**): تشخيص للحق؛ إذ شبَّهه بإنسان له إرادة واختيار، يلزم من لزمه. وهنا إطنابٌ سببه الإظهار في موضع الإضمار، ومقتضى الظاهر أن يقول: (**الزم الحقَّ يلزمك**) بإضمار (**الحقُّ**) الذي هو فاعل (**يلزمك**)؛ لتقدُّم ذكره، ولكنه جاء على خلاف مقتضى الظاهر، فأظهره لتقرير المعنى والتأكيد عليه.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣١٢٩٤).

[٥٤٤]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه

«إِنِّي لَا أُرَانَا إِلَّا قَدْ أَجْحَفْنَا بِالْجَدِّ؛ فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَقَاسِمْ بِهِ مَعَ الْإِخْوَةِ، مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ الثُّلُثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ مُقَاسَمَتِهِمْ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(أجحفنا بالجدِّ)**: قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «وأجحف بالأمر: قارب الإخلال به. وسنة مجحفة: مضرة بالمال. وأجحف بهم الدهر: استأصلهم».

مقتضى الحال: يخاطب الصحابي الفقيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في شأن ميراث الجد؛ فقد كان ابن مسعود يرى رأي عمر رضي الله عنهما في أنَّ الجد يشارك الإخوة في الميراث، فإذا كثروا أُعطي السدس، ثمَّ رأى عمر أنَّ في ذلك إجحافا بالجدِّ؛ لأنَّه بمنزلة الأب، فرأى أن يُعطى ما هو أفضل له بين الثلث ومقاسمة الإخوة.

البيان والبلاغة: قوله: **(إِنِّي لَا أُرَانَا إِلَّا قَدْ أَجْحَفْنَا بِالْجَدِّ)**: القصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: **(لا أُرانا)**: لم يسند الفعل لنفسه فحسب، وإنَّما أسنده لضمير الجمع العائد عليه وعلى ابن مسعود؛ لأنَّهما اشتركا في الرأي، وأدخل **(قد)** على

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٥٩)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣١٨٦٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٢٤٣٧).

الفعل الماضي (**أجحفنا**)؛ لتحقيق ثبوته. وقوله: (**فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَقَاسِمْ بِهِ مَعَ الْإِخْوَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ الثُّلُثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ مُقَاسَمَتِهِمْ**): استعمل اسم الإشارة (**هذا**)؛ لتعيين المشار إليه. واستعمل الفعل (**قاسِم**) للدلالة على المشاركة يعني أن يشارك الجدُّ الإخوة في الحصَّة، نصيبُه كنصيبهم. وقوله: (**ما بينه**): الضمير في (**بينه**) عائد على المصدر المحذوف المفهوم من جملة (**فقاسم به مع الإخوة**)، كأنَّه قال: (ما بين مقاسمته مع الإخوة وبين أن يكون ...). وفي قوله: (**ما بينه وبين**) كرَّر كلمة (**بين**)؛ لإيضاح الفصل بين الطريفين الذين بينهما تخيير.

[٥٤٥]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ

«أَنْ مُرُوا النَّاس يَحُجُّونَ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَأَحِجُّوهُ مِنْ مَالِ اللهِ»[١].

الشرح والتحليل:

مقتضى الحال: يخاطب أمراء الأجناد في شأن أمر الناس بالحجِّ.

البيان والبلاغة: (أل) في (**النَّاس**) للعهد الذهني، فلا تعم الناس كلهم، وإنَّما يقصد بـ (**النَّاس**) هنا المسلمين منهم. وقوله: (**فمن لم يستطع**): حذف مفعول (**يستطع**)؛ لدلالة الجملة السابقة عليه، والتقدير: فمن لم يستطع الحجَّ. وقوله: (**فأحجُّوه**) أفرد الضمير العائد على (مَن) مراعاة للفظها، فلم يقل: (**فأحجُّوهم**)، وفي ذلك تفاؤل بأن يكون مَن لا يستطيع الحجَّ أفرادا قليلين.

١- رواهُ ابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٩٠٧).

[٥٤٦]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

«إِيَّـاكَ وَالضُّجْرَةَ، وَالْغَضَبَ، وَالْغَلَقَ[١]، وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاسِ عِنْدَ الْخُصُومَةِ». وفيه: «أَلَّا يَقْضِيَ إِلَّا أَمِيرٌ؛ فَإِنَّهُ أَهْيَبُ لِلظَّالِمِ، وَلِشَاهِدِ الزُّورِ، وَإِذَا جَلَسَ عِنْدَكَ الْخَصْمَانِ، فَرَأَيْتَ أَحَدَهُمَا يَتَعَمَّدُ الظُّلْمَ؛ فَأَوْجِعْ رَأْسَهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(الضُّجرة)**: التبرُّم والضيق. و**(الغَلَق)**: قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «الغَلَق، بالتحريك: ضيق الصدر وقلة الصبر. ورجل غَلِق: سيئ الخُلُق».

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، يحذِّره وينصحه في أمور تتعلق بالقضاء بين الناس.

البيان والبلاغة: قوله: **(إِيَّاكَ وَالضَّجْرَةَ، وَالْغَضَبَ، وَالْغَلَقَ، وَالتَّأَذِّي بِالنَّاسِ عِنْدَ الْخُصُومَةِ)**: نهاه عن أمور بألفاظ متقاربة المعنى، وكان بإمكانه أن يأتي بلفظ جامع لها مكتفيا به، لكنَّه أتى بهذه الألفاظ زيادة في التفصيل؛ لتقرير النهي عنها. وقوله: **(أَلَّا يَقْضِيَ إِلَّا أَمِيرٌ؛ فَإِنَّهُ أَهْيَبُ لِلظَّالِمِ، وَلِشَاهِدِ الزُّورِ. وَإِذَا جَلَسَ عِنْدَكَ الْخَصْمَانِ،**

١- الغَلَق، بالتَّحريكِ: ضِيقُ الصَّدرِ، وقلَّةُ الصَّبرِ. ورَجُلٌ غَلِقٌ: سَيِّئُ الخُلُقِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (غلق).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٦٧٦).

فَرَأَيْتَ أَحَدَهُمَا يَتَعَمَّدُ الظُّلْمَ، فَأَوْجِعْ رَأْسَهُ): القصر في (**لا يقضي إلا أمير**) حقيق تحقيقي؛ لأنَّه جاء في سياق أمر، ثمَّ علل هذا الأمر. وقوله: (**أهيب للظالم ولشاهد الزور**): كرَّر لام التعدية، فجاء بها مع (**الظالم**) و(**شاهد الزور**)؛ لتقرير تعدِّي الهيبة إلى كلٍّ. وقوله: (**فَأَوْجِعْ رَأْسَهُ**): استعمل أسلوب الكناية؛ لكون التعبير المكَنَّى به ينبِّه على معنىً لا يؤدِّيه اللَّفظ الصَّريح المكنَّى عنه، وهنا ينبِّه على أنَّ الظالم ما تجرَّأ على الظلم إلَّا لوسوسة شيطان تدور في رأسه، فأراد عمر رضي الله عنه طردها من الرأس.

[٥٤٧]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه
إِلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ

«أَنْ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُسَوِّفِينَ[١] بِفِطْرِكُمْ، وَلَا تَنْتَظِرُوا بِصَلَاتِكُمُ اشْتِبَاكَ النُّجُومِ[٢]»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(اشتباك النُّجوم)**: سبق بيان معناه عند شرح النص رقم ثمانية عشرة وخمسمئة.

مقتضى الحال: يخاطب أمراء الأمصار، يأمرهم بتعجيل الفطر وعدم تأخير صلاة المغرب، ولعلَّه أرسل هذا الكتاب قبيل دخول شهر رمضان؛ للتذكير بهذه الأمور التي تتعلَّق به.

البيان والبلاغة: قوله: **(لا تكونوا)** و**(لا تنتظروا)**: أسند الفعلين إلى ضمير الجمع العائد على أمراء الأمصار، والمقصود هم ورعاياهم، وإنَّما أسند الأمر إليهم؛ لأنَّهم المسؤولون عن فرض هذه الأمور في رعاياهم. وقد ذكر هنا أمرين أمر بهما المخاطبين، اقتبسهما من كلام النبي ﷺ الأول: ألَّا يكونوا من المسوِّفين بالفطر،

١- في (٢٠٩٣) من «مُصنَّفِ عبدِ الرَّزَّاقِ»: (المسْبُوقِينَ).
٢- اشتباكُ النُّجومِ: ظهورُ صغارِها بينَ كبارِها، حتَّى لا يَخفَى منها شيءٌ. «جامع الأصول» (٣٢٩٨).
٣- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٩٣) و(٧٥٩٠)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٩٠٣٩).

وهذا أخذه من قول النبي ﷺ: «**لا يَزالُ النَّاسُ بخيرٍ ما عجَّلوا الفِطْرَ**»[١]، والثاني: ألَّا يؤخِّروا صلاة المغرب إلى أن تشتبك النجوم، وقد أخذه من قول النبي ﷺ: «**لا تَزالُ أُمَّتِي على الفِطرَةِ، ما لَمْ يُؤَخِّرُوا المغْرِبَ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ**»[٢]، إلَّا أنَّه في الأوَّل عبَّر عن الأمر بتعجيل الفطر الوارد في الحديث بالنَّهي عن التسويف فيه. وفي الثاني أتى بلفظ (**الصلاة**) مضافة إلى المخاطبين فقال: (**صلاتكم**) ولم يحدِّدها اعتمادا على فهم المخاطب، وقد عُبِّر عنها في الحديث بلفظ (**المغرب**) من غير ذكر (**الصلاة**) اعتمادا على فهم المخاطب أيضا.

١- رواه البخاري (ح١٩٥٧)، ومسلم (ح١٠٩٨).

٢- رواه أحمد (ح٢٣٥٣٤)، وأبو داود (ح٤١٨)، وابن ماجه (ح٦٨٩)، وابن خزيمة (ح٣٣٩).

[٥٤٨]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

وَقَدْ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ لَا يَشْتَهِي الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَفْضَلُ، أَمْ رجل يَشْتَهِي الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا؟

فَكَتَبَ: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَهُونَ الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾[1][2]».

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يجيب عن سؤال وُجِّه إليه.

البيان والبلاغة: تألَّف هذا الجواب من قسمين: الأوَّل: اقتبسه من لفظ السائل، وهو: (**إِنَّ الذِينَ يَشْتَهُونَ الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا**)، والثاني: من لفظ آية مطابق مضمونها للجواب، وهو قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]، مع أن الآية نزلت في سياق غير هذا؛ إذ إنَّها نزلت فيمن كان يخفض صوته بحضرة النبي ﷺ، ولكنَّ عمر شبَّه حال الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها بحال أولئك تشبيها ضمنيًّا، وذلك أنَّ الذين يشتهون المعصية يكون في داخلهم رغبة لفعلها، وخشيتهم من الله تمنعهم، كالذين كانوا يخفضون أصواتهم عند رسول الله، كانت لهم رغبة في رفع أصواتهم

١- سورة الحجرات: الآية ٣.

٢- ذكرهُ ابنُ كثيرٍ في «تفسيرِ القرآنِ العظيمِ» ٧/ ٣٦٨، وعزاهُ إلى «كتابِ الزُّهدِ» للإمامِ أحمدَ، ولم أقِف عليهِ في المطبوعِ.

لطبيعة فيهم، إلا أنَّ خشيتهم من الله، وتعظيمهم لمقام رسول الله ﷺ منعهم من ذلك. فما أبعد نظر هذا الملهم رضي الله عنه وأدَّق فهمه!

[٥٤٩]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ

«إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَأْذَنُ لِلنَّاسِ جَمًّا غَفِيرًا، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَأْذَنْ لِأَهْلِ الشَّرَفِ، وَأَهْلِ الْقُرْآنِ وَالتَّقْوَى وَالدِّينِ، فَإِذَا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ فَأْذَنْ لِلْعَامَّةِ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(جمًّا غفيرا)**: قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «يقالُ: جاء القوم جمًّا غفيرا، والجماء الغفير، وجماء غفيرا: أي مجتمعين كثيرين».

مقتضى الحال: يخاطب أبا موسى الأشعري رضي الله عنه واليه على البصرة، يطلب منه أن يميِّز أهل الفضل والعلم من العامَّة في المجلس.

البيان والبلاغة: قوله: **(إنه بَلَغَنِي أَنَّكَ تَأْذَنُ لِلنَّاسِ جَمًّا غفيرًا)**: ذكر للمخاطَب ما بلغه من غير أن يذكر المبلِّغ؛ لعدم الحاجة إلى تعيينه، وفي كلامه هذا إيجاز حذف، والتقدير: تأذن للناس في الدخول عليك والجلوس إليك جمًّا غفيرا. وقوله: **(فأذن لأهلِ الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين)**: عطف **(الدين)**، و**(التقوى)** على **(القرآن)** من غير أن يكرِّر كلمة **(أهل)**؛ لأنه لا فصل بينها، فأهل القرآن هم

١- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٢٨٦، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٤٤٢).

أهل التقوى وأهل الدين، وظاهر عبارته أنَّ أهل الشرف مغايرون لأهل القرآن والتقوى والدين، وليس كذلك، ولكنه من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ أفضل أهل الشرف هم أهل القرآن والتقوى والدين. وقوله: (**فَإِذَا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ**): لم يقل: فإذا جلسوا؛ لأنَّ قوله: (**أخذوا مجالسهم**) فيه مزيد معنى، وهو تمام الجلوس والاطمئنان في المجلس.

[٥٥٠]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ رضي الله عنه

إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ مَا يَلْقَى مِنْ أَهْلِ مِصْرَ

«كُنْ لِرَعِيَّتِكَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَمِيرُكَ، وَرُفِعَ إِلَيَّ عَنْكَ أَنَّكَ تَتَّكِئُ فِي مَجْلِسِكَ، فَإِذَا جَلَسْتَ فَكُنْ كَسَائِرِ النَّاسِ وَلا تَتَّكِئْ». فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌو: أَفْعَلُ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. وَبَلَغَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّكَ لَا تَنَامُ بِاللَّيْلِ وَلَا بِالنَّهَارِ، إِلَّا مُغَلَّبًا! فَقَالَ: «يَا عَمْرُو! إِذَا نِمْتُ بِالنَّهَارِ ضَيَّعْتُ رَعِيَّتِي، وَإِذَا نِمْتُ بِاللَّيْلِ ضَيَّعْتُ أَمْرَ رَبِّي»[(١)].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عمرَو بن العاص رضي الله عنه، حين شكاه أهل مصر إلى أمير المؤمنين، ينصحه ببعض ما يتعلق بشئون الحكم وسياسة الناس.

البيان والبلاغة: قوله: (**كُنْ لِرَعِيَّتِكَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَمِيرُكَ**): استعمل أسلوب التشبيه ليوضِّح للمخاطب الصورة التي ينبغي أن يكون عليها مع رعيَّته تمام إيضاح، وفي هذا الاستعمال إيجاز قِصَر؛ إذ لو أراد أن يعبِّر عن المقصود من غير استعمال أسلوب التشبيه لطال الكلام. وهذا التشبيه اقتبسه من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**فمَن أحبَّ أن يُزَحزَحَ عن النَّارِ، ويُدخَلَ الجنَّةَ، فلتأتِهِ منيَّتُهُ وهو يؤمِنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى النَّاسِ الذي يُحِبُّ أن يُؤتى إليه**»[(٢)]. وقولُه رضي الله عنه: (**وَرُفِعَ إِلَيَّ**

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٣٥٨٦)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٢٧٣.
٢- رواه مسلم (ح١٨٤٤).

عَنْكَ أَنَّكَ تَتَّكِئُ فِي مَجْلِسِكَ، فَإِذَا جَلَسْتَ فَكُنْ كَسَائِرِ النَّاسِ وَلا تَتَّكِئْ): بنى الفعل (**رُفع**) للمفعول لعدم الحاجة إلى تعيين الفاعل. وقوله (**ولا تتَّكئ**): تتميم؛ إذ المعنى مفهوم لو اقتصر على (**فكن كسائر الناس**)، ولكنه زاد جملة (**ولا تتَّكئ**)؛ لتقرير وتأكيد المعنى. وقوله: (**يَا عَمْرُو! إِذَا نِمْتُ بِالنَّهَارِ ضَيَّعْتُ رَعِيَّتِي، وَإِذَا نِمْتُ بِاللَّيْلِ ضَيَّعْتُ أَمْرَ رَبِي**): بدأ كلامه بنداء المخاطب ليجلب انتباهه. وفي قوله: (**ضيَّعت رعيَّتي**): إيجاز بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، والتقدير: ضيَّعت أمر رعيَّتي، ولكنَّه لما أتى على الحديث عن حقِّ الله - تعالى - قال: (**ضيَّعت أمر ربي**)، فصرَّح بذكر المضاف؛ تأدُّبا مع الله - تعالى -.

[٥٥١]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ
لِأَهْلِ لُدٍّ[١]

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَعْطَى عَبْدُ اللهِ عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ لُدٍّ، وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ أَجْمَعِينَ، أَعْطَاهُمْ أَمَانًا لِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَلِكَنَائِسِهِمْ وَصُلُبِهِمْ، وَسَقِيمِهِمْ وَبَرِيئِهِمْ وَسَائِرِ مِلَّتِهِمْ: أَنَّهُ لَا تُسْكَنُ كَنَائِسُهُمْ، وَلَا تُهْدَمُ، وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا وَلَا مِنْ حَيِّزِهَا وَلَا مِلَلِهَا، وَلَا مِنْ صُلُبِهِمْ، وَلَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يُضَارُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ. وَعَلَى أَهْلِ لُدٍّ، وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ: أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا يُعْطِي أَهْلُ مَدَائِنِ الشَّامِ، وَعَلَيْهِمْ إِنْ خَرَجُوا مِثْلُ ذَلِكَ الشَّرْطِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أهل لُدٍّ؛ يبيِّن لهم ما أعطاهم من الأمان، وما يلزمهم بذلك.

البيان والبلاغة: قوله: (**هَذَا مَا أَعْطَى عَبْدُ اللهِ عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ لُدٍّ وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ أَجْمَعِينَ**): استعمال اسم الإشارة (**هذا**) فيه تعيين للمشار إليه، والمشار إليه هو ما سيذكره في هذا الكتاب. وقد حذف المفعول الثاني

١- لُدٌّ: بالضَّمِّ، والتَّشديدِ، وهو جمعُ أَلَدَّ. والأَلَدُّ: الشَّديدُ الخصومةِ. قريةٌ قربَ بيتِ المقدسِ مِن نواحي فلسطينَ، ببابِها يُدرِكُ عيسى ابنُ مريمَ الدَّجَّالَ، فيَقتُلُه. «معجم البلدان» ٥/ ١٥.

٢- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٦٠٩-٦١٠.

لـ (**أعطى**)؛ للاستغناء باسم الإشارة (**هذا**) عن ذكره. واسم الإشارة (**هذا**) فيه إبهام، ولَمَّا أخبر عنه بالاسم الموصول (**ما**) زاد الإبهام، وهذا الأسلوب يحمل المخاطب على الإصغاء لما في الكتاب حتى يتعيَّن في ذهنه المشارُ إليه، ويرتفع الإبهام الذي حصل لديه، فيستقر المعنى في نفسه، ويبقى عالقا في خُلدِه. وقوله: (**أَعْطَاهُمْ أَمَانًا لِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَلِكَنَائِسِهِمْ وَصُلُبِهِمْ وَسَقِيمِهِمْ وَبَرِيئِهِمْ وَسَائِرِ مِلَّتِهِمْ**): هذا إيضاح للإبهام الحاصل في الجملة السابقة. وتنكير (**أمانا**) للتعظيم. وإدخال لام الاستحقاق على (**كنائسهم**): فيه إشارة إلى تمييزها وتخصيصها بالأمان. وبين: (**أنفسهم**) و(**أموالهم**) و(**كنائسهم**) و(**صُلُبهم**) و(**سقيمهم**) و(**بريئهم**) و(**مِلَّتهم**) سجعٌ ظاهرٌ غيرُ متكلَّف. وبين (**سقيمهم**) و(**بريئهم**): طباق. وقوله: (**أَنَّهُ لَا تُسْكَنُ كَنَائِسُهُمْ وَلَا تُهْدَمُ، وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا وَلَا مِنْ حَيِّزِهَا وَلَا مِلَلِهَا، وَلَا مِنْ صُلُبِهِمْ وَلَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يُضَارَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ**): هذا تفصيل للأمان المذكور في الجملة السابقة. وبناء الأفعال: (**تُسكَن**) و(**تُهدَم**) و(**يُنتقَص**) و(**يُكرَهون**) و(**يُضارَّ**) للمفعول يُفهَم منه أنَّ النَّهي عن حصول هذه الأفعال عام لا يتقيَّد بالنهي عن حصولها من فاعل بعينه، ومعنى ذلك أنَّ عمر رضي الله عنه أعطاهم في ذلك الأمان من أن يفعله المسلمون أو غيرهم. وقوله: (**وَعَلَى أَهْلِ لُدٍّ، وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ فِلِسْطِينَ: أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا يُعْطِي أَهْلُ مَدَائِنِ الشَّامِ، وَعَلَيْهِمْ إِنْ خَرَجُوا مِثْل**): الجار ومجروره وما عُطِف عليه في (**على أهل لُدٍّ ومن دخل معهم ...**) متعلِّق بخبر، بحذف تقديره: واجب. والمبتدأ هو (**أن يعطوا**)، وقدَّم متعلَّق الخبر على المبتدأ؛ لتنبيه المخاطب إلى أنَّ الخبر يخصُّه هو ومن معه. وقوله: (**كما يُعطي أهل مدائن الشام**): فائدة التشبيه هنا بيان المساواة في المعاملة بين المخاطبين وبين غيرهم من أهل الكتاب الذين فتح المسلمون بلادهم.

[٥٥٢]

وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ

لِأَهْلِ إِيلِيَاءَ[١]

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَعْطَى عَبْدُ اللهِ عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ إِيلِيَاءَ مِنَ الْأَمَانِ، أَعْطَاهُمْ أَمَانًا لِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَلِكَنَائِسِهِمْ وَصُلْبَانِهِمْ، وَسَقِيمِهَا وَبَرِيئِهَا وَسَائِرِ مِلَّتِهَا: أَنَّهُ لَا تُسْكَنُ كَنَائِسُهُمْ، وَلَا تُهْدَمُ، وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا، وَلَا مِنْ حَيِّزِهَا، وَلَا مِنْ صَلِيبِهِمْ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يُضَارُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يَسْكُنُ بِإِيلِيَاءَ مَعَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ. وَعَلَى أَهْلِ إِيلِيَاءَ أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا يُعْطِي أَهْلُ الْمَدَائِنِ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا الرُّومَ وَاللُّصُوتَ[٢]، فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ آمِنٌ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ، حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ، وَمَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ، وَعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى أَهْلِ إِيلِيَاءَ مِنَ الْجِزْيَةِ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْ أَهْلِ إِيلِيَاءَ أَنْ يَسِيرَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ مَعَ الرُّومِ، وَيُخَلِّيَ بِيَعَهُمْ وَصُلُبَهُمْ = فَإِنَّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى بِيَعِهِمْ وَصُلُبِهِمْ حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ، وَمَنْ كَانَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَبْلَ مَقْتَلِ فُلَانٍ، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ قَعَدَ، وعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى أَهْلِ إِيلِيَاءَ مِنَ الْجِزْيَةِ، وَمَنْ شَاءَ سَارَ مَعَ الرُّومِ، وَمَنْ شَاءَ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ شَيْءٌ حَتَّى يُحْصَدَ حَصَادُهُمْ. وَعَلَى مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ عَهْدُ

١- إِيلِيَاءُ، بكسرِ أوَّلِه واللَّامِ، وياءٍ، وألفٍ ممدودةٍ: اسمُ مدينةِ بيتِ المقدسِ، قيلَ: معناهُ بيتُ اللهِ. «معجم البلدان» ١/ ٢٩٣.

٢- اللَّصْتُ مِثلُ اللِّصِّ: السَّارِقُ، وجمعُه لُصُوتٌ.

اللهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، وَذِمَّةُ الْخُلَفَاءِ، وَذِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، إِذَا أَعْطُوا الَّذِي عَلَيْهِمْ مِنَ الْجِزْيَةِ»[1]. شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَتَبَ وَحَضَرَ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (اللُّصوت): قال ابن منظور – رحمه الله – في لسان العرب: «اللَّصْتُ، بفتح اللام: اللِّصُّ في لغة طيِّئٍ، وجمعه لُصُوت. وهم الذين يقولون للطَّسِّ: طَسْتٌ. وأنشد أبو عُبيد:

فَتَرَكْنَ نَهْدًا عَيِّلا أَبناؤُهُمْ ... وبَنِي كِنانةَ كاللُّصُوتِ الْمُرَّدِ».

مقتضى الحال: يخاطب أهل إيلياء بعد فتحها، مبيِّنا العهد والأمان الذي بينه وبينهم، وما يجب على كلٍّ من الطرفين.

البيان والبلاغة: قوله: (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا أَعْطَى عَبْدُ اللهِ عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ إِيلْيَاءَ مِنَ الأَمَانِ، أَعْطَاهُمْ أَمَانا لِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَلِكَنَائِسِهِمْ وَصُلْبَانِهِمْ، وَسَقِيمِهَا وَبَرِيئِهَا وَسَائِرِ مِلَّتِهَا: أَنَّهُ لَا تُسْكَنُ كَنَائِسُهُمْ وَلَا تُهْدَمُ، وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا وَلَا مِنْ حَيِّزِهَا، وَلَا مِنْ صَلِيبِهِمْ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يُضَارُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يَسْكُنُ بِإِيلْيَاءَ مَعَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَعَلَى أَهْلِ إِيلْيَاءَ أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا يُعْطِي أَهْلُ الْمَدَائِنِ**): سبق التعليق على مثل هذه العبارات في النص رقم واحد وخمسين وخمسمئة. وقوله هنا: (**ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود**): كلمة (أحد) نكرة جاء في سياق نفي فأفادت

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٦٠٩.

العموم. و(مِن) بيانية، فصار المنع من سكنى إيلياء يشمل كل أحد من جنس اليهود. وقوله: (**وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا الرُّومَ وَاللُّصُوتَ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ آمِنٌ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ، وَمَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ**): تقديم الجار والمجرور (**عليهم**) - المتعلِّق بالخبر - على المبتدأ (**أن يُخرجوا**) يفيد التخصيص، أي: أنَّ هذا الأمر مطلوب منهم لا من غيرهم. وتقديم الجار والمجرور (**منها**) على المفعول (**الروم واللصوت**) للعناية والاهتمام. وفي قوله: (**فمن خرج منهم فإنَّه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم**): راعى لفظَ (مَن) فأفرد الضمير في (**منهم**) و(**فإنَّه**) و(**آمن**) و(**نفسه**) و(**ماله**)؛ إشارة إلى أنَّ كلَّ واحد منهم له حقٌّ بعينه في هذا الأمان. ثمَّ راعى معنى (مَن) فأتى بالضمير مجموعا في (**يبلغوا مأمنهم**)، والسرُّ في هذا العدول هو أنَّه ذكر هنا الغاية التي ينتهي إليها الأمان، وهذا الأمر مشترك بينهم، فلا داعي لتخصيص كل واحد منهم بذلك. وفي قوله: (**ومَن أقام منهم فهو آمن**): أعاد مراعاة لفظ (مَن) فأفرد الضمير في (**فهو آمن**)؛ لتقرير المعنى الذي أشار إليه قبل، وهو أنَّ كلَّ واحد منهم له حقٌّ في الأمان. وقوله: (**وَمَنْ أَحَبَّ مِنْ أَهْلِ إِيلْيَاءَ أَنْ يَسِيرَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ مَعَ الرُّومِ وَيُخْلِيَ بِيَعَهُمْ وَصُلُبَهُمْ فَإِنَّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى بِيَعِهِمْ وَصُلُبِهِمْ، حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ**): فقوله: (**مَن أحب**): يفيد الحرية المطلقة في الاختيار المبني على الرغبة. وقوله: (**يسير بنفسه**): الجار والمجرور (**بنفسه**) فيه تتميم؛ لأنَّ المرء لا يسير إلا ونفسه معه، وفائدة هذا التتميم تقرير ما ذكره قبل من كامل حرِّيتهم في الاختيار. و(**أل**) في (**الروم**) للعهد الذكري. وسرُّ العدول من مراعاة لفظ (مَن) في (**يسير بنفسه وماله**) إلى مراعاة المعنى في (**فإنَّهم آمنون على أنفسهم وعلي بِيعهم ...**): هو أنَّه لا يريد أن يُنشئ أمانا جديدا، وإنَّما يريد أن يُعلِمهم بأنَّ الأمان الذي يتمتَّع به كلُّ واحد منهم، وهم مقيمون، فإنَّه

يبقى لهم إذا خرجوا من إيلياء. وقوله: (**وَمَنْ كَانَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ قَبْلَ مَقْتَلِ فُلَانٍ، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ قَعَدُوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا عَلَى أَهْلِ إِيلْيَاءَ مِنَ الْجِزْيَةِ، وَمَنْ شَاءَ سَارَ مَعَ الرُّومِ، وَمَنْ شَاءَ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ شَيْءٌ حَتَّى يَحْصُدَ حَصَادَهُمْ**): فقوله: (**مِن أهل الأرض**): يريد به كل مَن أقام بإيلياء ممَّن ليس مِن أهلها، فهو عامٌّ يراد به الخاص. وقوله: (**قعدوا عليه**): الضمير في (**عليه**) عائد على الأمان، وحرف الجر (**على**) هنا للاستعلاء المجازي. واستعمال التشبيه في قوله: (**مثل ما على أهل إيلياء**)؛ لإفادة استواء المشبَّه والمشبَّه به في أخذ الجزية. وكلمة (**شيء**) في (**لا يؤخذ منهم شيء**): نكرة في سياق نفي أفادت العموم. وقد استعمل عمر رضي الله عنه أسلوب التقسيم أكثر من مرة، فقسَّم في كتابه هذا المقيمين بإيلياء قسمين: الأوَّل: مَن هم مِن أهلها، والثاني: مَن أقام بها وليس مِن أهلها. ثمَّ قسَّم حال المقيمين مِن أهلها بعد فتحها ثلاثة أقسام، وذكر ما لكلٍّ، وهذه الأقسام هي: مَن أراد أن يخرج منها وحده، ومَن أراد أن يبقى مقيما بها، ومَن أراد أن يخرج مع الروم. ثمَّ قسَّم مَن ليس مِن أهلها ثلاثة أقسام - أيضا -، وذكر ما لكلٍّ، وهذه الأقسام هي: مَن أراد أن يبقى مقيما بإيلياء، ومَن أراد أن يخرج مع الروم، ومَن أراد أن يرجع إلى أهله. وقوله: (**وعَلَى مَا فِي هَذَا الكِتَابِ عَهْدُ الله وَذِمَّةُ رَسُولِهِ وَذِمَّةُ الْخُلَفَاءِ وَذِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَعْطُوا الذِي عَلَيْهِمْ مِنَ الجِزْيَةِ**): اسم الإشارة (**هذا**) يفيد التعظيم. وتكرار كلمة (**ذمَّة**) لتقرير المعنى. وإعادة ذكر الشرط (**إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية**) في آخر الكتاب - مع أنَّه ذكره قبلُ -؛ لتنبيه المخاطب إليه.

الباب الثالث

في المُختارِ مِن حِكَم أميرِ المُؤمِنينَ رضي الله عنه ومواعِظِه وكلامِه الدَّالِّ على زُهدِه وكمالِ ورعِه

[٥٥٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَوَاضَعَ لله رَفَعَ اللهُ حَكَمَتَهُ[١]، وَقَالَ: انْتَعِشْ[٢] نَعَشَكَ اللهُ. فَهُوَ فِي نَفْسِهِ صَغِيرٌ أَوْ فَقِيرٌ، وَفِي أَنْفُسِ النَّاسِ كَبِيرٌ. وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَكَبَّرَ، وَعَدَا طَوْرَهُ وَضَعَهُ اللهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ: اخْسَأْ خَسَأَكَ اللهُ. فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ، حَتَّى إِنَّهُ أَحْقَرُ وَأَصْغَرُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ مِنَ الْخِنْزِيرِ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (حَكَمَتَه): أصلُ الحكَمةِ: أسفلُ وجه الإنسانِ، ورفعُها: كناية عن رفع المنزلة والعزَّة. و**(انتعِش)**: ارتفِع، كما في النهاية لابن الأثير - رحمه الله -. و**(خَسَأَك)**: الخَسْءُ والخُسوءُ: طردٌ وإبعاد مع إذلالٍ وانتقاص. قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «الخاسئ: المطرود. وخسأ الكلب يخسؤه خَسْأ وخُسُوءا، فخَسَأ وانْخَسَأ: طرده. قال: كالكلب، إن قيل له: اخسَأ انخسأ، أي: إن طردته انطرد ... يقال: خسأْتُه فخسأ، أي: أبعدته فبعد».

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٤٢٠: (أي قَدْرَهُ ومَنزِلتَهُ، كما يُقالُ: لهُ عِندَنا حَكَمةٌ؛ أي: قَدْرٌ. وفُلانٌ عَالِي الحَكَمةِ. وقِيلَ: الحَكَمةُ مِنَ الإنسانِ: أَسفلُ وَجهِهِ، مُستَعارٌ مِن مَوضِعِ حَكَمةِ اللِّجامِ، ورَفعُها كِنايةٌ عَنِ الإعزازِ؛ لِأنَّ مِن صفةِ الذَّليلِ تَنكِيسَ رأسِه).

٢- أي: ارتفَعَ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (نعش).

٣- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (٧٣)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٠٢)، وابنُ أبي الدُّنيا في «التَّواضعِ والخمولِ» (٧٨)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٥٠، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٧٧٨٨)، و«الآدابِ» (٢٠٢).

مقتضى الحال: ليس في النصِّ ما يبيِّن مقتضى الحالِ، إلَّا أنَّها موعظةٌ من أمير المؤمنين رضي الله عنه قد تكون في إحدى خطبه أو مواعظه.

البيان والبلاغة: استعمل في هذه الموعظة أسلوب التقسيم، فجعل الناس على صنفين؛ متواضع ومتكبِّر. واستعمل أسلوب الشرط؛ لذكر ما لكلٍّ منهما، إشارةً إلى تحقُّق الجواب عند تحقُّق الشرط. وكرَّر عبارة (**إنَّ العبد**)؛ لتقرير معنى العبودية. وفي قوله: (**إنَّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حَكَمَته**): أظهر اسم (**الله**) في الموضع الثاني وهو موضع إضمار؛ تبرُّكا بذكر اسمه، وتحقيقا لحصول مفعوله. واستعمل الطباق بين (**تواضع**) و(**رفع**) في قوله: (**إذا تواضع لله رفع الله حكمته**)، وبين (**تكبر**) و(**وضع**) في: (**إذا تكبرَّ وضعه الله على الأرض**)؛ لتمكين المعنى في نفس السامع. واستعمل أسلوب المقابلة في قوله: (**فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس كبير**)، وفي قوله: (**فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس صغير**)؛ لإظهار حقيقة المعنى، وليشجِّع المتواضع في الأوَّل، ويثبِّط المتكبِّر في الثاني. وأكَّد ثبوت هذا المعنى وقرَّره حين أتى بالجملة الاسميَّة في الموضعين.

[٥٥٤]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

وَقَدْ خَطَبَ عِنْدَهُ رَجُلٌ، فَأَكْثَرَ الْكَلَامَ:

«إِنَّ تَشْقِيقَ الْكَلَامِ مِنْ شَقَاشِقِ[1] الشَّيْطَانِ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الشقاشق): جمع شقشقة، وهي لهاة البعير.

مقتضى الحال: يوجِّه هذه النصيحة لرجل أكثر من الكلام وتقعَّر في خطبته.

البيان والبلاغة: شبَّه حال المتكلِّم حين يتقعَّر في الكلام ويتشدَّق فيه ويكثر منه لغير فائدة بحال الشيطان حين يُزبِد ويُخرج شِقْشِقته، ووجْه الشبه بشاعةُ كلٍّ؛ في المشبَّه بشاعة المسمَع، وفي المشبَّه به بشاعة المنظر. والأصل في **(الشقاشق)** أنها للبعير، لكنَّه استعارها للشيطان لما استقرَّ في النفوس من بشاعة منظره، كما في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥] فصار التشبيه تشبيه محسوس بمعقول. وحرف الجرِّ (من) في قوله: **(مِن شقاشق الشيطان)**: لابتداء الغاية، فيفيد أنَّ ابتداء خروج مثل هذا الكلام يكون من شقاشق الشيطان ثمَّ يلقيه

١- الشَّقاشِقُ، واحِدتُها شِقْشِقَةٌ؛ وهيَ الَّتي إذا هَدَرَ الفحلُ مِن الإبلِ العِرابِ خاصَّةً خَرجتْ مِن شِدقِه شَبيهةً بالرِّئةِ. فشبَّه عمرُ إكثارَ الخاطِبِ مِنَ الخُطبةِ بهَدْرِ البعيرِ في شِقْشِقَتِه، ثُمَّ نَسَبَها إلى الشَّيطانِ؛ وذلكَ لِما يُدخِلُ فيها مِن الكذبِ وتزويرِ الخاطِبِ الباطلَ عندَ الإكثارِ مِن الخُطبِ، وإنْ كانَ الشَّيطانُ لا شِقشقةَ لهُ، إنَّما هذا مَثَلٌ. «غريب الحديث» للقاسم بنِ سلَّام (شقق).

٢- رواهُ ابنُ وهبٍ في «الجامعِ» (٣٢٢)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٨٧٦)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (١٨٨٠).

على لسان المتكلِّم، أو أنَّه لبيان الجنس، فيفيد أنَّ مثل هذا الكلام من جنس شقاشق الشيطان كريه المنظر. وجمعَ (**الشقاشق**) ولم يقل: (من شقشقة الشيطان) مع أنَّ للبعير شِقْشِقَة واحدة، والأصل بقاء العدد في المستعار له؛ وذلك لأنَّ الجمع فيه إشارة إلى تعدُّد الأنواع، يعني أنَّ شقاشق الشيطان كثيرة متنوعة، وتشقيق الكلام نوع منها.

[٥٥٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّنْفِيرِ مِنَ الْكَذِبِ

«إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ مَا يَكُفُّ - أَوْ يَعِفُّ - الرَّجُلَ عَنِ الْكَذِبِ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (المَعارِيض): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «المَعارِيضُ: جمع مِعراض، مِن التَّعريضِ، وهو خِلافُ التصريحِ من القول. يقال: عرفت ذلك في مِعْراض كلامه ومَعْرِض كلامه، بحذف الألف».

مقتضى الحال: ينفِّر من الكذب، ويبيِّن ما يمكن أن يعين على تركه.

البيان والبلاغة: شبَّه المعاريض - على وجه الاستعارة - برجُلٍ مَن استعان به أعانه وكفَّه عن الكذب.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٦٦١٩)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٦٣٦، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٨٨٤)، والطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (٢٩٢٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٨٤١)، و«شُعَبِ الإيمانِ» (٤٤٥٧).

[٥٥٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْخِلَافَةِ

«لَا يَصْلُحُ هَذَا الْأَمْرُ إِلَّا بِشِدَّةٍ فِي غَيْرِ تَجَبُّرٍ، وَلِينٍ فِي غَيْرِ وَهَنٍ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن الأمر الذي تسير به الخلافة على وجهها الصحيح.

البيان والبلاغة: استعمل اسم الإشارة (**هذا**) للتعظيم. والقصر في: (**لا يصلح هذا الأمر إلا ...**): حقيقي تحقيقي. وفي استعمال أسلوب المقابلة إيضاح وبيان للسياسة التي تسير عليها الخلافة، فقابل بين (**شِدَّة في غير تجبر**) و(**لين في غير وهن**). وقيَّد الشِّدَّة بالجارِّ والمجرور (**في غير تجبر**)؛ لدفع توهُّم أن يخالط الشدَّة تجبُّر، وكذا قيَّد اللِّين بالجارِّ والمجرور في قوله: (**في غير وهن**)؛ لدفع توهُّم أن يخالط اللين وهن.

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراج» ص١٣١، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٣/ ٣٤٤، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣١٢١١)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤١٩، والخلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٣٤٣).

[٥٥٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (التُّؤدة): التأنِّي.

مقتضى الحال: يبيِّن فضل التأنِّي في الأمور، وأنَّه محمود إلا في أمور الآخرة.

البيان والبلاغة: قدَّم الجارَّ والمجرور في قوله: (**في كل شيء**) على الخبر (**خير**)؛ لتنبيه المخاطب، ولفت انتباهه. والقصر في (**إلا ما كان من أمر الآخرة**) حقيقي تحقيقي. وإفراد (**أمر**) للتعظيم. وعمر رضي الله عنه أراد في هذه الموعظة أن يقابل بين أمور الدنيا وأمور الآخرة، بأنَّ التؤدة مطلوبة في أمور الدنيا، والإسراع مطلوب لأمور الآخرة، ولكنه ترك أسلوب المقابلة واستعمل القصر؛ لتقرير المعنى، وترك ذكر المطلوب في أمور الآخر اعتمادا على فهم المخاطب.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦١٩)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٢٥).

[٥٥٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِيَّاكَ وَمُؤَاخَاةَ الْأَحْمَقِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَرَادَ أَنْ يَنْفَعَكَ فَضَرَّكَ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحذِّر من مؤاخاة الأحمق؛ مبيِّنا سبب ذلك.

لطائف لغوية: سبق الحديث عن أسلوب التحذير وصوره عند شرح النص رقم واحد ومئتين، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: ابتدأ كلامه بـ (**إيَّاك**)؛ لتكون أول ما يقرع أذن السامع، فيكون للتحذير وقْعٌ في نفسه. و(**أل**) في (**الأحمق**): لبيان الحقيقة، فتفيد جنس هذا المذكور. ولم يكتفِ عمر ﷺ بالتحذير، وإنَّما أعقب ذلك بذكر العلَّة؛ ليكون كلامه أدعى للاستجابة، فقال: (**فإنَّه ربَّما أراد أن ينفعك فضرَّك**). وفي قوله: (**فضرَّك**) عدل عن استعمال الفعل بصيغة المضارع وأتى به بصيغة الماضي إشارة إلى أنَّه متحقِّق لا محالة. وبين (**ينفعك**) و(**ضرَّك**) طباق.

١- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ٣/ ٣٠٩، وابنُ قتيبةَ في «عيونِ الأخبارِ» ٢/ ٤٧.

[٥٥٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«النَّاس طَالِبَانِ: فَطَالِبٌ يَطْلُبُ الدُّنْيَا، فَارْفُضُوهَا فِي نَحْرِهِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَدْرَكَ الَّذِي طَلَبَ مِنْهَا فَهَلَكَ بِمَا أَصَابَ مِنْهَا، وَرُبَّمَا فَاتَهُ الَّذِي طَلَبَ مِنْهَا فَهَلَك بِمَا فَاتَهُ مِنْهَا. وَطَالِبٌ يَطْلُبُ الْآخِرَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ الْآخِرَةِ فَنَافِسُوهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن حال الناس في طلب الدنيا والآخرة، وشأنَ كلٍّ من القسمين.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التقسيم ليبيِّن أصناف الناس. وذكر موقف المخاطَب من كلِّ صنف، فذكر أنَّهم على صنفين؛ طالب يطلب الدنيا، وطالب يطلب الآخرة، وهذا التفصيل بعد الإجمال يحمل المخاطب على الإصغاء؛ ليعرف تفصيل ما ابتدأ المتكلِّم بإجماله. وفي قوله: (**طالب يطلب**): أتى بالفعل المضارع (**يطلب**)، مع أنَّ المعنى يتمُّ لو قال: (**طالب دنيا ...، وطالب آخرة**)، وفائدة إيراد الفعل المضارع هنا: الإشارة إلى أنَّ طالب كل منهما يستمرُّ في تحصيل مطلوبه. وقوله: (**فارفضوها في نحره**) ضمَّن الفعل (**ارفضوها**) معنى الفعل (ألقوها)، كأنَّه قال: (ارفضوها وألقوها في نحره)، وهذا التعبير يُخيِّل للمخاطَب أنَّ طالب الدنيا يُغري غيرَه ليطلب الدنيا مثله، لذا قال: (**ارفضوها**). وقوله: (**فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَدْرَكَ الَّذِي**

١- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ٣/ ٩٤، والآبيُّ في «نثرِ الدُّرِّ» ٢/ ٣٦، والماورديُّ في «أدبِ الدُّنيا والدِّينِ» ص١٢٢.

طَلَبَ مِنْهَا فَهَلَكَ بِمَا أَصَابَ مِنْهَا. وَرُبَّمَا فَاتَهُ الَّذِي طَلَبَ مِنْهَا فَهَلَكَ بِمَا فَاتَهُ مِنْهَا): هنا استعمل التقسيم مرَّة أخرى؛ ليبيِّن أنَّ طالب الدنيا له حالان: فهو إمَّا أن يدرك ما طلب من الدنيا، وإمَّا أن يفوته ما طلب، وعلى الحالين هو هالك. وفي قوله: (**فإنَّه ربَّما أدرك الذي طلب منها فهلك بما أصاب منها**): حذف مفعول (**طلب**)، ومفعول (**أصاب**)؛ كراهة ذكره، وكلاهما ضمير عائد على الاسم الموصول قبله. وفي هذا السياق استعمل الاسم الموصول (**الذي**)، ثم استعمل الاسم الموصول (**ما**) ومن أسرار هذا التغيير في الاستعمال أنَّه أراد في الأوَّل تعيين المقصود بالاسم الموصول فاستعمل (**الذي**) يعني: أدرك مطلوبه بعينه، لكنَّه في الموضع الثاني أراد معنى العموم فاستعمل (**ما**)، يعنى: هلك بكلِّ ما أصاب من الدنيا. وكذا في قوله: (**وربَّما فاته الذي طلب منها فهلك بما فاته منها**). وقوله: (**وَطَالِبٌ يَطْلُبُ الْآخِرَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ الْآخِرَةِ فَنَافِسُوهُ**): لم يذكر هنا حال طالب الآخرة وما يحصِّل من مطلوبه، كما فعل في حديثه عن طالب الدنيا، وإنَّما اكتفى بأمر المخاطَب بمنافسة هذا الصنف، وفي هذا الأسلوب تشويق للمخاطب وتحفيز له على منافسة هذا الصنف؛ ليعرف بنفسه ما يحقِّق مِن هذا الطلب.

[٥٦٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ تَذَاكَرَ أَصْحَابُهُ عِنْدَهُ الْحَسَب

فَقَالَ: «حَسَبُ الْمَرْءِ دِينُهُ[١]، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ، وَأَصْلُهُ عَقْلُهُ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أصحابه يبيِّن لهم حقيقة الحسَب والمروءة والأصل، وقد سبق نحو ذلك في النص رقم ثلاثة وثمانين ومئتين.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب المشاكلة، فشاكل لفظُه لفظَ المخاطَبين، وغايَر في المعنى؛ تنبيها إلى أن هذا هو الذي ينبغي، وهذا من أسلوب الحكيم، فجعلَ الحسَب الدين، وجعل المروءة الخُلق، وجعل أصل المرء عقلَه. وبين الجمل الثلاث موازنةٌ، وسجعٌ غير متكلَّف.

١- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٣٨١ بلفظ: «حَسَبُ المَرءِ خُلُقُهُ، وكَرمُهُ دِينُهُ». وقالَ: (الحَسَبُ في الأَصلِ: الشَّرَفُ بِالآباءِ وما يُعدُّهُ النَّاس مِن مَفاخِرِهم. وقِيلَ: الحَسَبُ والكَرمُ يكونانِ في الرَّجُلِ وإنْ لم يكنْ لهُ آباءٌ لهم شَرَفٌ، والشَّرفُ والمَجدُ لا يكونانِ إلَّا بِالآباءِ).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٦٤٦٦)، و«الأدبِ» (٢٨٧) و(٢٨٨)، وابنُ أبي الدُّنيا في «العقلِ وفضلِه» (٥)، والخرائطيُّ في «مكارمِ الأخلاقِ» (١٣)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٨١١).

[٥٦١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«مَا وَجَدْتُ لَئِيمًا قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَقِيقَ الْمُرُوءَةِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الْمُروءَة**): ترك ما كان مذمومًا عند أهل الصلاح والعقل.

مقتضى الحال: يبيِّن قلة مروءة اللئيم.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب القصر ليبيِّن رقَّة مروءة اللَّئيم، وهذا القصر حقيقي؛ وهو معرفته بلئيم إلا مع وجود هذه الصفة فيه، وقد أكَّد القصر بالظَّرف (**قطُّ**). وتنكير (**لئيما**) في سياق النفي أفاد العموم. وتكرار الفعل (**وجدت**) فيه إشارة إلى أنَّ هذا الأمر أمر محسوس مشاهد.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٦٥٩).

[٥٦٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَعْقَلُ النَّاس أَعْذَرُهُمْ لَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أعقل النَّاس، وفضل الإعذار لهم.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التفضيل؛ للتنبيه على فضل التماس العذر للناس، فجعل أعقل الناس - على سبيل الادِّعاء - هو أكثر الناس التماسا للأعذار لهم. وهذا الأسلوب فيه تشويق للسامع؛ لأنَّ النفس تتشوَّف إلى معرفة الأفضل، فحين تسمع صيغة التفضيل تصغي لها السمع؛ لتعرف الفاضل.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «مداراةِ النَّاس» (٤١)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧١. [وذكره الثعالبي فيما اختاره من أقوال عمر في (التمثيل والمحاضرة ص ٢٩)]

[٥٦٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْمَوَدَّةِ

« إِذَا رَزَقَكَ اللهُ مَوَدَّةَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ فَتَشَبَّثْ بِهَا مَا اسْتَطَعْتَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن فضل المودَّة بين المسلمين.

البيان والبلاغة: استعمل الفعل (رزق)؛ لأنَّ الرزق عند الناس أمر يبحثون عنه، ويرغبون فيه، فإذا سمعه المخاطَب لفت انتباهه وأصغى للحديث. وقوله: (**مودَّة امرئ مسلم**): نكَّر (امرئ) للإفراد. وقيَّد هذه النكرة بالوصف (**مسلم**)؛ لأنَّ غير المسلم لا يُحرَص على مودَّته. وقوله: (**فتشبَّث بها ما استطعت**): شبَّه المودَّة بأمر محسوس يُمكن أن يُتشَّبث به، وقيَّد هذا التشبُّث بـ (**ما**) المصدرية الظرفية؛ ليكون المخاطَب حريصا على تحقيق هذا الأمر بصورة مستمرَّة.

١- رواهُ ابنُ سمعونٍ في «أماليه» (١٠٥).

[٥٦٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَظُنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ فِي مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحثُّ على التماس الأعذار للناس وإحسان الظن بهم.

البيان والبلاغة: بدأ الكلام بـ(**لا**) الناهية؛ ليكون النهي أوَّل ما يقرع أذن السامع، فيقع في قلبه أنَّ الكلام أمر لابدَّ من الانتهاء عنه. وتنكير (**كلمة**) للإفراد. وتنكير (**مسلم**) للتعظيم، وهذا الوصف استُغني به عن ذكر الموصوف (**رجل**). وتقييد الفعل (**خرجت**) بالجارِّ والمجرور (**مِن فِي مسلم**) خرجَ مخرج الغالب؛ فخروج الكلمة من فِي مسلمة له الحكم نفسه. وفي قوله: (**تجد لها في الخير محملا**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**في الخير**) على المفعول (**محملا**) للتنبيه والاهتمام. وتنكير (**محملا**) للإفراد، يعنى لو وجد محملا واحدا في الخير لتلك الكلمة وجب حمله عليه، فكيف إذا وجدت محامل كثيرة؟!

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «مداراةِ النَّاس» (٤٥).

[٥٦٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ امْرِئٍ، وَلَا صِيَامِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَإِلَى وَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى[١]، وَإِلَى أَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (أشفى): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «أي: أشرف على الدنيا وأقبلت عليه».

مقتضى الحال: يبيِّن أنَّ دين المرء الحق يظهر في صدقه وورعه وأمانته، ولا يقتصر على أعماله الظاهرة.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ امْرِئٍ وَلَا صِيَامِهِ**): تنكير (امرئ) لقصد عدم التعيين، ومجيء النكرة في سياق النهي يفيد العموم. وقوله: (ولا صيامه): زاد (لا) لتأكيد النفي. وقوله: (**وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَإِلَى وَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى، وَإِلَى أَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ**): كان يمكن أن يكتفي بأن يقول: (ولكن انظروا إلى صدق حديثه، وإلى ورعه، وإلى أمانته)، ولكنه زاد الظرف (إذا حدَّث) والظرف (إذا أشفى) والظرف (إذا ائتمن) تتميما؛ لأنَّ هذه الظروف هي أشدُّ ما يكون المرء بحاجة فيها إلى تلك الأفعال التي قُيِّدت بها. وهنا كرَّر حرف

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٤٨٩: (أي أشْرَفَ على الدُّنيا، وأَقبلَتْ عليهِ). وفي رِوايةٍ: (إذا أَشَافَ) وهو بمعنى أَشْفَى. يُنظَرُ: «النِّهاية» ٢/ ٥٠٩.

٢- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الورعِ» (٢١٤).

الجر (إلى) مع (**الصدق**) ومع (**الورع**) ومع (**الأمانة**)، وقبلُ لم يأتِ به مع (**الصيام**) واكتفى بالداخل على (**الصلاة**)، ومن لطيف ذلك أنَّه أراد قبلُ ذكرَ بعض أنواع العبادات الظاهرة فجعلها كالشيء الواحد، لكن في قوله: (**انظروا إلى صدق حديثه إذا حدَّث، وإلى ورعه إذا أشفى، وإلى أمانته إذا ائتمن**) قصد أن يُنظَر إلى كلٍّ واحد من هذه الثلاثة على حدة.

[٥٦٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مُرُوءَةُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ، وَشَرَفُهُ حَالُهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن فضل وأهمية رجاحة العقل وحسن الأحوال للمرء.

البيان والبلاغة: جعل رجاحة عقل المرء كاملَ مروءته، وما يظهر من حاله تعاملا وأخلاقا وتصرُّفا هو كاملَ شرفه، وذلك على سبيل الادِّعاء والمبالغة؛ لأنَّ رجاحة العقل هي ما يحفظ للمرء مروءته، والحال الظاهرة للمرء من تعامل وأخلاق هي ما يصون شرفه. وفي كلامه لم يقيِّد العقل بالرجاحة، وكذا أطلق الحال ولم يقيِّدها بما يظهر عليها، وذلك اعتمادا على فطنة المخاطَب. وفي الجملتين إيجاز واضحٌ؛ حيثُ قلة الألفاظ وغزارة المعاني.

١- رواهُ القاليُّ في «أماليه» ٢/ ١٦٧.

[٥٦٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ مِنَ النَّاس نَاسًا يَلْبَسُونَ الصُّوفَ إِرَادَةَ التَّوَاضُعِ، وَقُلُوبُهُمْ مَمْلُوءَةٌ عُجْبًا وَكِبْرًا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن حال من يتظاهر بالتواضع وهو يبطن خلافه.

البيان والبلاغة: قوله: (**إنَّ مِن النَّاس ناسا**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**من الناس**) على اسم (**إنَّ**)؛ ليحصر ذهن المخاطَب فيمَن يتعلَّق به الكلام. ونكَّر (**ناسا**) للإبهام. وقوله: (**يلبسون الصوف**): حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، والتقدير: يلبسون ملابس الصوف، وهذه الإضافة من إضافة الموصوف إلى صفته، فحذف الموصوف؛ استغناءً بالصفة، وليلفت ذهن المخاطب إليها. وقوله: (**إرادة التواضع**): أراد تعليل الفعل (**يلبسون**)، فلم يقل: (يلبسون الصوف تواضعا)، وإنَّما قال: (**إرادة التواضع**)؛ ليبيِّن أنَّهم يلبسونه لا لذات التواضع، لكنهم يريدون التظاهر به لأغراض أخرى. وقوله: (**وقلوبهم مملوءة عجبا وكبرا**): شبَّه القلوب بالأوعية، وشبَّه العُجب والكِبر بشيء يملؤها، ونصب (**عُجبا**) و(**كِبرا**) على التمييز إشارة إلى امتلاء تلك القوب بها عن آخرها.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٦٧٦).

[٥٦٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا النَّارُ فِي يَبْسِ الْعَرْفَجِ[١] بِأَسْرَعَ مِنَ الْكَذِبِ فِي فَسَادِ مُرُوءَةِ أَحَدِكُمْ؛ فَاتَّقُوا الْكَذِبَ، وَاتْرُكُوهُ فِي جِدٍّ وَهَزْلٍ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (العرفج): نوع من النبت، شديد الاشتعال.

مقتضى الحال: يبيِّن خطر الكذب على المروءة، وينهى عنه.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التفضيل؛ ليبيِّن أنَّ إفساد الكذب للمروءة أسرع من انتشار النار في العرفج اليابس، ولكنَّه لم يقل: (إفساد الكذب لمروءة أحدكم أسرع من انتشار النار في يبَس العرفج)، بل عكس أسلوب التفضيل وجاء به منفيًّا وابتدأ بذكر المفضول؛ وذلك أنَّه لما استقرَّ في النفوس سرعة انتشار النار في العرفج اليابس، ابتدأ بذكره منفيًّا؛ ليجلب انتباه السامع ويشوِّقه إلى معرفة ما هو أسرع منه، حتى إذا سمعه استقرَّ في نفسه. وحرف الجرِّ (في) في قوله: **(في يبس العرفج)**: يفيد الظرفية الحقيقية، أمَّا في قوله: **(في فساد)**: فيفيد الظرفية المجازية. وقوله: **(فَاتَّقُوا الْكَذِبَ، وَاتْرُكُوهُ فِي جِدٍّ وَهَزْلٍ)**: جمع بين الأمر بالاتِّقاء والأمر بالترك؛ ليكون أمره أبلغ في دفع الكذب، فاتِّقاء الشيء يكون قبل حصوله، وتركه

١- العَرْفَجُ: شجرٌ معروفٌ صغيرٌ، سريعُ الاشتِعالِ بِالنَّارِ، وهو مِن نباتِ الصَّيفِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (عرفج).

٢- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٧٤٤).

يكون بعد وقوعه، فعلى هذا يكون النهي عن الكذب مطلقا في جميع الحالات. ونصَّ على حالتَي (**الجد والهزل**) - وإن كانت النفوس تتسمَّح به في الهزل أكثر -؛ ليبيِّن أن الكذب في الحالين سواء. وبين (**جد**) و(**هزل**) طباق.

[٥٦٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«نَسْتَعِينُ بِقُوَّةِ الْمُنَافِقِ، وَإِثْمُهُ عَلَيْهِ»(١)

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أنَّه قد يستعين بالمنافق مع علمه بأنَّه منافق، وعلمه أيضا بأنَّه آثم في نفاقه، وليس له أجر في عمل.

البيان والبلاغة: قوله: (**نستعين بقوَّة المنافق**): عدَّى الاستعانة إلى (**قوة المنافق**) ولم يقل: (نستعين بالمنافق)؛ إشارة إلى أنَّه لم يستعن بالمنافق لذاته، وإنَّما به لقوَّة عنده. ولم يكتفِ بهذا الكلام، بل أتى بقوله: (**وإثمه على نفسه**) احتراسا؛ لدفع توهُّم أن يكون المنافق مأجورا في الاستعانة به، ولدفع توهُّم أن تكون الاستعانة به ساترا عليه، أو رافعة من شأنه، أو غاضَّة من عظيم إثمه.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣١٢٩٥).

[٥٧٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الدُّنْيَا

«مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَنَفْجَةِ أَرْنَبٍ[١]»[٢]

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (نفجة أرنب): قفزته.

مقتضى الحال: يبيِّن سرعة انقضاء الدنيا إذا ما قورنت بالآخرة.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التشبيه؛ لبيان سرعة انقضاء الدنيا، فشبَّه مدَّة الدنيا قياسا مع مدَّة الآخرة بقفزة أرنب، ووجه الشبه سرعة كلٍّ، وكونها تأتي بغتةً. ونكَّر (أرنب) للتقليل، وأكَّد التشبيه بأسلوب القصر، وهو قصر ادِّعائي لتقريب الصورة. وحرف الجرِّ (في) يفيد المقايسة، ويفيد الظرفية المجازية، أي: مدَّة الدنيا في جانب مدَّة الآخرة.

١- أي: كَوَثْبَتِهِ مِن مَجْثَمِهِ، يُرِيدُ في تَقلِيلِ المُدَّةِ. «شرح السُّنَّة» للبغويِّ ١١/ ٢٤٢.

٢- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (١١٨٢)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» (٥٧٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦١٦)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٦٠)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الزُّهدِ» (١٣) و«قِصَرِ الأملِ» (١٢٨)، و«ذمِّ الدُّنيا» (١٣)، وابنُ الأعرابيِّ في «الزُّهدِ وصفةِ الزَّاهدينَ» (١١٩).

[٥٧١]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

«مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً إِلَّا وَجَدَ لَهُ فِي النَّاس حَاسِدًا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأً أَقْوَمُ مِنَ الْقِدْحِ لَوَجَدَ لَهُ النَّاسُ مَنْ يَغْمِزُ عَلَيْهِ[١]، فَمَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (القِدْح) - بكسر القاف وإسكان الدال -: السهم بلا نصل.

مقتضى الحال: يبين حال الناس مع النِّعم، ويأمر بحفظ اللسان عن السوء.

البيان والبلاغة: قوله: **(مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً إِلَّا وَجَدَ لَهُ فِي النَّاسِ حَاسِدًا)**: القصر هنا حقيقي تحقيقي. وتنكير **(عبد)** في سياق النفي يفيد العموم. واستعمال لفظ **(عبد)** فيه إشارة إلى افتقاره إلى تلك النعمة من الله - تعالى - وحاجته إليها. وتنكير **(نعمة)** للإفراد. وقوله: **(وجد له في الناس حاسدا)**: استعمل الفعل **(وجد)** بصيغة الماضي لتقرير حصوله. وأفرد **(حاسدا)** للدلالة على الأقل مع احتمال أكثر من ذلك، ونكَّره للتحقير. والجار والمجرور **(له)** متعلِّق بالمفعول الأول لـ **(وجد)**، وهو **(حاسدا)**، والتقدير: وجد حاسدا له في الناس، فقدَّم الجارَّ والمجرور **(له)** على متعلَّقه للتنبيه، وكذا قدَّم الجارَّ والمجرور **(في الناس)** - الواقع موقع المفعول الثاني لـ **(وجد)** - على المفعول الأوَّل **(حاسدا)** للتنبيه أيضا، ولفت الانتباه. وقوله: **(وَلَوْ**

١- أي: معيبًا طاعنًا. «لسان العرب» ٥/ ٣٩٠.

٢- «مناقب أمير المؤمنين عمر» لابنِ الجوزيِّ ص٢٠٣.

أَنَّ امْرَأً أَقْوَم مِنَ القَدَحِ لَوَجَدَ لَهُ النَّاسُ مَنْ يَغْمِزُ عَلَيْهِ): أراد بيان شدَّة استقامة المرء باستعمال أسلوب التفضيل، ففضَّله على (**القِدْح**) لما عُرف عند العرب من شدَّة استقامته؛ لأن القِدح لابدَّ من أن يكون مستقيما استقامةً تامَّة ليُصيب الهدف، وقد ورد التشبيه بالقِدْح لبيان شدَّة الاستقامة في قول النبي ﷺ: «**اقرؤوا القرآنَ، وابتغوا به اللهَ، مِن قَبلِ أن يأتيَ قومٌ يُقيمونَهُ إقامةَ القِدْحِ، يتعجَّلونَه، ولا يتأجَّلونَه**»[1].

وقوله: (**لوجد له الناس**): قيَّد الفعل (**وجد**) بالجارِّ والمجرور (**له**) للتخصيص. وقوله: (**من يغمز عليه**): استعمل الاسم الموصول (**من**) لإفادة العموم، وعدَّى الفعل (**غمز**) بـ (**على**)؛ لتضمُّنه معنى الفعل (**عاب**). وقوله: (**فَمَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ**): جعل كلًّا من فعل الشرط وجواب الشرط فعلا ماضيا؛ للدلالة على تأكيد تحقُّق الجواب عند تحقُّق الشرط. وفي الجملة إيجاز حذفٍ، والتقدير: فمن حفظ لسانه عن السوء سترَ اللهُ عورته.

١- رواه أحمد وأبو داود.

[٥٧٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي فَسَادِ الدِّينِ وَهَلَاكِ النَّاس

«قَدْ عَلِمْتُ مَتَى صَلَاحُ النَّاس، وَمَتَى فَسَادُهُمْ: إِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الصَّغِيرِ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ الْكَبِيرُ. وَإِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الْكَبِيرِ تَابَعَهُ الصَّغِيرُ، فَاهْتَدَيَا»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه أسباب صلاح الناس وفسادهم، وأهمية أخذ العلم عن الأكابر دون غيرهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**قَدْ عَلِمْتُ مَتَى صَلَاحُ النَّاسِ وَمَتَى فَسَادُهُمْ**): أكَّد ثبوت علمه بصلاح الناس وفسادهم باستعماله الفعل (**عَلِم**) - الذي يفيد اليقين - بصيغة الماضي وإدخال الحرف (**قد**) عليه الذي يفيد التحقيق. واستعمل المصدر (**صلاح**) و(**فساد**) ولم يستعمل الفعل من هذين المصدرين؛ وذلك لئلَّا يقيِّد الصلاح والفساد بوقت معيَّن. وقدَّم ذكر (**الصلاح**) على ذكر (**الفساد**) للتفاؤل بالصلاح. واستعمل أسلوب اللَّف والنَّشر غير المرتَّب؛ لبيان متى يكون صلاح الناس ومتى يكون فسادهم، وإنَّما استعمله مشوَّشا غير مرتَّب اعتمادا على فهم السامع، فبعد أن ذكر أنه يعلم متى يكون صلاح الناس ومتى يكون فسادهم، ذكر متى يكون فساد

١- رواهُ ابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (١٠٥٥)، وعزاهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتحِ الباري» ١٣/ ٣٠١ - ٣٠٢ إلى «مُصَنَّفِ قَاسِمِ بْنِ أَصْبَغَ»، وصحَّحهُ.

الناس، فقال: (**إِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الصَّغِيرِ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ الْكَبِيرُ**)، ثم ذكر متى يكون صلاحهم، فقال: (**وَإِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الْكَبِيرِ تَابَعَهُ الصَّغِيرُ، فَاهْتَدَيَا**).

وبين (**الصغير**) و(**الكبير**) في الموضعين طباق، وبين الجملتين مقابلة.

[٥٧٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا يَحْزُنْكَ أَنْ يُجْعَلَ لَكَ كَثِيرُ حَظٍّ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكَ، إِذَا كُنْتَ ذَا رَغْبَةٍ فِي أَمْرِ آخِرَتِكَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه أنَّ إقبال الدنيا على المرء ليست علامة سوء، ما بقي مقبلا على الآخرة راغبا فيها.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا يحزنك أن يُجعل لك كثير حظ من أمر دنياك**): بنى الفعل (**يُجعل**) للمفعول؛ لتقييد ذهن السامع بالحدث الذي يفيده هذا الفعل، ولأنَّ الذي يُقدِّر الحظَّ معلوم ضرورةً، وهو الله - تعالى -. وقوله: (**كثير حظ**): أضاف الصفة (**كثير**) إلى موصوفها (**حظ**)؛ لتأكيد لصوقها به. وقوله: (**أمر دنياك**): أضاف (**الدنيا**) لضمير المخاطب - مع أنَّها عامَّة مشتركة بين الناس -؛ لأنَّها في نظر كل فرد كأنَّها خاصَّة به. وفي قوله: (**إذا كنت ذا رغبة في أمر آخرتك**): تنكير (**رغبة**) يفيد التعظيم. وفي قوله: (**أمر آخرتك**): أضاف (**الآخرة**) إلى ضمير المخاطب؛ لتحفيزه على الاهتمام بها على اعتبار أنها حق له إن عمل لها. وبين (**دنياك**) و(**آخرتك**) طباق.

١- «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب» لابنِ الجوزيِّ ص١٨١.

[٥٧٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الْوَالِيَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِأَرْبَعٍ، إِنْ نَقَصَ وَاحِدَةً لَمْ يَصْلُحْ لَهُ أَمْرُهُ: قُوَّةٍ عَلَى جَمْعِ هَذَا الْمَالِ مِنْ أَبْوَابِ حِلِّهِ، وَوَضْعِهِ فِي حَقِّهِ، وَشِدَّةٍ لَا جَبَرُوتَ فِيهَا، وَلِينٍ لَا وَهَنَ فِيهِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين رضي الله عنه الصفات الأربعة التي بها صلاح الولاة.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الْوَالِيَ لا يَصْلُحُ إِلا بِأَرْبَعٍ**): جعل خبر المبتدأ جملة فعلية؛ للدَّلالة على ضرورة استمرار اتِّصاف المبتدأ بهذا الخبر. وجاء في الجملة الخبرية بأسلوب القصر الحقيقي التحقيقي؛ لتأكيد المعنى. وقوله: (**إلا بأربع**): ذكر العدد مبهما؛ ليلفت ذهن السامع ويشوِّقه لمعرفة هذه الصفات، فيكون لها وقع في نفسه حين يسمعها، وهذا الأسلوب ورد في أحاديث كثيرة، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**لا حسدَ إلا في اثنتينِ: رجلٌ آتاه اللهُ مالا فسلَّطه على هلكته في الحقِّ، ورجلٌ آتاه اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلِّمها**»(٢). وقوله: (**إِنْ نَقَصَ وَاحِدَةً لَمْ يَصْلُحْ لَهُ أَمْرُهُ**): أتى بهذه الجملة الاعتراضية؛ لتأكيد أنَّ جملة القصر السابقة جملة قصر حقيقي تحقيقي لا ادِّعائي. وفي قوله: (**لم يصلح له أمره**): الجارُّ والمجرور (**له**) فيه تتميم؛ إذ المعنى مكتمل من دونه، لكن فيه تنبيه للوالي أنَّ أمره إن لم يصلح

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٣٠٣٤).

٢- رواه البخاري ومسلم.

فإنَّ ضرر عدم صلاحه لا يقتصر على غيره، بل يرجع عليه أيضا. وقوله: (**قُوَّةٍ عَلَى جَمْعِ هَذَا الْمَالِ مِنْ أَبْوَابِ حِلِّهِ، وَوَضْعِهِ فِي حَقِّهِ**): هاتان الصفتان هما الأولى والثانية من الأربعة، وهما متعلِّقتان بالمال، قدَّمهما على الصفتين الثالثة والرابعة؛ لكمال العناية بالأمر الذي تتعلَّقان به. وفي قوله: (**قوَّة على**): حرف الجر (**على**) يفيد الاستعلاء المجازي. وقوله: (**هذا المال**): استعمل اسم الإشارة؛ للتعيين، ويقصد به مال بيت مال المسلمين. وقوله: (**من أبواب حلِّه**): شبَّه موارد بيت المال من صدقة وزكاة وفيء ونحوها ببيوت لها أبواب، والطريقة المشروعة لجمع المال من هذه الموارد تكون من خلال طلبها من أبوابها المشروعة لهذا الأمر. وبين (**حلِّه**) و(**حقِّه**) جناس ناقص. وقوله: (**وَشِدَّةٍ لا جَبَرُوتَ فِيهَا، وَلِينٍ لا وَهَنَ فِيه**): هاتان الصفتان هما الثالثة والرابعة من الصفات الأربع، وهما متعلِّقتان بتعامل الوالي مع رعيَّته، استعمل فيهما أسلوب المقابلة، فقابل بين الصفتين؛ لينبِّه الوالي إلى ضرورة الجمع بينهما.

[٥٧٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنْ خَافَ اللهَ لَمْ يَشْفِ غَيْظَهُ، وَمَنِ اتَّقَى اللهَ لَمْ يَصْنَعْ مَا يُرِيدُ، وَلَوْلَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَكَانَ غَيْرُ مَا تَرَوْنَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين ﷺ صفاتِ التقيِّ الذي يخشى الله - سبحانه وتعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَنْ خَافَ اللهَ لَمْ يَشْفِ غَيْظَهُ، وَمَنِ اتْقَى اللهَ لَمْ يَصْنَعْ مَا يُرِيدُ**): مجيء الفعلين (**خاف**) و(**اتَّقى**) بصيغة الماضي؛ لتقرير ثبوت معناهما. وقوله: (**لم يشفِ**)، و(**لم يصنع**) استعمل أداة النفي (**لم**)؛ لإفادة النفي المؤكَّد. وفي قوله: (**ومن اتّقى الله**): أظهر اسم الله - تعالى - في موضع إضمار، إذ مقتضى السياق أن يقول: (ومن اتَّقاه)، وفائدة الإظهار هنا تقرير تعليق التقوى بالله وحده، والتلذذ بذكره - سبحانه وبحمده -. وقوله: (**لم يصنع ما يريد**): الاسم الموصول (**ما**) يفيد العموم. وقوله: (**وَلَوْلَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَكَانَ غَيْرُ مَا تَرَوْنَ**): هذه الجملة فيها إيجاز قِصَر؛ فالمعنى الذي يريده: أنَّه لولا وجود يوم القيامة وما فيه من الحساب وردِّ الحقوق لأصحابها = لسعى كلُّ إنسان في الدنيا لأخذ حقِّه واعتدى الناسُ بعضُهم على بعضٍ، لكن مَن آمن بالله واليوم الآخر وأيقن بالحساب = وكَل أمره إلى الله -

---

١- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (١٠٥)، والدُّولابيُّ في «الكُنَى والأسماءِ» (١٤٧٩)، والدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٣٦٤)، وأبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٨/ ٥٧.

تعالى - واحتسب أمره عنده. أو يُقال: لولا يوم القيامة آتٍ وفيه ما فيه من الحساب والجزاء الأهوال = لكان مني مع الناس من الشدة والحزم غير ما ترون من اللين والرأفة.

[٥٧٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ مَرَّ بِمَزْبَلَةٍ، فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا، فَكَأَنَّ أَصْحَابَهُ تَأَذَّوْا بِهَا

«هَذِهِ دُنْيَاكُمُ الَّتِي تَبْكُونَ عَلَيْهَا، وَتَحْرِصُونَ عَلَيْهَا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يصف أمير المؤمنين ﷺ الدنيا لأصحابه، يزهِّدهم فيها.

البيان والبلاغة: شبَّه الدنيا بأمر مشاهَد حاضر أمام المخاطَب، وهو المزبلة، وقلب التشبيه، وحذف أداة التشبيه، وكلُّ ذلك لتقرير اشتراك المشبَّه والمشبَّه به في وجه الشبه، وهو القذارة، وأصل التشبيه هو: (دنياكم كهذه المزبلة). واستعمل اسم الإشارة (**هذه**)؛ لتعيين المشار إليه، ولفت انتباه المخاطَب إليه. ووصف (**دنياكم**) بالاسم الموصول (**التي**)؛ للتوصُّل إلى وصفها بالمعنى الذي تتضمَّنه جملة صلة الموصول.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «قصرِ الأملِ» (٢٩٧)، وأحمدُ في «الزُّهدِ» (٦١٦)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٤٨، وابنُ بشرانَ في «الأمالي» (١٢١٨).

[٥٧٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي رَجُلٍ أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: اسْكُتْ؛ فَقَدْ أَكْثَرْتَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

«دَعْهُ، لَا خَيْرَ فِيهِمْ إِنْ لَمْ يَقُولُوهَا لَنَا، وَلَا خَيْرَ فِينَا إِنْ لَمْ نَقْبَلْ». وَأَوْشَكَ أَنْ يَرُدَّ عَلَى قَائِلِهَا[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينهى أمير المؤمنين رضي الله عنه عن منع النَّاس من نصح الأمراء، ويبين أنه يجب على الأمراء قبوله.

البيان والبلاغة: قوله: (**دَعْهُ**): في هذه الكلمة إقرار للآمر بالتقوى، وزجر للمنكِر عليه. وقوله: (**لَا خَيْرَ فِيهِمْ إِنْ لَمْ يَقُولُوهَا لَنَا، وَلا خَيْرَ فِينَا إِنْ لَمْ نَقْبَلْ**): في قوله: (**لا خير**) في الموضعين نفي جنس الخيرية عند عدم تحقُّق الشرط. والإضمار في قوله: (**لم يقولوها**): فيه حمل للمخاطَب على تذكُّر تلك الكلمة التي قالها الآمر بالتقوى. وقوله : (**إن لم نقبل**): حذف مفعول (**نقبل**) لئلَّا يتقيَّد الفعل به.

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٢٢، والزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ في «الأخبارِ الموفّقيّاتِ» ص ٢٢٨، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٣، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣١٣.

[٥٧٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِذَا رَأَيْتَ مِنَ الرَّجُلِ خَصْلَةً تَسُوؤُكَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ، وَإِذَا رَأَيْتَ مِنَ الرَّجُلِ خَصْلَةً تَسُرُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ بِالرَّجُلِ الَّذِي إِذَا وَقَعَ فِي الْأَمْرِ تَخَلَّصَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَتَوَقَّى الْأَمْرَ حَتَّى لَا يَقَعَ فِيهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَأْسَ غِنًى، وَأَنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ حَاضِرٌ، وَأَنَّ الْمَرْءَ إِذَا يَئِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يضع أمير المؤمنين رضي الله عنه منهجا تُعرف به أخلاق الناس، ثم يبين بعض الأخلاق المحمودة.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا رَأَيْتَ مِنَ الرَّجُلِ خَصْلَةً تَسُوؤُكَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ، وَإِذَا رَأَيْتَ مِنَ الرَّجُلِ خَصْلَةً تَسُرُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ**): استعمل أداة الشرط (**إذا**) إشارة إلى توقُّع حصول فعل الشرط وجوابه. وتقديم الجار والمجرور (**من الرجل**) على المفعول (**خصلة**) - في الموضعين - يفيد تنبيه المخاطب. و(**أل**) في (**الرجل**) - في الموضعين - للعهد الذهني، والمقصود هو الرجل الذي يكون معه تعامل أو به التقاء. وتنكير (**خصلة**) للإفراد. وقوله: (**فاعلم أن لها أخوات**): العلم هنا يفيد اليقين، وأكَّد هذا اليقين مجيءُ معمول الفعل (**اعلم**) مصدرا مؤوَّلا من (**أنَّ**) واسمها وخبرها. وتنكير (**أخوات**) للتكثير. وقوله: (**وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ**

١- ذكرهُ الأصبهانيُّ في «سيرِ السَّلفِ الصَّالحينَ» ص١٤٥.

بِالرَّجُلِ الذِي إِذَا وَقَعَ فِي الأَمْرِ تَخَلَّصَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الذِي يَتَوَقَّى الأَمْرَ حَتَّى لَا يَقَعَ فِيهِ): في قوله: (**واعلم أنَّ الرجل**): حذف صفة الرجل؛ لتذهب نفس السامع في تعيينها كلَّ مذهب، والتقدير: الرجل العاقل، وكذا في قوله: (**ولكنَّ الرجل**). وقوله: (**وقع في الأمر**): حرف الجر (في) يفيد الظرفية المجازية. وفي قوله: (**يتوقَّى الأمر**): أظهر (**الأمر**) في موضع إضمار، إذ قد سبق ذكره، ومن فائدة الإظهار هنا زيادة التقرير. وقوله: (**وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَأْسَ غِنًى، وَأَنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ حَاضِرٌ، وَأَنَّ المَرْءَ إِذَا يَئِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ)**: أعاد ذكر عبارة (**اعلم أنَّ**)؛ لتنبيه المخاطَب إلى أنَّ ما يقوله أمر مهم لابدَّ مِن تيقُّنه. وبين (**أنَّ اليأس غنى**) و(**أنَّ الطمع فقر حاضر**) مقابلة، وكان مقتضى السياق أن يقول: (اعلم أنَّ اليأس غنى آجل)، لكنه حذف صفة (**غنى**) إشارة إلى أن اليأس والقناعة غنًى في كلِّ حال، وليس مقيَّدا بوقت بعينه. وقوله: (**وأنَّ المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه**): هذه الجملة تفسيرية لقوله: (**واعلم أن اليأس غنى**).

[٥٧٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَنْظُرُوا إِلَى صِيَام أَحَدٍ وَلَا صَلَاتِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَأَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ، وَوَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى»[١].

الشرح والتحليل

سبق مثل هذا النص بلفظ مقاربٍ جدًّا.

الألفاظ والغريب: (**أشفى**): تقدم بيان معناها عند شرح النص رقم خمسة وستين وخمسمئة.

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين ﷺ أنَّ دين المرء الحق يظهر في صدقه وورعه وأمانته، ولا يقتصر على أعماله الظاهرة.

البيان والبلاغة: سبق مثل هذا النص جدًّا تحت رقم خمسة وستين وخمسمئة، ولفظه: «**لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ امْرِئٍ، وَلَا صِيَامِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَإِلَى وَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى، وَإِلَى أَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ**». وقوله: (**لَا تَنْظُرُوا إِلَى صِيَامِ أَحَدٍ وَلَا صَلَاتِهِ**): كلمة (**أحد**) في سياق النفي تفيد العموم، فالكلام هنا يعمُّ كلَّ أحد. وفي قوله: (**ولا صلاته**): (**لا**) هنا زائدة؛ لتوكيد النفي وتقريره. والمقصود بالصلاة والصيام هنا النوافل لا الفروض؛ لأن التفاضل بين الناس يحصل فيها غالبا، وإنَّما أطلق ذكر الصيام والصلاة هنا اعتمادا على السياق وفهم المخاطب،

١- رواهُ أبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٣/ ٢٧، والبيهقيُّ في «الزُّهدِ الكبيرِ» (٨٦٧).

والصيام والصلاة هنا إشارة إلى الأعمال الظاهرة للعبد. وقوله: (**وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَأَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ، وَوَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى**): بنى الفعل (**ائتمن**) للمفعول؛ لئَّلا يتقيَّد بفاعل بعينه، والمقصود أنَّه أمين مع كل أحد ائتمنه. وفي قوله: (**وورعه إذا أشفى**): إيجاز حذف، والتقدير: وورعه عن الدنيا إذا أشفى عليها. والصدق والأمانة والورع هنا إشارة إلى الأعمال الباطنة للعبد. والمقصود بالنظر في هذا النص هو النظر الذي ينبني عليه الحكم بصلاح العبد، فتقدير الكلام: لا تنظروا - في الحكم على العبد بالصلاح - إلى أعماله الظاهرة، ولكن انظروا إلى أعماله الباطنة.

[٥٨٠]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

«الْخُرْقُ فِي الْمَعِيشَةِ أَخْوَفُ عِنْدِي عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَوَزِ[١]؛ لِأَنَّهُ لَا يَبْقَى مَعَ الْفَسَادِ شَيْءٌ، وَلَا يَقِلُّ مَعَ الْإِصْلَاحِ شَيْءٌ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الخرق في المعيشة**) هو: سوء الإدارة في إنفاق المال، و(**العوز**): الفقر والحاجة.

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين ﷺ أنَّ العجز وقلة الحيلة في طلب المعاش أخوف عنده وأسوأ أثرا من العَوَز والحاجة.

البيان والبلاغة: قوله: (**الْخُرْقُ فِي الْمَعِيشَةِ أَخْوَفُ عِنْدِي عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَوَزِ**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**عندي**) على الجارِّ والمجرور (**عليكم**) إشارة إلى اهتمامه بهذا الأمر. وقوله: (**لِأَنَّهُ لَا يَبْقَى مَعَ الفَسَادِ شَيْءٌ، وَلَا يَقِلُّ مَعَ الْإِصْلَاحِ شَيْءٌ**): هذه العبارة تعليل للجملة السابقة، وجارية مجرى الأمثال، وهي مؤلَّفة من جملتين بينهما مقابلة، وكان السياق يقتضي أن يقول: (لا يبقى مع الإفساد شيء)؛ لأنَّ (**الإفساد**) يقابل (**الإصلاح**)، لكنه عدل إلى قوله: (**لا يبقى مع الفساد شيء**)؛ لأنَّ الإفساد إلحاق الضرر بالشيء، أمَّا الفساد فهو تضرُّر الشيء وتلفٌ يحصل فيه سواء من ذاته أو من

١- العَوَز، بالفتح: العُدْمُ وسُوءُ الحالِ. «النِّهاية» ٣/ ٣٢٠.

٢- رواهُ وكيعٌ في «الزُّهدِ» (٤٦٩)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» (٦٥٤)، والخلَّالُ في «الحثِّ على التِّجارةِ» (١٤)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ١/ ٣٩٥.

قِبَل غيره، فالفساد أعمُّ من الإفساد، وملاءمة الفساد للخرق في المعيشة أكثر من ملاءمة الإفساد لها. وكان مقتضى السياق أيضا أن يقول: (ولا يفنى مع الإصلاح شيء)؛ لأنَّ الفناء يقابل البقاء، لكنَّه عدل إلى قول: (**لا يقل**)؛ لأنَّ نفي حصول القلَّة في الشيء أبلغ في الدلالة على المحافظة عليه من نفي فنائه.

[٥٨١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ

«مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ. وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ قَلَّ خَيْرُهُ. وَمَنْ كَثُرَ أَكْلُهُ لَمْ يَجِدْ لِذِكْرِ اللهِ لَذَّةً، وَمَنْ كَثُرَ نَوْمُهُ لَمْ يَجِدْ فِي عُمُرِهِ بَرَكَةً. وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ فِي النَّاسِ سَقَطَ حَقُّهُ عِنْدَ اللهِ، وَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ الِاسْتِقَامَةِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(سَقَطُهُ)**: السَّقطُ من الكلام: خطؤه ورديئه.

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين رضي الله عنه جملة من الأخلاق التي ينبغي أن يجتنبها المؤمن، مع بيان سوء عاقبتها في الدنيا والآخرة.

البيان والبلاغة: هذا النص حوى حِكَما تُكتب بماء الذَّهب، ذهب كثيرٌ منها مثلا؛ لإحكام معانيها ورصانة ألفاظها؛ فقد امتازت هذه الجُمَلُ بإيجاز اللَّفظ وجزالته، مع تضمُّنها معانيَ عظيمةً، كما أنَّ عددا من فواصل هذه الجُمَل متناسقة في اللفظ من خلال السجع. وفي قوله: **(مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ)**: بين **(كثُر)** و**(قلَّت)**

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الحلم» (١٢٦)، والطَّبرانيُّ في «المُعجَمِ الأوسطِ» (٢٢٥٩)، والقُضاعيُّ في «مُسنَدِه» (٣٧٤)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٣/ ١٧٥.

طباق. وفي قوله: (**وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ**): بنى الفعلين (**استُخِفَّ**) و(**عُرِف**) للمفعول؛ لئلَّا يقيِّده بفاعل بعينه. وقوله: (**وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ قَلَّ خَيْرُهُ**): استعمل هنا أسلوب المقدِّمات المتسلسلة، كلُّ مقدِّمة تقود إلى التي بعدها، وهذا الأسلوب من أساليب إقناع المخاطَب وبين (**كثُر**) و(**قلَّ**) مطابقة. وقوله: (**وَمَنْ كَثُرَ أَكْلُهُ لَمْ يَجِدْ لِذِكْرِ اللهِ لَذَّةً، وَمَنْ كَثُرَ نَوْمُهُ لَمْ يَجِدْ فِي عُمُرِهِ بَرَكَةً**): استعمال الفعل المضارع (**يجد**) المنفي بـ(**لم**) في الموضعين يفيد أنَّ الفعل يتجدَّد نفيه باستمرار وجود مسبِّب نفيه. وتنكير (**لذَّة**) و(**بركة**) للتقليل. ونفي القليل هنا يستلزم نفي الكثير. وقوله: (**وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ فِي النَّاسِ سَقَطَ حَقُّهُ عِنْدَ اللهِ، وَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ الِاسْتِقَامَةِ**): ختم كلامه بذكر ما يترتَّب على الإكثار من الكلام في الناس، معَ أنَّه سبق أن ذكر أنَّ من كثر كلامه كثر سقطه، فإعادة ذكر الإكثار من الكلام في الناس هنا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لخطورة هذا الفعل. وذكر أنَّه يترتَّب على هذا الفعل عقابان؛ تخويفا من الوقوع فيه. وفي قوله: (**خرج من الدنيا**): شبَّه الدُّنيا ببيت على وجه الاستعارة، وشبَّه حال الذي يُتوفَّى وينتقل من الدنيا إلى الآخرة بالذي يخرج من ذلك البيت. وبين جمل النص موازنة أعطت النصَّ رونقا وجمالا.

[٥٨٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الْوَالِيَ إِذَا طَلَبَ الْعَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ أَعْطَاهُ اللهُ الْعَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ فَوْقَهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين رضي الله عنه ما ينبغي أن يتحلَّى به الوالي من طلب العافية فيما بينه وبين رعيته، وحسن عاقبة ذلك له.

البيان والبلاغة: في قوله: (**إِنَّ الوَالِيَ إِذَا طَلَبَ العَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ أَعْطَاهُ اللهُ العَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ فَوْقَهُ**): جعل الجملة الشرطية خبرا في جملة اسميَّة؛ لتقرير ثبوت الشرط. وأدخل (**إنَّ**) على المبتدأ؛ لتوكيد ذلك. واستعمال الاسم الموصول (**من**) في الموضعين يفيد العموم، ويتقيَّد هذا العموم بالصفة المضمَّنة في جملة الصلة. وبين (**دونه**) و(**فوقه**) طباق، وبين الجملتين موازنة.

١- رواهُ ابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٢١.

[٥٨٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِقَبِيصَةَ بْنِ جَابِرٍ الْأَسَدِيِّ

«إِنِّي أَرَاكَ إِنسَانًا فَصِيحَ اللِّسَانِ فَسِيحَ الصَّدْرِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ عَشَرَةُ أَخْلَاقٍ: تِسْعَةٌ صَالِحَةٌ، وَوَاحِدَةٌ سِيِّئَةٌ، فَيُفْسِدُ التِّسْعَةَ الصَّالِحَةَ الْخُلُقُ السَّيِّئُ؛ اتَّقِ عَثْرَاتِ الشَّبَابِ - أَوْ قَالَ: غِرَّاتِ الشَّبَابِ -»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه قبيصةَ بن جابرٍ الأسَدِيَّ، مثنيا عليه، ومحذِّرًا إياه بعضَ الخصال التي تُخشى على مثله.

لطائف لغوية: قوله: (**أراك**): الفعل (أرى) يتعدَّى لمفعول واحدٍ إذا كان من الرؤية، وإلى مفعولين إذا كان من أفعال القلب، بمعنى: أعلم أو أعتقد، كما هو الحال - هنا -. وقوله: (**عَثْرات**) و(**غِرَّات**): تقدَّم معنا عند شرح النص رقم ثمانية ومئة بيان متى تسكن عين الكلمة في مثل هذا الجمع، ومتى تُحرَّك، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي أَرَاكَ إِنسَانًا فَصِيحَ اللِّسَانِ فَسِيحَ الصَّدْرِ**): مجيء الفعل (**أراك**) بصيغة المضارع يفيد التجدُّد والاستمرار، ومجيء المفعول الثاني لهذا الفعل كلمة (**إنسان**) فيه إشارة إلى أنَّه يراه يتمتَّع بصفات الإنسان الكامل، ثمَّ وصفه بأنَّه:

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٨٢٤٠)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٩٨٦١)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٩/ ٢٤٣ و٤٩/ ٢٤٦.

(**فصيح اللسان فسيح الصدر**): دلالة على أنَّه يمتاز بهاتين الصفتين. وبين (**فصيح**) و(**فسيح**) جناس ناقص. وقوله: (**وَقَدْ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ عَشرَةُ أَخْلَاقٍ؛ تِسْعَةٌ صَالِحَةٌ وَوَاحِدَةٌ سِيِّئَةٌ، فَيُفْسِدُ التِّسْعَةَ الصَّالِحَةَ الْخُلُقُ السَّيِّئُ**): في قوله: (**قد يكون**): الحرف (**قد**) هنا يفيد التوقُّع. وتقديم الجار المجرور المتعلِّق بخبر (**يكون**) على اسمها (**عشرة أخلاق**)؛ للتنبيه. واستعمل أسلوب التقسم في بيان أنَّ الأخلاق منها صالح ومنها سيِّئ، فقال: (**تسعة صالحة، وواحدة سيِّئة**). وكان الأصل أن يقول: (**وواحد سيِّئ**) بالتذكير؛ لأنَّ المعدود: (**خُلُق**)، ولكنَّه عدل إلى التأنيث على تقدير: وخَصلةٌ واحدةٌ سيّئة؛ مراعاة للتأنيث في (**تسعة صالحة**). وقوله: (**فيُفسدُ التسعةَ الصالحة الخلُقُ السَّيِّئ**): تقديم المفعول (**التسعة**) على الفاعل (**الخلقُ**)؛ للاهتمام والتحذير. وفي قوله: (**الخلق السيِّئ**): حذف صفة (**الخلق**)؛ لدلالة السياق عليه، والتقدير: الخلق الواحد. وقوله: (**اتَّقِ عَثَرَاتِ الشَّبَابِ**): ختم كلامه بهذه الوصية التي هي تذييل لما سبق ذكره، ففيها توكيد لمفهوم ما سبق؛ لأنَّ اتِّقاء عثرات الشباب فيه اجتناب الأخلاق السيِّئة؛ ولأنَّ المرء أكثر ما يقع منه أخلاق سيِّئة وهو في مرحلة الشباب.

[٥٨٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ لِثَلَاثٍ، وَلَا يُتْرَكُ لِثَلَاثٍ: لَا يُتَعَلَّمُ لِيُمَارَى[١] بِهِ، وَلَا يُبَاهَى بِهِ، وَلَا يُرَاءَى بِهِ. وَلَا يُتْرَكُ حَيَاءً مِنْ طَلَبِهِ، وَلَا زَهَادَةً فِيهِ، وَلَا رِضًا بِالْجَهْلِ مِنْهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يمارِي**): من المِراء والمماراة، وهو: الجدال والملاحاة.

لطائف لغوية: قوله: (**الزَّهادة**): مأخوذ من الزهد، وقد عرَّفه الجوهري في الصحاح بقوله: «الزُّهدُ: خلاف الرَغبة. تقول: زهِد في الشئ وعن الشئ، يَزْهَدُ زَهَدًا وزَهادَةً. وزَهَد يَزْهَدُ لغة فيه. وفلان يَتَزَهَّد، أي يتعبد. والتزهيد في الشئ وعن الشئ: خلاف الترغيب فيه». وقال صاحب مقاييس اللغة: «قال الخليل: الزهادة في الدنيا، والزهد في الدين خاصة». ويتعدَّى الفعل زهِد بـ (في) و(عن) ومن الخطأ تعديته بـ (الباء)، فلا يُقالُ: زهدت بالدنيا. وقد نصَّ على ذلك صاحب معجم الصواب اللغوي.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ لِثَلَاثٍ ولَا يُتْرَكُ لِثَلَاثٍ**): بدأ بهذا الكلام؛ ليشوِّق السامع لمعرفة تتمَّة الكلام، فذكر العدد مجمَلا، ثمَّ ذكر المعدود، فهو تفصيل بعد إجمال، يقرِّر المعنى في ذهن السامع. وقوله: (**لا يُتعلَّم**) و(**لا يُترك**):

١- المُماراة: المُجادَلة والمُلَاحَاة. «جامع الأصول» (٣٢١٦).

٢- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (١٣١)، والبيهقيُّ في «المدخلِ إلى السُّنَنِ الكُبرَى» (٤١٤).

جاء بالفعلين بصيغة المضارع؛ ليكون النهي عنهما متجدِّدا على مَرِّ الزمان، وبناهما للمفعول؛ ليكون النهي عامًّا لكلِّ أحد. وقوله: (**لَا يُتَعَلَّمُ لِيُمَارَى بِهِ، وَلَا يُبَاهَى بِهِ، وَلَا يُرَاءَى بِهِ**): بدأ بذكر ما لا ينبغي أن يكون الدافع لطب العلم من أجله، وهي أمور متعلِّقة بالنيَّة، فبدأ بها؛ لأنها أشدُّ خطرا من التي بعدها، وهي مقتبَسة من قول النبي ﷺ: «**مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ = أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ**»[1]، إلَّا أنَّ عمر رضي الله عنه بنى الأفعال (**يمارَى**) و(**يباهَى**) و(**يراءَى**) للمفعول، وحذف هذا المفعول؛ ليكون الزجر عن حصول هذه الأفعال بغضِّ النظر عن الفاعل والمفعول. وقوله: (**وَلَا يُتْرَكُ حَيَاءً مِنْ طَلَبِهِ، وَلَا زَهَادَةً فِيهِ، وَلَا رِضا بِالْجَهْلِ مِنْهُ**): أردف ذكر هذه الثلاث لئلَّا تكون الثلاث الأولى صارفةً عن طلب العلم. وكرَّر (**لا**)؛ لتقرير النهي وتوكيده. وبين جمل النصِّ موازنةٌ واضحة أكسبت النصَّ جرسًا حُلوا.

١- رواه الترمذي وابن ماجه، وحسَّنه الألباني - رحمه الله -.

[٥٨٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كَرَمُ الْمُؤْمِنِ تَقْوَاهُ، وَدِينُهُ حَسَبُهُ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ، وَالْجُرْأَةُ وَالْجُبْنُ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللهُ حَيْثُ يَشَاءُ؛ فَالْجَبَانُ يَفِرُّ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَالْجَرِيءُ يُقَاتِلُ عَمَّنْ لَا يَؤُوبُ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، وَالْقَتْلُ حَتْفٌ مِنَ الْحُتُوفِ[١]، وَالشَّهِيدُ مَنِ احْتَسَبَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**حتفٌ**): هو الموت، والجمع حُتُوف، كما جاء في النصِّ.

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه حقائق الأخلاق والصفات وطبائع النفس الإنسانية التي قد تخفى على الكثيرين من الناس. وهذا النصُّ قد سبق مفرَّقا في نصوص أخرى، كما في النص رقم ستين وخمسمئة ورقم ثلاثة وثمانين ومئتين.

البيان والبلاغة: قوله: (**كَرَمُ الْمُؤْمِنِ تَقْوَاهُ، وَدِينُهُ حَسَبُهُ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ**): سبق التعليق على نحو هذا اللفظ والمعنى في الأثر رقم ستين وخمسمئة. وقوله: (**وَالْجُرْأَةُ وَالْجُبْنُ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللهُ حَيْثُ يَشَاءُ، فَالْجُبَانُ يَفِرُّ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَالْجَرِيءُ يُقَاتِلُ عَمَّنْ لاَ يَؤُوبُ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ**): استعمل هنا أسلوب التفصيل بعد الإجمال، فأجمل ذكر الجرأة والجبن، ثمَّ فصَّل القول فيهما على غير ترتيب ذكرِهما قبلُ، فعرَّف كلًّا من الجبن والجرأة بذكر علامة من علامة كل واحد منهما. وقوله: (**يفرُّ عن أبيه**

١- الحَتف: الموت، وجمعه حُتُوف. ويقالُ: ماتَ فلانٌ حَتْفَ أنفِه؛ إذا ماتَ مِن غيرِ قتلٍ ولا ضربٍ. ولا يُبْنى منه فعلٌ. «جامع الأصول» (٩٣٣٨).

٢- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإ» (١٦٨١)، والمَرْزُبان في «المروءةِ» (١٥) [ونحوه في عيون الأخبار (١/ ١٧١)].

وأمِّه): عدَّى الفعل (**يفرُّ**) بحرف الجر (**عن**)، والأصل فيه أن يتعدَّى بحرف الجر (**مِن**) كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤]؛ لأنَّ حرف الجرِّ (**من**) يفيد مكان ابتداء الفرار، وتعدِّيه بحرف الجر (**عن**) فيه إفادة معنى المجاوزة، يعني أنَّ الجبان يفرُّ متجاوزا عن أبيه وأمِّه، فالتعدِّي بحرف الجرِّ (**عن**) هنا أبلغ في بيان شدَّة الجُبن. وقوله: (**يقاتل عن**): عدَّى الفعل (**يقاتل**) بحرف الجرِّ (**عن**)؛ لتضمُّنه معنى الفعل (يدافع). وقوله: (**وَالْقَتْلُ حَتْفٌ مِنَ الْحُتُوفِ، وَالشَّهِيدُ مَنِ احْتَسَبَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ**): ذكر هذا الكلام احتراسا؛ لدفع توهُّمٍ قد يحصل من مفهوم قوله: (**وَالْجَرِيءُ يُقَاتِلُ عَمَّنْ لاَ يَؤُوبُ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ**)؛ إذ قد يفهم أنَّ كلَّ جريء في القتال جرأته محمودة، وأنَّه إن قُتل فهو في سبيل الله، فبيَّن في قوله: (**القتل حتف من الحتوف** ...) فارِقَ ما بين الشهادة في سبيل الله والقتل، وكان مقتضى السياق أن يقابل القتل بالشهادة، فيقول: (والشهادة احتساب النفس عند الله)، ولكنَّه عدل عن ذكر المصدر (الشهادة) إلى ذكر الصفة المشبَّهة (**الشهيد**) إشارة إلى أنَّ الحكم بالشهادة يكون لكلِّ واحد بحسبه.

١٠٣١

[٥٨٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ

«حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا؛ فَإِنَّ أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ تَزِنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[١]»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يعظ أمير المؤمنين رضي الله عنه سامعيه موعظة بليغة في شأن محاسبة النفس والاستعداد للحساب يوم القيامة، ولعل هذه الموعظة كانت في خطبة من خطب الجمعة، والله أعلم.

البيان والبلاغة: قوله: (**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا**): بنى الفعلين (**تُحاسَبوا**) و(**تُوزَنوا**) للمفعول؛ لكمال علم المخاطب بالفاعل. وقوله: (**فَإِنَّ أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ**): قيَّد اسم إنَّ (**أهون**) بثلاث مقيِّدات: الجار والمجرور (**عليكم**)، و(**في الحساب**)، و(**غدا**)، وفي ذلك تقرير وتوضيح للمعنى المراد، وطول الفصل بين اسم (**إنَّ**) وخبرها يشوِّق السامع لمعرفة الخبر. وقوله: (**وتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُونَ**

١- سورة الحاقَّة: الآية ١٨.

٢- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٣٠٦)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣٣)، وأبو عُبيدٍ في «الخطبِ والمواعظِ» (١٤٤)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٠٠)، وابنُ أبي الدُّنيا في «محاسبةِ النَّفسِ» (٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣١٤ و٤٤/ ٣٥٧.

لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ): سمَّى عَرض الناس على الله يوم القيامة بالعَرض الأكبر تنبيها للمخاطَب على عِظَم هذا اليوم وهول ما فيه، وأشار إلى بعض ما فيه حين قيَّده بالظرف (**يوم تُعرضون لا تخفى منكم خافية**). ولم يكتفِ باقتباس هذا الظرف من القرآن حتى أتى بالآية التي اقتبس منها، وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]؛ وذلك لتقرير المعنى وتأكيده في نفس المخاطب.

[٥٨٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ للهِ عِبَادًا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهَجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ، رُغِّبُوا فَرَغِبُوا، وَرُهِّبُوا فَرَهِبُوا، خَافُوا فَلَا يَأْمَنُونَ، أَبْصَرُوا مِنَ الْيَقِينِ مَا لَمْ يُعَايِنُوا فَخَلَطُوهُ بِمَا لَمْ يُزَايِلُوهُ، أَخْلَصَهُمُ الْخَوْفُ فَكَانُوا يَهْجُرُونَ مَا يَنْقَطِعُ عَنْهُمْ لِمَا يَبْقَى لَهُمْ. الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ، وَالْمَوْتُ لَهُمْ كَرَامَةٌ؛ فَزُوِّجُوا الْحُورَ الْعِيْنَ، وَأُخْدِمُوا الْوِلْدَانَ الْمُخَلَّدِينَ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (زَايَلوه)، أي: فارقوه.

مقتضى الحال: يحدِّث أمير المؤمنين ﷺ عن صفات المتقين وأحوالهم في الدنيا، وما أعده الله - تعالى - لهم في الآخرة.

لطائف لغوية: (رغبوا): الفعل (رغِبَ) يختلف معناه اختلافا كبيرا باختلاف حرف الجرِّ الداخل عليه؛ فإذا تعدَّى بنفسه أو بـ (في) كان معناه: أراد الشيء واشتهاه، وإذا تعدَّى بـ (عن) كان معناه: كره الشيء وزهد فيه، وإذا تعدَّى بـ (إلى) كان معناه: سأل غيرهُ شيئًا وطلبه. قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «يقال: رغبت إلى فلان في كذا وكذا، أي: سألته إياه».

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ للهَّ عِبَادا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهَجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ**): قدَّم خبر (إنَّ) الجار والمجرور (لله) على اسمها (**عبادا**)؛ للتخصيص، واللام في

١- رواهُ أبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٥.

(لله) تؤكِّد ذلك. وتنكير (**عبادا**) للتعظيم. وبين الفعلين (**يميتون**) و(**يحيون**) طباق، ومجيئهما بصيغة المضارع يفيد الاستمرار والتجدُّد. وفي استعمال الإماتة لـ (**الباطل**) والإحياء لـ (**الحق**) استعارة، بتشبيه كل من الحق والباطل بكائن حيٍّ يحيا ويموت. وفي اقتران (**الباطل**) بالهجر و(**الحق**) بالذِّكر تجريدٌ للتشبيه؛ لأنَّ كلًّا من (**الهجر**) و(**الذكر**) ملائم للمستعار له. وقوله: (**رُغِّبُوا فَرَغِبُوا، وَرُهِّبُوا فَرَهِبُوا، خَافُوا فَلَا يَأْمَنُونَ**): بين (**رُغِّبوا**) و(**رُهِّبوا**) جناس ناقص، وكذا بين (**رَغِبوا**) و(**رهِبوا**)، وأطلق هذه الأفعال ولم يقيِّدها؛ لتذهب نفس السامع في تقييدها كلَّ مذهب. وجملة (**فلا يأمنون**): توكيد لجملة (**خافوا**)، وهي تتميم لها؛ وذلك أن جملة (**خافوا**) فعلها ماضٍ يدلُّ على أنَّ الخوف حصل في الزمن الماضي، فبيَّن بجملة (**لا يأمنون**) أن خوفهم مستمرٌّ في الزمن الحاضر، وحذف مفعول خافوا؛ لحمل نفس المخاطب على تأمُّله، والتقدير: خافوا الله - تعالى -، أو: خافوا عقاب الله - تعالى -. وبين (**خافوا**) و(**يأمنون**) طباق. وقوله: (**أَبْصَرُوا مِنَ الْيَقِينِ مَا لَمْ يُعَاينُوا، فَخَلَطُوهُ بِمَا لَمْ يُزَايِلُوهُ**): استعمل الاسم الموصول (**ما**) في الموضعين؛ للإبهام. وقوله: (**أَخْلَصَهُمُ الْخَوْفُ فَكَانُوا يَهْجُرُونَ مَا يَنْقَطِعُ عَنْهُمْ لِمَا يَبْقَى لَهُمْ**): إسناد الإخلاص للخوف إسناد مجازي. وبين (**ينقطع عنهم**) و(**يبقى لهم**) طباق. وقوله: (**الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ، وَالْمَوْتُ لَهُمْ كَرَامَةٌ**): تقديم الجار والمجرور (**عليهم**) على الخبر (**نعمة**)؛ للتخصيص، وكذا تقديم الجار والمجرور (**لهم**) على الخبر (**كرامة**). وتنكير (**نعمة**) و(**كرامة**) للتعظيم. وقد جاءت جمل هذا النصِّ معتدلة بينها تناسب وموازنة أعطتها جرسا حُلوا.

[٥٨٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«اقْدَعُوا هَذِهِ النُّفُوسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا؛ فَإِنَّهَا طَلَّاعَةٌ تَنْزِعُ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ. إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ؛ وَتَرْكُ الْخَطِيئَةِ خَيْرٌ مِنْ مُعَالَجَةِ التَّوْبَةِ؛ وَرُبَّ نَظْرَةٍ زَرَعَتْ شَهْوَةً، وَشَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**اقْدَعُوا**): القَدعُ هو الكفُّ والمنعُ، والمقصود: كفُّوا نفوسكم عن شهواتها. وقوله: (**مَرِيٌّ**)، أي: غزير كثير، ومنه قولهم: ناقةٌ مرِيٌّ، أي: غزيرة اللبن. وقوله: (**وَبِيٌّ**)، أي: كثير الآفات والأوباء.

مقتضى الحال: يعظُ أمير المؤمنين رضي الله عنه سامعيه ببيان كيفية سياستها ووقايتها عاقبة الشبهات والشهوات.

البيان والبلاغة: قوله: (**اقْدَعُوا هَذِهِ النُّفُوسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا؛ فَإِنَّهَا طَلَّاعَةٌ تَنْزِعُ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ**): اسم الإشارة (**هذه**) يفيد التحقير. ومجيء كلمة (**شهواتها**) بصيغة الجمع يفيد التنويع، والمراد: الأمر بكفِّ النفس عن جميع أنواع شهواتها. وجملة (**تنزع إلى شرِّ غاية**) تفسير لجملة (**إنَّها طلَّاعة**)، بدأها بـ (**إنَّ**) ليؤكِّد المعنى المقصود. وقوله: (**إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ**): استعمل أسلوب المقابلة؛ لبيان مدى الفرق بين الحقِّ والباطل، فقابل بين (**إنَّ هذا الحقَّ ثقيل مريٌّ**) و(**إنَّ الباطل**

١- ذكرهُ الماورديُّ في «أدبِ الدُّنيا والدِّينِ» ١/ ٩٢.

خفيف وبيٌّ). واستعمل اسم الإشارة مع الحقِّ؛ لتعيينه، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الحقَّ واحد لا يتعدَّد. وفي وصف (**الحق**) بالثِّقل و(**الباطل**) بالخفَّة = تشخيص للحقِّ والباطل. وفي استعمال (**مريٌّ**) للحقِّ و(**وبيٌّ**) للباطل استعارة؛ وذلك أنَّ الـ (**مَرِيَّ**) هي الناقة كثيرة اللبن، واللبن دلالة على الخير، فشبَّه الحقَّ بالناقة الدَّرور كثيرة اللبن؛ للترغيب في الحقِّ، والـ (**وَبِيُّ**) هو الإنسان الذي يصيبه أمراض كثيرة، فشبَّه الباطل بإنسان كثير الأمراض؛ للتنفير من الباطل. وبين (**مريٌّ**) و(**وبيٌّ**) سجع.

وقوله: (**وَتَرْكُ الْخَطِيئَةِ خَيْرٌ مِنْ مُعَالَجَةِ التَّوْبَةِ**): هذه العبارة غاية في الدقة؛ إذ لم يقل: (ترك الخطيئة خير من التوبة)، وإنَّما فضَّل ترك الخطيئة على معالجة التوبة، ومعالجة التوبة هي بذل الأسباب لنيلها، ولا يوفَّق لنيلها كلُّ أحد، فمن هذا الوجه كان ترك الخطيئة خيرا من معالجة التوبة. وقوله: (**وَرُبَّ نَظْرَةٍ زَرَعَتْ شَهْوَةً، وَشَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنا طَوِيلا**): تنكير (**نظرة**) للتحقير، وتنكير (**شهوة**) للتعظيم. وفي قوله: (**رُبَّ نظرة زرعت شهوة**): استعارة؛ إذ شبَّه النظرة بالزارِع، والصورةَ التي أخذتها النظرةُ بالبذرة، والشهوةَ التي نتجت بالزرع. وفي إضافة الشهوة إلى الساعة بيان لمقدارها، و(**ساعة**) هنا للتقليل.

[٥٨٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي أَحْوَالِ النِّسَاءِ

«النِّسَاءُ ثَلَاثَةٌ: امْرَأَةٌ هَيِّنَةٌ، لَيِّنَةٌ، عَفِيفَةٌ، مُسْلِمَةَ، وَدُودٌ، وَلُودٌ، تُعِينُ أَهْلَهَا عَلَى الدَّهْرِ، وَلَا تُعِينُ الدَّهْرَ عَلَى أَهْلِهَا، وَقَلَّ مَا يَجِدُهَا. ثَانِيَةٌ: امْرَأَةٌ عَفِيفَةٌ مُسْلِمَةَ، إِنَّمَا هِيَ وِعَاءٌ لِلْوَلَدِ، لَيْسَ عِنْدَهَا غَيْرُ ذَلِكَ. ثَالِثَةٌ: غُلٌّ قَمِلٌ[1] يَجْعَلُهَا اللهُ فِي عُنُقِ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يَنْزِعُهَا غَيْرُهُ. والرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ عَفِيفٌ، مُسْلِمٌ، عَاقِلٌ، يَأْتَمِرُ[2] فِي الْأُمُورِ إِذَا أَقْبَلَتْ، وَيُسْهِبُ، فَإِذَا وَقَعَتْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِرَأْيِهِ. وَرَجُلٌ عَفِيفٌ مُسْلِمٌ، لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ، فَإِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ أَتَى ذَا الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ، فَشَاوَرَهُ وَاسْتَأْمَرَهُ، ثُمَّ نَزَلَ عِنْدَ أَمْرِهِ. وَرَجُلٌ جَائِرٌ حَائِرٌ[3]، لَا يَأْتَمِرُ رُشْدًا[4]، وَلَا يُطِيعُ مُرْشِدًا»[5].

١- غُلٌّ قَمِلٌ: كانوا يأخذون الأسيرَ، فيَشُدُّونه بالقِدِّ وعليهِ الشَّعرُ، فإذا يَبِسَ قَمِلَ في عُنُقِه، فتَجتَمِعُ عليهِ محِنَتانِ: الغُلُّ، والقَمْلُ. والمَثَلُ ضَرَبهُ الفاروقُ عُمرُ - رضيَ اللهُ عنهُ - لِلمرأةِ السَّيِّئةِ الخُلُقِ الكَثيرةِ المَهْرِ، لا يَجِدُ بَعْلُها مِنها مَخْلَصًا. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (غلل).

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٦٦: (أي شاوَرَ نفسَه، وارتأى قبلَ مُواقَعةِ الأمرِ. وقيلَ: المُؤتَمِرُ الَّذي يَهُمُّ بأمرٍ يَفعلُه).

٣- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ١٦١ بلفظ: «حَائِر بَائِر»، وقال: (إذا لم يتَّجِهْ لشيءٍ. وقيل: هو إتْباعٌ لِحَائِرٍ).

٤- أي: لا يَأتِي بِرُشْدٍ مِن ذاتِ نفسِه. ويقالُ لِكُلِّ مَن فعلَ فِعلًا مِن غيرِ مُشاورةٍ: ائتمرَ. كأنَّ نفسَه أمَرَتْه بشيءٍ، فائتمرَ لها؛ أي أطاعَها. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (أمر).

٥- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٧٤٣٢)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧١، والفسويُّ في «المشيخةِ» (١١)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٦٧)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٧١٣١) و(٨٣٥١)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٦٢.

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**غُلٌّ قَمِلٌ**): الغلُّ هو القيد، وقَمِل: مليء بالقمل، وهو مثل سائر ضربه أمير المؤمنين ﵁ للمرأة السيئة الخلق الكثيرة المهر، التي لا يجد بعلُها منها مَخلصًا.

مقتضى الحال: يبيِّن أمير المؤمنين ﵁ أحوال وأقسام النِّساء والرِّجال.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التقسيم في بيان أحوال النساء وأحوال الرجال، وظاهر الكلام أنَّ هذا التقسيم حاصر. وبدأ بذكر العدد في كلٍّ، فقال: (**النِّسَاءُ ثَلَاثَةٌ**)، وقال: (**الرِّجالُ ثَلاثَةٌ**)، وفي ذلك لفت لانتباه السامع، وحمل له على الإصغاء لمعرفة تتمَّة الكلام. وقوله: (**النِّسَاءُ ثَلَاثَةٌ: امْرَأَةٌ هَيِّنَةٌ، لَيِّنَةٌ، عَفِيفَةٌ، مُسْلِمَةٌ، وَدُودٌ، وَلُودٌ، تُعِينُ أَهْلَهَا عَلَى الدَّهْرِ، وَلَا تُعِينُ الدَّهْرَ عَلَى أَهْلِهَا، وَقَلَّ مَا يَجِدُهَا. ثَانِيَةٌ: امْرَأَةٌ عَفِيفَةٌ مُسْلِمَةٌ، إِنَّمَا هِيَ وِعَاءٌ لِلْوَلَدِ، لَيْسَ عِنْدَهَا غَيْرُ ذَلِكَ. ثَالِثَةٌ: غُلٌّ قَمِلٌ يَجْعَلُهَا اللهُ فِي عُنُقِ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَنْزِعُهَا غَيْرُهُ**): بدأ بذكر المرأة الهيِّنة اللَّيِّنة تكريما لها، وإشارةً إلى تفضيلها على غيرها، واستعمل أسلوب الاستقصاء في ذكر صفاتها. وبين (**هيِّنة**) و(**ليِّنة**) جناس ناقص، وكذا بين (**ودود**) و(**ولود**). وقوله: (**تعين أهلها على الدهر، ولا تعين الدهر على أهلها**): من باب الطرد والعكس؛ فمنطوق كلٍّ من الجملتين مؤكِّد لمفهوم الأخرى. وقوله: (**وقلَّ ما يجدها**) من باب التتميم. وأضمر فاعل (**يجدها**) من غير تقدُّم مفسِّر له؛ اعتمادا على السياق. وقوله: (**إنَّما هي وعاء للولد ليس عندها غير ذلك**): القصر هنا ادِّعائي، إلا أنَّه أكَّده بجملة (**ليس عندها غير ذلك**) من باب المبالغة، وكأنَّها لمَّا خلت من الصفات المرغوب فيها لم تعُدْ تنفع في شيء إلا أن تكون وعاءً للولد. وجملة (**هي وعاء للولد**): كناية

عن الحمل، أي: لا تصلح إلا للحمل. وقوله (**غُلٌّ قَمِلٌ**): شبَّه المرأة السيِّئة الخُلق بالقيد المليء بالقمل؛ فالمغلول به متأذٍّ به ولا يستطيع فكَّه. وقوله: (**يجعلها الله في عنق من يشاء، ولا ينزعها غيره**): ترشيح للتشبيه وتجريد له، فجعْلُ الغلَّ في العنق ونزعه عنه: ترشيح للتشبيه، وتأنيث الضمير في (**يجعلها**) و(**ينزعها**): تجريد له. وقوله: (**والرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ عَفِيفٌ، مُسْلِمٌ، عَاقِلٌ، يَأْتَمِرُ فِي الْأُمُورِ إِذَا أَقْبَلَتْ وَيُسْهِبُ، فَإِذَا وَقَعَتْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِرَأْيِهِ. وَرَجُلٌ عَفِيفٌ مُسْلِمٌ لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ، فَإِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ أَتَى ذَا الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ فَشَاوَرَهُ وَاسْتَأْمَرَهُ، ثُمَّ نَزَلَ عِنْدَ أَمْرِهِ. وَرَجُلٌ جَائِرٌ، حَائِرٌ، لَا يَأْتَمِرُ رُشْدا، وَلَا يُطِيعُ مُرْشِدا**): بدأ بذكر الرجل العفيف العاقل تكريما له، وإشارة إلى تفضيله على غيره، واستعمل أسلوب الاستقصاء في ذكر صفاته. وقوله: (**ويُسهِب**): أطلق الفعل ولم يقيِّده اعتمادا على السياق، والتقدير: ويُسهب فيها. ومجيء جواب الشرط في (**فإذا وقعت يخرج منها**) بصيغة المضارع؛ إشارة إلى تجدُّد وقوع الجواب عند وقوع فعل الشرط. ومجيء جواب الشرط في (**فإذا وقع الأمر أتى ذا الرأي**) بصيغة الماضي؛ لتقرير ثبوته. وبين (**جائر**) و(**حائر**) جناس ناقص. وفي قوله: (**لا يأتمر رشدا**) حذف الموصوف واكتفى بذكر الصفة؛ للفت انتباه السامع إليها، والتقدير: لا يأتمر أمرا رشدا.

[٥٩٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

«نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَجَعَلْتُ إِذَا أَرَدْتُ الدُّنْيَا أَضْرَرْتُ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا أَرَدْتُ الْآخِرَةَ أَضْرَرْتُ بِالدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَأَضِرُّوا بِالْفَانِيَةِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه حال طالب الدنيا وطالب الآخرة، ثمَّ ينصحُ مستمعه أن يكون من الصنف الثاني.

البيان والبلاغة: قوله: (**نَظَرْتُ في هَذَا الْأَمْرِ**): استعمل اسم الإشارة؛ للإبهام وحمل السامع على الإصغاء لآخر الكلام لمعرفة المقصود. وقوله: (**فَجَعَلْتُ إِذَا أَرَدْتُ الدُّنْيَا أَضْرَرْتُ بالْآخرَة وَإِذَا أَرَدْتُ الْآخرَةَ أَضْرَرْتُ بالدُّنْيَا**): استعمل أداة الشرط (**إذا**) في الموضعين إشارة إلى تحقُّق فعل الشرط وجوابه، وأكَّد تقرير ذلك حين أتى بفعل الشرط وجوابه في الموضعين بصيغة الفعل الماضي. وفي جعل (**الدنيا**) و(**الآخرة**) مفعولا به لـ (**أضررت**) تجوُّزٌ. وقوله: (**فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَأَضرُّوا بالْفَانيَة**): التفت هنا في الضمير في (**أضرُّوا**)، بعد أن استعمل قبلُ ضميرَ المتكلِّم في (**أردتُ**) و(**أضررت**)، وفائدة ذلك أن يعلم المخاطَب أن الكلام موجَّهٌ له. وفي قوله: (**أضرُّوا بالفانية**): عبَّر عن (**الدنيا**) بصفتها؛ تنبيها للمخاطب إلى هذه الصفة فيها، وشحذا لذهنه على اختيار ما هو أنفع له.

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٦٥).

[٥٩١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«وَيْلٌ لِدَيَّانِ الْأَرْضِ مِنْ دَيَّانِ السَّمَاءِ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ، إِلَّا مَنْ أَمَّ الْعَدْلَ، وَقَضَى بِالْحَقِّ، وَلَمْ يَقْضِ بِهَوَاءٍ، وَلَا لِقَرَابَةٍ، وَلَا لِرَغْبَةٍ، وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَجَعَلَ كِتَابَ اللهِ مِرْآتَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الديَّان): هو القاضي.

مقتضى الحال: يحذِّرُ أمير المؤمنين رضي الله عنه القضاة من عاقبة الحساب غدا بين يدي الله - تعالى -، ويبين لهم سبيل النجاة.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَيْلٌ لِدَيَّانِ الْأَرْضِ مِنْ دَيَّانِ السَّمَاءِ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ**): البدء بكلمة (**ويل**) يفيد التهويل والتخويف، وإضافة (**ديَّان**) في الموضع الأول إلى الأرض يفيد التحقير. وإضافة (**ديَّان**) في الموضع الثاني يفيد التعظيم. وقوله: (**يلقونه**): استعمل ضمير الجمع من غير أن يتقدَّم مفسِّر له، اعتمادا على فهم السامع، والضمير راجع إلى القاضي والمقضي له والمقضي عليه أو راجع للقُضاة جميعا. وقوله: (**إِلَّا مَنْ أَمَّ الْعَدْلَ وَقَضَى بِالْحُقِّ وَلَمْ يَقْضِ بِهَوَاءٍ وَلَا لِقَرَابَةٍ وَلَا لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَجَعَلَ كِتَابَ اللهِ مِرْآتَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه**): هذا الكلام تقييد لإطلاق الحكم في الكلام السابق. وقوله: (**ولم يقض بهواء ولا لقرابة ولا لرغبة ولا لرهبة**): تأكيد لمفهوم (**قضى بالحقِّ**). وإعادة إدخال اللام على (**رغبة**) و(**رهبة**) يفيد تقرير المعنى وتأكيده. وبين (**رغبة**) و(**رهبة**) طباق وجناس ناقص. وقوله: (**بين عينيه**): تتميم فائدته بيان التزام النظر في كتاب الله للحكم بما فيه.

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٦٣).

[٥٩٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فِي أَهْلِهِ مِثْلَ الصَّبِيِّ، فَإِذَا الْتُمِسَ مَا عِنْدَهُ وُجِدَ رَجُلًا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين ﵁ الرجال؛ مبينا كيف ينبغي أن يكون الواحد منهم مع أهله.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فِي أَهْلِهِ مِثْلَ الصَّبِيِّ**): كناية عن الغاية في اللين والتلطُّف في المعاملة، فتشبيه الحال التي ينبغي للرجل أن يكون عليها مع أهله بالصبي = المقصد منه أن يتلطَّف في تعامله معهم. وقوله: (**فَإِذَا الْتُمِسَ مَا عِنْدَه وُجِدَ رَجُلا**): بنى الفعل (**التُمس**) للمفعول؛ رعاية لمكانة الفاعل واحتراما له. واستعمل الاسم الموصول (**ما**)؛ لقصد الإبهام والتعميم. وبناء الفعل (**وُجِد**) للمفعول؛ لعدم تقييده بفاعل بعينه. وقوله: (**رجلا**): استغنى بهذه الصفة عن ذكر صفات الرجولة الكاملة اعتمادا على فهم السامع.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٠٣٨)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ١٩/ ٣٣١.

[٥٩٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْغَوْغَاءِ

«اسْتَوْصُوا بِالْغَوْغَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُمْ يُطْفِئُونَ الْحَرِيقَ، وَيَسُدُّونَ الْبُثُوقَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الغوغاء**): الجراد الذي بدت أجنحته، والمقصود هنا عوامُّ الناس. و(**البثوق**): الشقوق التي تحدث في الأرض بسبب جري الماء فيها.

مقتضى الحال: يوصي أمير المؤمنين رضي الله عنه بالعوامِّ خيرا؛ مبينا منافعهم ووجه الحاجة إليهم.

البيان والبلاغة: لَمَّا كان الأمر في صدر كلامه رضي الله عنه غريبا ذكر العلَّة فيه، فقال: (**فَإِنَّهُمْ يُطْفِئُونَ الْحَرِيقَ وَيَسُدُّونَ الْبُثُوقَ**): واستعمل الفعلين (**يُطفؤون**) و(**يسدُّون**) بصيغة المضارع؛ للدلالة على الاستمرار والتجدُّد. والمقصود أنَّ العوامَّ يُستعملون في أداء هذه الأمور التي يأنف عن فعلها كثير من الناس. وبين (**يطفئون**) و(**يسدُّون**) سجعٌ.

١- ذكرهُ الجاحظُ في «رسائلِه» (رسالة فصل ما بين العداوة والحسد) ص٣٦٦.

[٥٩٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَيْسَ لِفَاجِرٍ حُرْمَةٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه علاقة المسلم بأهل الفجور وحدوده معهم.

البيان والبلاغة: استعمل الفعل (**ليس**) لتقرير نفي اتِّصاف اسمها بالخبر. وقدَّم اسم (**ليس**) على خبرها للتشنيع. وتنكير (**فاجر**) في سياق النفي يفيد التعميم. وتنكير (**حرمة**) يفيد التقليل، أي: ليس له أدنى حرمة. وفي الجملة إيجاز قِصَر؛ حيث اللفظ القليل والمعنى الكثير، والتقدير: ليس لفاجر حرمة على مسلم في عرضه أو ماله ... إلخ.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (٢٣٢)، و«ذمِّ الغِيبةِ والنَّميمةِ» (٩٥).

[٥٩٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

عَنْ عِلْبَاءَ بْنِ الْهَيْثَمِ السَّدُوسِيِّ[١] وَقَدْ كَانَ أَعْوَرَ[٢] دَمِيمًا، بَارِعًا حَسَنَ الْبَيَانِ

«لِكُلِّ أُنَاسٍ فِي جُمَيْلِهِمْ[٢] خُبْرٌ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الجُمَيل): تصغير جَمل.

مقتضى الحال: يضرب أمير المؤمنين رضي الله عنه مثلا لعِلباء بن الهيثم السدوسي؛ إذ قدَّمه قومه رغم دمامته.

البيان والبلاغة: هذا الكلام مثلٌ معروف عند العرب، يُضرَب لمن قدَّمه قومُه على غيره لمعرفتهم باستحقاقه لما قدَّموه له، وإن لم يظهر ذلك فيه من أوَّل وهلة لمن لا يعرفه. وضرب عمر رضي الله عنه هذا المثل عند رؤيته لعلباء؛ لأنَّ ظاهره لا يدلُّ على حُسن ما عنده. واستعمال المثل عند حضور سببه يجسد المعنى ويزيده قوة ووضوحا.

١- عِلْباءُ بنُ الهيثمِ بنِ جريرٍ السَّدوسيُّ، أبوهُ مِن الرُّؤساءِ الَّذِين حاربوا كِسرَى في وقعةِ ذي قارٍ، وأدركَ عِلْباءُ الجاهليَّةَ والإسلامَ، وشهِد الفتوحَ في عهدِ عمرَ، ثمَّ شهِد الجملَ، فاستُشهِد بها. «الإصابة» ٥/ ١٠٤.

٢- في الأصل: (أعورا) بالتنوين، والصواب حذف التنوين؛ لأن كلمة (أعور) ممنوعة من الصرف.

٣- الجُمَيل: مُصغَّر الجَمَل. والخُبْر بضمِّ الخاءِ: المعرفةُ والعِلمُ. وهو مَثَلٌ يُضرَبُ في معرفةِ كلِّ قومٍ بصاحِبهم. يَعني أنَّ المُسوَّدَ يُسوَّدُ لِمعنًى، وأنَّ قومَه لم يُسوِّدُوهُ إلَّا لِمعرفتِهم بشأنِه. ويُروَى: «لِكُلِّ أُناسٍ في جَمَلِهِمْ خُبْرٌ»، و«في بَعِيرِهِمْ خُبْرٌ» فاستعارَ الجَمَلَ والبَعِيرَ لِلصَّاحِبِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جمل).

٤- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ١/ ٢٠١.

[٥٩٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِزَيْدِ بْنِ حُدَيْرٍ[١]، عَنْ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ

«يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه لزيد بن حُدَيرٍ أمورا ثلاثة تهدد الدين وتهدمه.

البيان والبلاغة: أجاب عمر رضي الله عنه في هذا الكلام الموجَز عن سؤال السائل، وبدأ الإجابة بقوله: (**يهدمه**)؛ لربط الجواب بالسؤال، ثمَّ ذكر (**زلَّة العالم**) وقدَّمها على غيرها؛ لعِظَم خطرها. وقوله: (**وجدال المنافق بالكتاب**): (**الكتاب**) هنا القرآن، فـ (**أل**) هنا للعهد الذهني. وإسناد الهدم إلى زلَّة العالِم وجدال المنافق وحكم الأئمَّة المضلِّين إسناد مجازي، وأصل الكلام: (يهدمه العالمُ إذا زلَّ، والمنافقُ إذا جادل بالكتاب، والأئمَّةُ المضِلُّون إذا حكموا). وإنما أسند الهدم إلى الزلَّة والجدال والحكم؛ من أجل تنبيه المخاطَب إليها.

١- زيدُ بنُ حُدَيرٍ الأسديُّ الكوفيُّ، أخو زيادِ بنِ حُدَيرٍ [التَّابعيِّ العابدِ الثِّقةِ]. قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتح الباري» ٨/ ١٠٠: زيدُ بنُ حُدَيرٍ، أخو زيادِ بنِ حُدَيرٍ، وزيادٌ مِن كبارِ التَّابعينَ، أدركَ عُمرَ، ولهُ روايةٌ في «سُنَنِ أبي داودَ»، ونزلَ الكوفةَ، ووليَ إمرتَها مرَّةً، وهو أسديٌّ مِن بني أسدِ بنِ خُزَيمةَ بنِ مُدرِكةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ. وأمَّا أخوه زيدٌ؛ فلا أعرفُ لهُ روايةً.

٢- رواهُ الدَّارميُّ في «السُّنَنِ» (٢٢٠)، وابنُ المُبارَكِ في «الزُّهدِ» (١٤٧٥) بلفظِ: «يَهدِمُ الزَّمانَ ثلاثٌ». وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (١٨٦٧)، والمرُّوذيُّ في «أخبارِ الشُّيوخِ وأخلاقِهم» (٣٤٤).

[٥٩٧]

وَمِنْ مَوْعِظَةٍ لَهُ

لِرَجُلٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ

«لَا تَعْرِضْ بِمَا لَا يَعْنِيكَ، وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ، وَاحْتَفِظْ مِنْ خَلِيلِكَ إِلَّا الْأَمِينَ؛ فَإِنَّ الْأَمِينَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْقَوْمِ يَعْدِلُهُ، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ يَخْشَى اللهَ، وَلَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَيَحْمِلَكَ عَلَى الْفُجُورِ، وَلَا تُفْشِ إِلَيْهِ سِرَّكَ، وَشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ - تَعَالَى -»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصحُ أمير المؤمنين رضي الله عنه أحد رعيته نصائح غالية تشتمل على فقه التعامل مع الناس؛ العدو منهم والصديق.

البيان والبلاغة: عدَّد أمير المؤمنين رضي الله عنه أساليبه في هذه الموعظة بين الإنشاء والإخبار، وجعل الإنشاء نهيا وأمرا؛ ليكون ذلك أدعى للفت الانتباه وتأكيد المعاني. وبدأ بالنهي فقال: (**لَا تَعْرِضْ بِمَا لَا يَعْنِيكَ**). وقوله: (**وَاحْتَفِظْ مِنْ خَلِيلِكَ إِلَّا الْأَمِينَ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر. وقوله: (**فإنَّ الأمين ليس شيءٌ مِن القومِ يعدِلُهُ**): الفاء هنا هي السببية التعليلية، والجملة تعليلٌ لسابقتها. وتنكير (**شيء**): في سياق النفي يفيد العموم. وفي الجملة إيجاز حذف، والتقدير: فإنَّ

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (١٣٩٩)، وابنُ وهبٍ في «الجامع» (٢٨٩)، و«الخراج» لأبي يوسفَ ص٢٤، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٥٩١)، والبُرجُلانيُّ في «الكَرمِ والجودِ» (٤٠)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينةِ» ٢/ ٧٧٠، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (١٠٤)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (١٢٠)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٣٢٥).

الخليل الأمين لا يعدله أيُّ شيءٍ من القوم. ثمَّ أتبع ذلك ببيان حقيقة الأمين فقال: (**وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ يَخْشَى اللهَ**): واستعمال الاستثناء بعد النفي أفاد الحصر، كما مرَّ. وفي الجمل السابقة إطنابٌ الغرض منه تعليل النهي وتأكيده. ثمَّ عاد أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى الأسلوب الإنشائي الأنسب للنصيحة؛ فنهي وأمر. وفي جمل النصِّ إطناب ظاهرٌ دعت إليه الحاجة، كما أنَّها لم تخلُ من إيجاز، كما سبق بيانه.

[٥٩٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ، وَلْيَتَوَاضَعْ لَكُمْ مَنْ تُعَلِّمُونَ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ، وَلَا يَقُمْ عِلْمُكُمْ مَعَ جَهْلِكُمْ[1]»[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه من العلماء وطلبة العلم نصيحة يحثُّهم فيها على طلب العلم والتأدُّب بآدابه.

البيان والبلاغة: قوله: (**تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ**): (**أل**) في (**العلم**) للعهد الذهني، والمعهود هو العلم الشرعي، فالعلم - في نصوص الشرع - صار عَلَمًا بالغلبة على العلم الشرعي. وتقديم الجارِّ والمجرور (**للعلم**) على المفعول (**السكينة**) للتشريف. وبين (**العلم**) و(**الحلم**) جناس ناقص. وقوله: (**وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ، وَلْيَتَوَاضَعْ لَكُمْ مَنْ تُعَلِّمُونَ**): استعمال (**من**) الموصولة في الموضعين يفيد العموم، وحذف مفعول (**تُعلِّمون**) في الموضعين - الذي هو الضمير العائد على الاسم الموصول -؛ لتعميم الفعل. وبين (**تُعلِّمون**) الأولى والثانية جناس تام. وقوله: (**وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ**): هذه الجملة تؤكِّد مفهوم جملة (**وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ**). وقوله: (**وَلَا يَقُمْ عِلْمُكُمْ مَعَ جَهْلِكُمْ**): و(**الواو**) عاطفةٌ عطفت جملة

١- في الأصل: (ولا يقم علمكم مع جهلكم) بالواو قبل (لا) وبجزم (يقم)، والتصويب من (المدخل إلى سنن البيهقي) (١/ ٣٣٣)، (ح٥٣٩)، ولفظ (فلا يقوم علمكم) أظهر للمعنى، والله أعلم.

٢- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣٠).

على أخرى، وبين (**علمكم**) و(**جهلكم**) طباق. وجاءت الجملة في رواية أخرى بلفظ: (**فَلا يقُومُ عِلْمُكُمْ مَعَ جَهْلِكُمْ**): والفاء في (**فلا**) تفيد السببية، والمعنى: أنهم إن كانوا من جبابرة العلماء فإن ذلك يتسبَّب في عدم قيام أثر علمهم فيهم، فالجهل يُقصَد به - هنا - أن يكونوا من جبابرة العلم، وإنَّما عبَّر عن ذلك بالجهل تنبيها للمخاطب إلى حقيقة أمره، وتنفيرا له من الوقوع فيه.

[٦٠٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«اسْتَغْزِرُوا الدُّمُوعَ بِالتَّذْكِيرِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذه النصيحة، ولعله قالها في إحدى خطبه أو مواعظه.

لطائف لغوية: (**استغزِروا**): أصله الثلاثي غزَر، وزِيد عليه السين والتاء مسبوقة بهمزة وصل على وزن استفعل، ولهذه الصيغة في اللغة معانٍ كثيرة سبقت الإشارة إليها. وقوله: (**بالتذكير**): سبق الحديث عن الباء واستخداماتها في النَّص رقم أربعة وثلاثمئة، فليعد إليه طالب الزيادة.

البيان والبلاغة: قوله: (**اِسْتَغْزِرُوا الدُّمُوعَ بِالتَّذْكِيرِ**): أتى بالفعل (**استغزروا**) بصيغة (استفعل) للدلالة على الطلب، والمعنى: اطلبوا غزارة الدمع بالتذكير. وشبَّه الدموع بالمطر؛ لأن الوصف بالغزارة - في الأصل - يكون للمطر لا للدمع. وأطلق (**التذكير**) هنا ولم يقيِّده؛ لتذهب نفس السامع في تقييده كلَّ مذهب، والتقدير: بالتذكير بالموت، أو: بالتذكير بأهوال الآخرة، أو: بالتذكير بعقاب الله، ونحو ذلك.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٧٣٦).

[٥٩٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي النِّسَاءِ

«اسْتَعِينُوا عَلَى النِّسَاءِ بِالْعُرْيِ؛ إِنَّ إِحْدَاهُنَّ إِذَا كَثُرَتْ ثِيَابُهَا، وَحَسُنَتْ زِينَتُهَا أَعْجَبَهَا الْخُرُوجُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يشرح أمير المؤمنين رضي الله عنه جانبا من السياسة التي ينبغي أن ينتهجها الزوج مع زوجه؛ ليعينها على القرار في بيتها.

البيان والبلاغة: قوله: (**اسْتَعِينُوا عَلَى النِّسَاءِ بِالْعُرْيِ**): قدَّم المستعان عليه على المستعان به للتخصيص. و(**أل**) في (**النِّساء**) لبيان الحقيقة، وليست لاستغراق أفراد الجنس. و(**العُري**) هنا: كناية عن التقلُّل في الملبس لا انعدامه، أي: ألَّا يكون للمرأة ثياب كثيرة. وقوله: (**إِنَّ إِحْدَاهُنَّ إِذَا كَثُرَتْ ثِيَابُهَا، وَحَسُنَتْ زِينَتُهَا أَعْجَبَهَا الْخُرُوجُ**): هذه الجملة تعليلية للجملة السابقة، بدأها بـ(**إنَّ**)؛ تأكيدا للمعنى المقصود، وإزالة للشك عنه. والزينة هنا تشمل الثياب. وجَعْلُ خبر (**إنَّ**) جملة شرطية يفيد تكرُّر وقوع الخبر عند تحقُّق شرطه. وأكَّد ثبوت وقوع الخبر بمجيء جواب الشرط (**أعجبها**) فعلا ماضيا. وأطلق (**الخروج**)؛ لكراهة ذكر قيده، ولدلالة السياق عليه، والتقدير: أعجبها الخروج من بيتها.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٨٠٠٧).

[٦٠١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَكْسَبَةٌ فِيهَا بَعْضُ الدَّنِيَّةِ[١] خَيْرٌ مِنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (مكْسَبة)، أي: حرفة. و(**الدَّنِيَّة**): أصلها مهموزة، وهي (الدنيئة)، أي: النَّقيصة.

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا المكان ولا الزمان الذي قال فيه أمير المؤمنين ﵁ هذا القول.

لطائف لغوية: قوله: (**مَكْسَبة**): مصدر ميمي، وقد سبق أن ذكرنا الفرق بينه وبين المصدر الصريح وأثره في زيادة المعنى في النص رقم خمسين وثلاثمئة. وقوله: (**الدنِيَّة**): مأخوذ من الأصل الثلاثي (دنأ)، والتي هي بمعني الخسيس والوضيع، وليس (دَنَو) الذي يدل على معنى القرب.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَكْسَبَةٌ فِيهَا بَعْضُ الدَّنِيَّةِ**): تنكير (مكسبة) للتحقير. ووصف المبتدأ (**مكسبة**) بجملة اسمية (**فيها بعض الدنيَّة**) يدلُّ على ثبوت هذا الوصف. و(**أل**) في (**الدَّنيَّة**) للعهد الذهني، والمقصود: الدنية التي يتجنَّبها أكثر الناس. وقوله: (**خَيْرٌ مِنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ**): عدل عن استعمال المصدر (**سؤال**) إلى

١- ذكرهُ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٢٨٦ بلفظِ: (الرِّيبة)، وقالَ: (أي: كَسبٌ فيهِ بعضُ الشَّكِّ أَحلالٌ هو أم حرامٌ، خيرٌ مِن سؤالِ النَّاس).

٢- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤٣، وابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٣٢٣)، وابنُ حبَّانَ في «الثِّقاتِ» ٨/ ٢٠٤.

استعمال المصدر الميمي (**مسألة**) لما في المصدر الميمي من المبالغة في الدلالة على المعنى. وحذَف المفعول الثاني للمصدر الميمي للتعميم.

[٦٠٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاس، إِيَّاكُمْ وَالْبِطْنَةَ[١] مِنَ الطَّعَامِ؛ فَإِنَّهَا مُكْسِلَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، مُفْسِدَةٌ لِلْجَسَدِ، مُورِثَةٌ لِلسَّقَمِ، وَإِنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يُبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ. وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ فِي قُوتِكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَدْنَى مِنَ الْإِصْلَاحِ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّرَفِ، وَأَقْوَى عَلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَإِنَّهُ لَنْ يَهْلِكَ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْثِرَ شَهْوَتَهُ عَلَى دِينِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**البِطنة**): قال صاحب جمهرة اللغة: «البطنة: كثرة الأكل، وإفراط الشِّبَع».

مقتضى الحال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الكلام في إحدى خطبه، يذم فيها الدنيا، وينصح بعدم إشباع شهوة البطن، ويبين الأثر السيئ للإسراف في الطعام.

لطائف لغوية: (**مُكسِلة**)، (**مُفسِدة**)، (**مُورِثة**): ثلاثتها أسماء فاعل، وسيأتي بيان شروط عمل اسم الفاعل عملَ الفعل، وذلك عند شرح النص رقم واحد وأربعين وستمئة.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْبِطْنَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَإِنَّهَا مُكْسِلَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، مُفْسِدَةٌ لِلجَسَدِ، مُورِثَةٌ لِلسَّقَمِ**): بدأ الكلام بقوله: (**أيها الناس**) إشارة منه

١- البِطنةُ: الامتلاءُ الشَّديدُ مِنَ الطَّعام (النهاية ١/ ١٣٦).

٢- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الجوعِ» (٨١)، و«إصلاحِ المالِ» (٣٥٢)، وأبو نعيمٍ في «الطِّبِّ النَّبويِّ» (١٢٧).

إلى أن هذه النصيحة التي سيذكرها عامَّةٌ لكلِّ أحد. واستعمل أسلوب التحذير بـ (إيَّا)؛ للدلالة على خطورة الأمر الذي يريد أن يُحذِّر منه. والجارُّ والمجرور (**من الطعام**) صفة كاشفة؛ إذ البَطْنة لا تكون غالبًا إلا من الطعام، وإنما ذكر هذه الصفة الكاشفة؛ لأنَّ الناس تتغافل عنها، فذكرها منبِّهًا إليها. وقوله: (**فَإِنَّهَا مُكْسِلَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، مُفْسِدَةٌ لِلجَسَدِ، مُورِثَةٌ لِلسَّقَمِ**): عدَّد أخبار اسم (**إنَّ**) - التي هي: (**مُكسِلة**) و(**مُفسِدة**) و(**مُورِثة**) -؛ للدلالة على اجتماع هذه الأوصاف في اسم (**إنَّ**) في آنٍ واحد. وأكَّد اتصافه بها بدخول (**إنَّ**) عليه. ومجيء هذه الأخبار بصيغة اسم الفاعل يدل على ثبوت اتصاف اسم (**إنَّ**) بها. وقوله: (**وإنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يُبْغِضُ الحَبْرَ السَّمِينَ**): ذكر هذه العلة الثانية؛ لإقناع المخاطَب باجتناب الأمر الذي حذَّر منه. وقوله: (**وَلَكِن عَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ فِي قُوتِكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَدْنَى مِنَ الْإِصْلَاحِ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّرَفِ، وَأَقْوَى عَلَى عِبَادَةِ اللهِ**): لَمَّا حذَّر من البِطنة رغَّب فيما يقابلها، وهو القصد في الطعام؛ لكون ذلك أدعى لاستجابة المخاطب. واستعمل أسلوب التعليل في الترغيب فيه كما استعمله قبل في التنفير من البطنة. وبين (**أدنى من الإصلاح**) و(**أبعد من السرف**) مقابلة. وكان مقتضى السياق أن يقيِّد الإصلاح هنا بالإصلاح في المال؛ لأنَّه يقابل السرف، لكن ترك التقييد؛ ليعمَّ كلَّ إصلاح. وأسماء التفضيل (**أدنى**) و(**أبعد**) و(**أقوى**) حذف معها المفضول الذي هو البطنة؛ للمبالغة في تفضيل القصد في القوت عليها، وكأن البطنة أدنى من أن تُذكَر في المفاضلة مع القصد في القوت. وقوله: (**وَإِنَّهُ لَنْ يَهْلِكَ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْثِرَ شَهْوَتَهُ عَلَى دِينِهِ**): ختم الكلام بهذا التذييل الذي يجري مجرى الأمثال؛ لتوكيد مضمون الكلام السابق.

[٦٠٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«بِحَسْبِ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْغَيِّ أَنْ يُؤْذِيَ جَلِيسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَأَنْ يَجِدَ عَلَى النَّاس بِمَا يَأْتِي، وَأَنْ يَظْهَرَ لَهُ مِنَ النَّاس مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الغَي**): الجهل، الضلال. و(**يجِد على الناس**)، أي: يغضب.

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول، فربما كان ذلك في إحدى مواعظه.

لطائف لغوية: الفعل (وَجَد) له معانٍ مختلفة تختلف باختلاف السياق الذي ورد فيه، وباختلاف الحرف الذي يتعدَّى به، وسبق أن أشرنا إلى ذلك وذكرنا بعض أمثلته عند شرح النَّص رقم ثلاثة وستين ومئتين، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: هذا النص لعمر رضي الله عنه فيه تأثُّر في صياغته بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**». وقوله: (**بِحَسْبِ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْغَيِّ أَنْ يُؤْذِيَ جَلِيسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ**): استعمال وصف (**المؤمن**) فيه إشارة إلى أن من اتَّصف بالإيمان لا ينبغي أن يحصل منه هذه الأمور التي سيذكرها، وأن حصول هذه الأمور منه كافية لجعله متَّصفًا بالغيِّ. وقوله: (**فيما لا يعنيه**): الاسم الموصوف (**ما**) يفيد العموم. وقوله: (**وَأَنْ يَجِدَ عَلَى النَّاسِ بِمَا يَأْتِي**): الباء في (**بما يأتي**) تفيد

١- رواهُ البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٤٦٤٢).

السببية، والمعنى: أن يجد على الناس بسبب أمور يأتيها. وحذف مفعول (**يأتي**)؛ لتقرير التعميم الذي تفيده (**ما**) الموصوفة. وقوله: (**وَأَنْ يَظْهَرَ لَهُ مِنَ النَّاسِ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ**): قدَّم الجارَّ والمجرور (**له**) والجارَّ والمجرور (**من الناس**) على الفاعل (**ما يخفى**)؛ للفت الانتباه. وعبارة (**يخفى عليه**) فيها تهكُّم؛ إذ المعنى أنَّه يأخذ على الناس أمورًا موجودة فيه، ولكنه حين أخذها على غيره وترك نفسه على حالها = صار كأنها خفيت عليه، وأكَّد ذلك بقوله: (**من نفسه**).

[٦٠٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لُؤْمٌ بِالرَّجُلِ أَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ مِنَ الطَّعَامِ قَبْلَ أَصْحَابِهِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (لُؤْم): قال صاحب الصحاح: «اللئيم: الدنيء الأصل، الشحيح النفس».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

البيان والبلاغة: تنكير الخبر (لُؤْم) يفيد التهويل، وتقديمه على المبتدأ (**أن يرفع يده**) فيه تشويق المخاطب؛ إذ إنه حين يسمع هذا الخبر الذي فيه تهويل وتخويف فإن نفسه تتطلع لمعرفة المخبر عنه لتحذَر منه، فإذا سمعته استقرَّ في نفسها فكان ذلك أدعى لاجتنابها إياه. واستعمال حرف الجر (من) في قوله: (**أن يرفع يده من الطعام**): فيه إشارة إلى أن اليد كانت ملامسة للطعام فكان الطعام محل ابتداء رفع اليد، فيكون المطلوب أن يُبقي الرجل يده في الطعام؛ ليستأنس صاحبه بها ويُكمل أكله ولا يتعجَّل في إنهائه، وهذا المعنى لا يظهر لو قال: (أن يرفع يده عن الطعام)؛ لأن حرف الجر (**عن**) يفيد المجاوزة، فيكون المطلوب أن لا تتجاوز يد الرجل مكان الطعام إلى مكان آخر من غير أن يُطلَب أن تكون فيه، ولا شكَّ أنَّ امتثال الرجل للأمر الأول أكثر إيناسًا لصاحبه.

١- رواهُ أبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٧/ ٣٩١.

[٦٠٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
فِي تَزْوِيجِ النِّسَاءِ

«لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الرَّجُلِ الْقَبِيحِ؛ فَإِنَّهُنَّ يُحْبِبْنَ مَا تُحِبُّونَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في الروايات ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا الكلام، ولكنها نصيحة موجَّهة لأولياء المرأة ربما تكون في إحدى الخطب أو في دار القضاء لمشكلة عُرضت عليه.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الرَّجُلِ الْقَبِيحِ**): في إضافة (**فتياتكم**) إلى ضمير المخاطَبين استجلاب لعطفهم، وذلك بتنبيههم إلى أن المضاف إليهم شيء من خواصِّهم. و(**أل**) في (**الرجل**)؛ لبيان الحقيقة، فلا تعيِّن فردًا بعينه، ولكن هذا الاسم تعيَّن بالصفة التي بعده. وقوله: (**فَإِنَّهُنَّ يُحْبِبْنَ مَا تُحِبُّونَ**): تعليل حَسن لجملة النهي التي ابتُدئ بها الكلام، وهو تعليل مقنع للمخاطَب استعمل فيه أسلوب القياس، ولم يقل: (فإنهنَّ يكرهن ما تكرهون) مع أنَّ هذا اللفظ هو المطابق للنهي المتقدِّم، وإنما عدل إلى قول: (**فإنهنَّ يحببن ما تحبون**) لما فيه من الإرشاد إلى ما ينبغي فعله، وهو أن يحبُّوا لفتياتهم ما يحبُّون لأنفسهم.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠٣٣٩)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٨١١) واللَّفظُ لهُ، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٦٩، وابنُ أبي الدُّنيا في «كتابِ العيالِ» (١٢٤)، والآبنوسيُّ في «المشيخةِ» (٢٣٢).

[٦٠٦]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

«يُصَفِّي لَكَ وُدَّ أَخِيكَ ثَلَاثٌ: أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَام، وَأَنْ تَدْعُوَهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ تُوَسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ. وَكَفَى بِالْمَرْءِ عَيًّا أَنْ يَجِدَ عَلَى النَّاس فِيمَا يَأْتِي، وَأَنْ يَبْدُوَ لَهُ فِيهِمْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَنْ يُؤْذِيَهُ فِي الْمَجْلِسِ بِمَا لَا يَعْنِيهِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لم أقف في الروايات على الحال أو المكان أو الزمان الذي قال فيه أمير المؤمنين ﵁ هذه الوصية، لكن يبدو أنها وصيَّة أوصى بها الفاروق أحد أحبابه.

لطائف لغوية: جاء في الأثر ذِكر الودِّ؛ فما الفرق بينه وبين الحب؟ قال صاحب كتاب صيد الأفكار في الأدب والأخلاق: «الحب ما استقر في القلب، والوُد ما ظهر في السلوك، فإذا كنت تحب فلانا فمشاعر الميل نحوه هي الحب، وابتسامك في وجهه هي الود، وإذا قدمت إليه هدية فهي ود، أو أعنته في مشكلة فهي ود، أو عدته في مرض فهي ود، أو أعطيته هدية في زواجه فهي ود، أو نصحته فهي ود، فالمشاعر الداخلية هي الحب، والظواهر المادية هي الود، فكل ودود محب وليس كل محب ودودا».

١- رواهُ ابنُ وهبٍ في «الجامع» (٢٢٢)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٩٨٦٥) مُختصَرًا، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٨٣٩٨)، وأبو الشَّيخِ الأصبهانيُّ في «الفوائدِ» (١٣)، والسُّلميُّ في «آدابِ الصُّحبةِ» (٤٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٥٩.

البيان والبلاغة: قوله: (**يُصَفِّي لَكَ وُدَّ أَخِيكَ ثَلَاثٌ: أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ، وَأَنْ تَدْعُوَهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ تُوَسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ**): في قوله: (**يصفِّي لك وُدَّ أخيك ثلاث**): استعمال الفعل (**يصفِّي**) بصيغة المضارع يفيد الدوام والاستمرار. وتقييده بالجارِّ والمجرور (**لك**) للفت انتباه المخاطَب وترغيبه في تحقيق المعنى المضمَّن في هذا الكلام. وتقديم المفعول على الفاعل للرعاية والاهتمام. وتنكير الفاعل (**ثلاث**) للتعظيم. وإبهامه الحاصل من حذف المعدود فيه تشويق للمخاطَب يحمل المخاطَب على الإصغاء؛ ليرتفع ما حصل في نفسه من إبهام. وفي قوله: (**أن تبدأ**) و(**أن تدعوه**) و(**أن توسِّع**): استعمل الأفعال المضارعة المسنَدة إلى المخاطَب لتقرير ترغيب المخاطب في تحقيق المعنى المضمَّن في هذا الكلام. وقوله: (**وَكَفَى بِالْمَرْءِ عيًّا أَنْ يَجِدَ عَلَى النَّاسِ فِيمَا يَأْتِي، وَأَنْ يَبْدُوَ لَهُ فِيهِمْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَنْ يُؤْذِيَهُ فِي الْمَجْلِسِ بِمَا لَا يَعْنِيهِ**): تقدَّم التعليق على مثل هذا النص عند شرح الأثر رقم ثلاثة وستمئة.

[٦٠٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْحِرْصِ عَلَى الصُّلْحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ

«رُدُّوا الْخُصُومَ حَتَّى يَصْطَلِحُوا؛ فَإِنَّهُ أَبْرَأُ لِلصُّدُورِ، وَأَقَلُّ لِلْحُبَابِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الحُباب**): اسم للشيطان.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه القضاة، يأمرهم بردِّ الخصوم حتى يصطلحوا فيما بينهم.

لطائف لغوية: سبق الحديث عن أفعل التفضيل ودلالاتها عن شرح النص رقم ثمانية وستين وثلاثمئة، فراجعه إذا أردت الاستزادة.

البيان والبلاغة: (**حتى**) في قوله: (**حتى يصطلحوا**) تفيد التعليل، وليست تفيد الغاية، فاصطلاح الخصوم هو علَّة الأمر بردِّهم. وبين (**الخصوم**) و(**يصطلحوا**) طباق، وهو طباق بين اسم وفعل. وفي قوله: (**فَإِنَّهُ أَبْرَأُ لِلصُّدُورِ وَأَقَلُّ لِلْحُبَابِ**): لم يقيِّد اسمَي التفضيل (**أبرأ**) و(**أقلُّ**)، ولم يذكر المفضول معهما؛ لإفادة المبالغة فيهما. ولم يذكر تمييز اسم التفضيل (**أقلُّ**) وتركه مبهمًا؛ لتذهب نفس السامع في تعيينه كلَّ مذهب، ولعلَّ التقدير: وأقل سعيًا للحُباب. وذكر الشيطان باسم (**الحُباب**) ولم يذكره باسمه المعروف؛ للفت انتباه السامع.

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٦٩، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٣٣٤٩)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١١٣٦٠).

[٦٠٨]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

عَنْ صَلَاحِ الْأَئِمَّةِ

«إِنَّ النَّاس لَمْ يَزَالُوا مُسْتَقِيمِينَ، مَا اسْتَقَامَتْ لَهُمْ أَئِمَّتُهُمْ وَهُدَاتُهُمْ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا المكان ولا الزمان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

البيان والبلاغة: استعمل الجملة الاسمية في التعبير عن المعنى المراد؛ لتقرير ثبوت هذا المعنى، وأكَّد ثبوته بإدخال (**إنَّ**) على الجملة الاسمية. واستعمل الفعل (**يزالوا**) بصيغة المضارع؛ للدلالة على الاستمرار. واستعمل (**ما**) المصدرية الظرفية؛ لتقييد اتِّصاف اسم (**إنَّ**) بخبرها بتحقُّق المعنى المفهوم من جملة صلة (**ما**). وقدَّم الجارَّ والمجرور (**لهم**) على فاعل (**استقامت**)؛ للتخصيص. وقدَّم ذكر (**أئمَّتهم**) على ذكر (**هداتهم**)؛ لبيان الأهمية.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٣/ ٢٩٢، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤٣.

[٦٠٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهْمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ، وَمَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ فِي يَدِهِ. وَضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ مِنْهُ مَا يَغْلِبُكَ. وَمَا كَافَأْتَ مَنْ عَصَى اللهَ فِيكَ مِثْلَ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ. وَعَلَيْكَ بِصَالِحِ الْإِخْوَانِ، أَكْثِرِ اكْتِسَابَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ زَيْنٌ فِي الرَّخَاءِ، وَعُدَّةٌ عِنْدَ الْبَلَاءِ. وَلَا تَسَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ حَتَّى يَكُونَ؛ فَإِنَّ فِي مَا كَانَ شُغْلًا عَنْ مَا لَمْ يَكُنْ، وَلَا يَكُنْ كَلَامُكَ بِذْلَةً إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَشْتَهِيهِ وَيَتَّخِذُهُ غَنِيمَةً، وَلَا تَسْتَعِنْ عَلَى حَاجَتِكَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ نَجَاحَهَا، وَلَا تَسْتَشِرْ إِلَّا الَّذِينَ يَخَافُونَ اللهَ، وَلَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِ، وَتَخَشَّعْ عِنْدَ الْقُبُورِ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(الخِيرة)** في قوله: **(كانت الخيرة في يده)**: قال صاحب مقاييس اللغة: «الخِيَرَةُ: الخِيارُ». و**(بِذْلَة)** في قوله: **(لا يكن كلامك بذلة)**: قال ابن سيده في المحكم: «البَذْلُ: ضد المنع. بذَله يَبْذُلُه ويَبْذِلُه بذلا. وكلُّ من طابت نفسه بشيء فهو باذلٌ له. والابتذال ضدُّ الصيانة. **والبِذْلَة** والمِبذَلَة من الثياب: ما لا يصان».

١- رواهُ الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ في «الأخبارِ المُوفَّقيَّاتِ» ص٣٢، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٨٩)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (٧٤٧) مُختصَرًا، وأبو طاهرٍ في «المُخلِّصيّاتِ» (٣٠٣٧)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٧٩٩٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٥٩-٣٦٠، والسَّخاويُّ في «البلدانيَّاتِ» ص٢٥١.

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين ﷺ لمستمعه نصائح غالية في الدين والحياة، ويبدو أنها كانت ضمن إحدى خطب الفاروق ﷺ.

البيان والبلاغة: هذا النَّص احتوى على جملة من الحِكَم والأمثال البليغة. فقوله: (**مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهَمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ**): استعمل أسلوب الشرط للتخويف والتحذير. وفي قوله: (**من عرَّض نفسه**): تشخيص للنفس؛ فائدته حمل المخاطَب على تصوُّر المعنى. ومقتضى السياق أن يكون جواب الشرط: (أساء الناس به الظنَّ)، ولكنه عدل عن ذكر هذا الجواب إلى النهي عن الاعتراض عليه؛ إشارة إلى أن هذا الأمر نتيجة حتمية لفعل الشرط المذكور. واستعمال الاسم الوصول (**من**) يفيد العموم، أي أن الاتِّصاف بما تتضمَّنه صلة هذه الموصول محتمل من كل أحد، ومجيء الفعل في جملة الصلة بصيغة الماضي فيه تأكيد لوقوعه. وتقديم الجار والمجرور (**به**) على المفعول للتنبيه. وقوله: (**وَمَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ فِي يَدِهِ**): مجيء فعل الشرط وجوابه فعلا ماضيا يفيد تأكيد تحقُّق الجواب عند تحقُّق شرطه. وتشبيه الخِيَرة بشيء محسوس يمكن الإمساك به وتحكُّم اليد به على سبيل الاستعارة = فائدته بيان الغاية في التحكُّم، وهذه الجملة كناية عن أنَّ مَن كتم سرَّه في عمل شيء ثم أراد أن يفعله كان له الخيار في فعله؛ لأنَّ الناس لم يطَّلعوا على هذا الفعل بعدُ فيُجبر على فعله. وقوله: (**وَضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَأْتِيَكَ مِنْهُ مَا يَغْلِبُكَ**): حرف الجرِّ (**على**) يفيد الاستعلاء المجازي. وفي قوله: (**أحسنِه**) حذف للمضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، والتقدير: أحسن احتمالاته. وفي قوله: (**حتى يأتيك منه ما يغلبك**): تشخيص للدليل الذي يؤكِّد سوء أمر من كان أمره محتملا، وذلك بوصف هذا الدليل بشيء يأتي ويغلب من حاول دفعه. واستعمال

(**ما**) الموصولة في التعبير عنه؛ لإبهامه وللتحرُّز من التصريح بذكر. وقوله: (**وَمَا كَافَأْتَ مَنْ عَصَى اللهَ فِيكَ مِثْلَ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ**): تقدَّم الكلام على نحو هذه العبارة في الأثر رقم سبعة وتسعين. وقوله: (**وَعَلَيْكَ بِصَالِحِ الْإِخْوَانِ؛ أَكْثِرِ اكْتِسَابَهُمْ فَإِنَّهُمْ زَيْنٌ فِي الرَّخَاءِ، وَعُدَّةٌ عِنْدَ الْبَلَاءِ**): استعمل اسم الفعل (**عليك**) لتأكيد معنى الأمر. وأضاف الصفة (**صالح**) إلى الموصوف (**الإخوان**)؛ لتقرير لصوق الصفة بالموصوف. وجملة (**أكثر اكتسابهم**) جاءت جوابا لسؤال مقدَّر ناتج من الجملة المتقدِّمة، وكأن السامع يسأل كيف يحقِّق هذا الأمر؟ ثمَّ علل هذا الجواب بقوله: (**فإنهم زين في الرخاء، وعدَّة عند البلاء**)؛ ليكون الأمر أدعى للاستجابة. وفي استعمال حرف الجرِّ (**في**) مع الرخاء واستعمال الظرف (**عند**) مع البلاء نكتة لطيفة؛ وذلك أنَّ حرف الجر (**في**) يفيد الظرفية، فيكون اعتبار صالح الإخوان زينا داخلا في جملة الرخاء، أما مع البلاء فليسوا داخلين فيه، بل هم عدَّة يكونون عند البلاء يستعان بهم عليه. وأصل الكلام: (فإنهم كالزَّين في الرخاء، وكالعدَّة عند البلاء)، فحذف أداة التشبيه فصار تشبيها بليغا. ونكَّر (**زين**) و(**عدَّة**) للتعظيم. وقوله: (**وَلَا تَسَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ حَتَّى يَكُونَ؛ فَإِنَّ فِي مَا كَانَ شُغْلًا عَنْ مَا لَمْ يَكُنْ**): استعمال الاسم الموصول (**ما**) في المواضع الثلاثة لإفادة العموم. وتقديم الجار والمجرور (**في ما كان**) - الذي هو خبر (**إن**) - على اسمها (**شغلا**) للفت انتباه السامع إلى هذا الخبر وتقرير معناه في نفسه. وتنكير (**شغلا**) للتعظيم. وقوله: (**وَلَا يَكُنْ كَلَامُكَ بِذلَةً إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَشْتَهِيهِ وَيَتَّخِذُهُ غَنِيمَةً**): النهي هنا للإرشاد، والقصر حقيقي تحقيقي. وفي قوله: (**يشتهي**) استعارة؛ إذ شبَّه الكلام بالطعام، ثم حذف المشبَّه به وترك شيئًا من لوازمه، وهو أنه يُشتهى، وذلك أن الطعام الشهي لا يُبذل لكلِّ أحد، وكذلك ينبغي أن يكون الكلام. وقوله: (**وَلَا تَسْتَعِنْ عَلَى حَاجَتِكَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ نَجَاحَهَا**):

القصر هنا حقيقي تحقيقي كالذي قبله. وقوله: ﴿**وَلَا تَسْتَشِرْ إِلَّا الَّذِينَ يَخَافُونَ اللهَ**﴾: هنا عدل إلى استعمال الاسم الموصول (**الذين**) بعد أن استعمل في الجملتين السابقتين الاسم الموصول (**ما**) الذي يفيد العموم، وفي هذا العدول إشارة إلى أن الذين ينبغي استشارتهم أناس مخصوصون، لا عموم الناس. وقوله: ﴿**وَلَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِ**﴾: (**أل**) في (**الفاجر**) لبيان الحقيقة، والفاء في (**فتعلَّم**) تفيد السببية، أي أن صحبة الفاجر سبب في تعلُّم الفجور منه. وقوله: ﴿**وَتَخَشَّعْ عِنْدَ الْقُبُورِ**﴾: الفعل (**تخشَّع**) جاء بصيغة (تفعَّل) للدلالة على معنى الطلب، أي: اطلب الخشوع عند القبور؛ لأنها تذكِّر بالموت، ويحتمل أنه أراد معنى التظاهر، أي: تظاهر بالخشوع عند القبور؛ فليس هذا المكان مكان تكبُّر وتجبُّر.

[٦١٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا يَسْتَعْمِلُ الْفَاجِرَ إِلَّا فَاجِرٌ، مَنِ اسْتَعْمَلَ فَاجِرًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ فَاجِرٌ؛ فَهُوَ فَاجِرٌ مِثْلُهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الفاجر**): اسم فاعل من الفعل (فجر). قال صاحب مقاييس اللغة: «الفاء والجيم والراء أصل واحد، وهو التفتح في الشيء. من ذلك الفَجْر: انفجار الظلمة عن الصبح. ومنه: انفجر الماء انفجارا: تفتح. والفُجرة: موضع تفتح الماء. ثم كثر هذا حتى صار الانبعاث والتفتح في المعاصي فجورا؛ ولذلك سمي الكذب فجورا. ثم كثر هذا حتى سمي كل مائل عن الحق فاجرا».

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه في شأن تولية واستعمال الفجرة، محذرًا الولاة من ذلك.

البيان والبلاغة: بدء الكلام بقول: (**لا يستعمل الفاجرَ إلا فاجرٌ**) فيه براعة استهلال؛ إذ فيه إشارة إلى مضمون الكلام. والقصر هنا ادِّعائي للتوبيخ والتحذير. ويدلُّ على أنَّ القصر ادِّعائي قولُه: (**من استعمل فاجرًا وهو يعلم أنه فاجر**)، فيخرج من حكم القصر من استعمل فاجرًا دون أن يعلم أنَّه فاجر. وفي تقديم المفعول على الفاعل إهانة للفاعل. وقوله: (**مَنِ اسْتَعْمَلَ فَاجِراً وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ فَاجِرٌ، فَهُوَ فَاجِرٌ**

١- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٦٩ و٣/ ٢٠٩.

مِثْلُهُ): الجملة الحالية (**وهو يعلم أنه فاجر**): قيد للشرط. ومجيء جواب الشرط جملة اسمية إشارة إلى ثبوت هذا الجواب عند تحقُّق الشرط مع القيد المذكور.

[٦١١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلًا عَظِيمَ الْبَطْنِ

قَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالَ: بَرَكَةُ اللهِ. فَقَالَ: «عَذَابٌ مِنَ اللهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب عمر رضي الله عنه رجلًا كبير البطن يفتخر بكبَر بطنه.

لطائف لغوية: ذكر الثعالبي في فقه اللغة، أوصاف البطن عند العرب، فقال: «الدَّحَل: عظمه. الحَبَن: خروجه. الثَّجَل: استرخاؤه. القَمَل: ضِخَمه. الضُّمور: لطافته. البَجَر: شُخوصه. التَّخَرخُر: اضطرابه من العِظَم».

البيان والبلاغة: الاستفهام في قوله: (**مَا هَذَا؟**) استفهام للإنكار والتوبيخ. واستعمال اسم الإشارة (**هذا**) للتحقير. وقوله: (**عَذَابٌ مِنَ اللهِ**): من باب التهكُّم؛ إذ إن المخاطب سمَّى كبر بطنه بركة، فبيَّن له عمر رضي الله عنه على سبيل التهكُّم أن هذا عذاب وليس بركة، وحذف المبتدأ؛ لكراهية ذكره، والتقدير: هذا عذاب.

١- رواهُ ابنُ الأعرابيِّ في «المعجمِ» (٦٩٠).

[٦١٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّمَا مَقَاطِعُ الْحُقُوقِ عِنْدَ الشُّرُوطِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين ﵁ رجلا اشترطت عليه زوجه ألا يُخرجها من بيته.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب القصر بـ (**إنما**) لتقرير المعنى الذي سيتكلَّم عنه، وهذا القصر قصر إضافي لقلب ما يتوهَّمه المخاطَب، فظاهر حال المخاطَب أنه لا يعتبر ثبوت الحقوق بالشرط. وفي قوله: (**عند الشروط**): إيجاز بالحذف، والتقدير: عند وجود الشروط. وعبَّر عن ثبوت الحقوق بقوله: (**مقاطع الحقوق**)؛ إشارة إلى أن ثبوتها محقَّق مقطوع به.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» تعليقًا، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٦٦٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٦٧٠٦)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٤٤٣٨).

[٦١٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّا وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه أهمية الصبر وأثره في العيش.

البيان والبلاغة: وفي قوله: **(وجدنا)**: إشارة إلى أنَّه كان يبحث عن خير العيش في الدنيا حتى وجده. ومجيء هذا الفعل بصيغة الماضي؛ إشارة لتحقُّق وقوعه. واستعمال ضمير الجمع **(نا)** في **(وجدنا)** يدلُّ على أن هذا الأمر لا يختص به وحده، بل هو لكل من طلب خير العيش. والباء في **(بالصبر)** تفيد الإلصاق، والمعنى أن خير العيش إنما يكون إذا كان الصبر ملتصقا به.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» تعليقًا، وابنُ المباركِ في «الزُّهدِ» (٦٣٠) و(٩٩٧)، ووكيعٌ في «الزُّهدِ» (١٩٨)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦١٢).

[٦١٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْ أُتِيتُ بِرَاحِلَتَيْنِ: رَاحِلَةِ شُكْرٍ، وَرَاحِلَة صَبْرٍ، لَمْ أُبَالِ أَيَّهُمَا رَكِبْتُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين ﷺ فضل الشكر والصبر، وأنَّهما يستويان عنده في المنزلة.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب الاستعارة؛ لتقريب المعنى وتصويره في ذهن المخاطب، وذلك بتشبيه كل من الصبر والشكر بالراحلة، ومن اللطائف في اختيار هذه الاستعارة أن حال الإنسان في هذه الدنيا كحال المسافر، كما جاء في الحديث: **«مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**[2]، والمسافر يلزمه راحلة يستعين بها في سفره، ويقصد عمر ﷺ براحلة الشكر: الشكر في السرَّاء، ويقصد براحلة الصبر: الصبر في الضَّرَّاء، والإنسان في هذه الدنيا متقلِّب بين هاتين الحالتين. وبنى الفعل (**أُتِيتُ**) للمفعول؛ لأن تعيين الفاعل لا يفيد. واستعمل أسلوب التفصيل بعد الإجمال لتشويق السامع، فأجمل ذكر الراحلتين، ثم فصَّل هذا الإجمال. وفي قوله: (**لم أبالِ أيَّهما ركبت**): ترشيح للاستعارة؛ لأن الركوب من

١- رواهُ المدائنيُّ في «التَّعازِي» (١٣٧)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّبرِ والثَّوابِ عليهِ» (٧) بلفظٍ آخرَ.

٢- رواه أحمد وأصحاب السنن.

لوازم المستعار منه. وقوله هذا كناية عن استواء حالتي الشكر في السرَّاء والصبر في الضَّرَّاء لديه.

[٦١٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى عَلَى رَجُلٍ ثَوْبًا مُعَصْفَرًا

«دَعُوا هَذِهِ الْبَرَّاقَّاتِ لِلنِّسَاءِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(البرّاقات)**: قال صاحب مقاييس اللغة: «وكلُّ شيء يتلألأ لونه فهو بارق يبرق بريقا».

مقتضى الحال: يعرِّض أمير المؤمنين ﵁ برجل رآه يلبس ثوبا معصفَرا، ناهيا إياه عن لبسه.

البيان والبلاغة: استعمل اسم الإشارة **(هذه)** للتحقير. واستغنى بذكر الوصف **(البرّاقات)** عن ذكر الموصوف **(الملابس)**؛ إشارة منه إلى أن علَّة أمره بترك هذه الملابس راجعة إلى الوصف الظاهر عليها لا إلى شيء في ذاتها.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٩٩٧٠).

[٦١٦]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

فِي أَدَبِ الْمَشْيِ

«إِنَّ خَفْقَ[١] النِّعَالِ خَلْفَ الْأَحْمَقِ، قَلَّ مَا يُبْقِي مِنْ دِينِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**خفق النعال**): صوت المشي فيها. (**الأحمق**): قال صاحب الصحاح: «الحُمْقُ والحُمُقُ: قِلَّةُ العقل».

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن ضرر وخطورة اتباع الناس للحمقى وسيرهم خلفهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**خفق النعال**): كناية عن الاتباع الأعمى. وفي قوله: (**خلف الأحمق**): استعمل هذا الوصف من باب التهكُّم؛ للتنفير من الوقوع في هذا الأمر، فسمَّى من يفرح باتباع الناس له أحمقَ. وقوله: (**قلَّ ما يُبقي من دينه**): احترس هنا من إطلاق الحكم بذهاب دين جميع من يفرح باتباع الناس له وتعظيمهم له بغير حقٍّ؛ فاستعمل - لتقييد الحكم - الفعلَ (**قلَّ ما**). وأدخل حرف الجر (**من**) على (**دينه**) ليفيد التبعيض.

١- الخَفْق: صوتُ النَّعلِ وما أشبَهَها مِن الأصواتِ. «لسان العرب» ١٠/ ٨٣.
٢- رواهُ أبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٩/ ١٢.

[٦١٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«الشِّتَاءُ[١] غَنِيمَةُ الْعَابِدِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن منزلة فصل الشتاء عند العُبَّاد.

البيان والبلاغة: هذه العبارة فيها إيجاز قِصَر؛ فقد احتوت على كلمات ثلاث حملت الكثير من المعاني، فالمقصود بالشتاء: فصل الشتاء حين يطول الليل ويقصر النهار، وسمَّاه غنيمة؛ لأن العابد يغتنم طول الليل في القيام، وقصر النهار في الصيام. وهذا المعنى فُهم من إضافة الغنيمة إلى العابد، ويُفهم من هذه الإضافة أيضًا أن الشتاء غنيمة للعابد دون غيره. وفي الجملة قَصر بتعريف الطرفين، وهذا القصر ادِّعائي فائدته بيان حرص العابد على الأوقات التي تعينه على عبادته.

١- في نسخةِ «الزُّهدِ» للإمامِ أحمدَ المطبوعةِ: (الثَّناءُ).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٩٨٣٥)، والقاسمُ بنُ موسى في «جُزئِه» (١٦)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥١ و٨/ ١٣٣ و٩/ ٢٠.

[٦١٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا يَغُرَّنَّكَ خُلُقُ امْرِئٍ حَتَّى يَغْضَبَ، وَلَا دِينُهُ حَتَّى يَطْمَعَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه الأمور التي تعرف بها حقيقة أخلاق المرء وتمسكه بدينه.

البيان والبلاغة: استعمل الدلالة العقلية؛ ليبيِّن للمخاطب كيف يحكم على خُلُق المرء ودينه، فنهى عن أن يغترَّ بخلق المرء حتى يغضب، ومفهوم هذا الكلام أن المرء إذا غضب بان خُلُقه على حقيقته. وكذا نهى عن أن يغترَّ بدِين المرء حتى يطمع، ومفهوم ذلك أن المرء إذا عُرضت عليه الدنيا فطمع فيها بانت حقيقة دِينه. وزيادة (**لا**) في (**ولا دينه**) لتأكيد النهي. وفي إسناد الاغترار إلى الخُلُق والدِّين مجاز عقلي، وأصل الكلام: (لا يغرَّنَّك امرؤ بخُلُقه حتى يغضب، ولا بدِينه حتى يطمع)، وفائدة هذا المجاز في الإسناد لفت انتباه السامع إلى ما يحصل فيه الاغترار عادةً؛ ليحذر من ذلك.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٣١.

[٦١٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنِ اتَّجَرَ فِي شَيْءٍ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَلَمْ يُصِبْ فِيهِ، فَلْيَتَحَوَّلْ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه جانبا من السياسة التي ينبغي أن يتبعها التاجر في تجارته.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَنِ اتَّجَرَ فِي شَيْءٍ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَلَمْ يُصِبْ فِيهِ**): استعمل الفعل (**اتَّجر**) بصيغة (افتعل) لإفادة معنى التصرُّف باجتهاد ومبالغة، والمقصود أنَّ هذا التاجر بالغ في بذل الجهد في تجارته. واستعمل الجمع (**مِرارًا**) بصيغة (فِعَال)، وهذه الصيغة من صيغ جموع الكثرة، مع أن العدد (**ثلاثة**) الأصل أن تُستعمل له صيغة من صيغ جموع القلَّة، ومن أسرار هذا العدول إلى استعمال جمع الكثرة الإشارة إلى أن الاتِّجار في الشيء ثلاث مرات كثير عُرفًا. وحذف مفعول (**يُصِب**) ليعمَّ كلَّ ربح قلَّ أو كثر. وقوله: (**فَلْيَتَحَوَّلْ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ**): الأمر هنا أمر إرشاد وتوجيه لا أمر إلزام. وقيَّد الفعل (**يتحوَّل**) بالجارِّ والمجرور (**منه**) لتقرير ترك هذا الشيء الذي اتُّجر فيه.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٢٣٤)، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٥١٣) و(٣٠٠٩).

[٦٢٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ لَقِيَ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ

فَقَالَ: «أَنْتُمُ الْمُتَوَاكِلُونَ. إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(المتواكلون)**، و**(المتوكل)**: قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «تواكل القوم: اتَّكل بعضهم على بعض. والقوم فلانا: تركوه ولم يعينوه فيما داهمه. توكَّل الرجل بالأمر: ضمن القيام به وقبل الوكالة. وعلى الله: استسلم إليه. وفي الأمر: أظهر العَجز واعتمد على غَيره».

مقتضى الحال: ظهر من الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام لأُناس من أهل اليمن يزعمون أنهم متوكلون فبين لهم حقيقة التوكل، ومَن هو المتوكل حقا.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَنْ أَنْتُمْ؟**): هذا الاستفهام استفهام تقريري. وقوله: (**أَنْتُمُ الْمُتَوَاكِلُونَ**): جاء بهذه الجملة خالية من المؤكِّدات مع أن المخاطَب يعتقد العكس؛ إشارة إلى أن هذا الأمر ظاهر بيِّن ليس بحاجة إلى توكيد. ثم استعمل أسلوب القصر فقال: (**إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ -**

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٣٠٢٧).

عَزَّ وَجَلَّ -): وهذا القصر قصر إضافي؛ لقلب ما في ذهن المخاطَبين، وهو قصر موصوف على صفة، إلا أن هذه الصفة - **الذي يلقي حبَّه في الأرض ويتوكَّل على الله** - أراد بها التمثيل، وإلقاء الحب في الأرض كناية عن الأخذ بالأسباب.

[٦٢١]

وَمِنْ كَلَام لَهُ
لِرَجُلٍ

«إِذَا اشْتَرَيْتَ بَعِيرًا فَاشْتَرِهِ عَظِيمَ الْخَلْقِ؛ إِنْ أَخْطَأَكَ خُبْرُهُ، لَمْ يُخْطِئْكَ سُوقُهُ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الخُبر): العلم بالشيء، والخبرة به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٩١].

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين ﷺ رجلا مبينا له الصفات التي ينبغي أن يراعيها عند شراء بَعير.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا اشْتَرَيْتَ بَعِيرًا فَاشْتَرِهِ عَظِيمَ الْخُلْقِ**): استعمل اسم الشرط (**إذا**) للدلالة على أن الغالب حصول فعل الشرط. وقوله: (**إِنْ أَخْطَأَكَ خُبْرُهُ لَمْ يُخْطِئْكَ سُوقُهُ**): هذه الجملة جواب لسؤال مقدَّر ناشئ عن الجملة السابقة، تقديره: لِمَ أشتريه عظيم الخَلق؟ وقد استعمل هنا حرف الشرط (**إن**) للتفاؤل بعدم وقوع فعل الشرط. وفي إسناد (**أخطأ**) إلى (**خُبر**) مجاز عقلي، وأصل الكلام: (إن أخطأه خُبرُك) ولكنه قلب الكلام؛ لظهور المعنى. وترك إسناد الخطأ إلى خُبْر المخاطب؛ تلطُّفا معه.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٥١٣) و(٣٠٠٩).

[٦٢٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ أُتِي بِامْرَأَةٍ شَابَّةٍ زَوَّجُوهَا شَيْخًا كَبِيرًا، فَقَتَلَتْهُ

«يَا أَيُّهَا النَّاس، اتَّقُوا اللهَ، وَلْيَنْكِحِ الرَّجُلُ لُمَتَهُ مِنَ النِّسَاءِ، وَلْتَنْكِحِ الْمَرْأَةُ لُمَتَهَا مِنَ الرِّجَالِ»، يَعْنِي شِبْهَهَا[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**لُمَتَه**)، و(**لمتها**): قال صاحب تهذيب اللغة: «لُمَةُ الرَّجُل: مِثْلُه».

مقتضى الحال: قضية رفعت إلى أمير المؤمنين ﷺ في شأن امرأة شابة زوَّجها أهلها شيخا كبيرا فقتلته.

البيان والبلاغة: بدأ بجملة النداء (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**)؛ لتعميم الكلام الذي يريد أن يقوله، ثم أمر بالتقوى فقال: (**اتَّقُوا الله**)؛ لينصاع كلُّ من يتَّقى الله إلى هذا الأمر الذي سيقوله، والذي عطفه على الأمر بالتقوى، وهو قوله: (**وَلْيَنْكِحِ الرَّجُلُ لُمَتَهُ مِنَ النِّسَاءِ، وَلْتَنْكِحِ الْمَرْأَةُ لُمَتَهَا مِنَ الرِّجَالِ**)، وفي هذا العطف تعظيم لذاك الأمر. و(**أل**) في (**الرجل**) و(**المرأة**) لبيان الحقيقة. وحرف الجر (**من**) في (**من النساء**) و(**من الرجال**) لبيان الجنس. وكان يمكنه الاكتفاء بقول: (**ولينكح الرجلُ لُمته من النساء**) ليدل بمنطوق هذه الجملة على مفهوم جملة (**ولتنكح المرأة لُمتها من الرجال**)، ولكنه أطنب بذكر الجملة الثانية؛ ليقرر المعنى ويؤكده.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (٨١٠)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٦٨.

[٦٢٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْعَطَاءِ

«إِذَا أَعْطَيْتُمُوهُمْ، فَأَغْنُوا»[١]، يَعْنِي مِنَ الصَّدَقَةِ.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه وصية من وصايا أمير المؤمنين رضي الله عنه للقائمين على توزيع الصدقات والعطايا من عُمَّال وغيرهم.

البيان والبلاغة: استعمل أداة الشرط (**إذا**) لتأكيد وقوع فعل الشرط. وحذف المفعول الثاني من (**أعطيتموهم**) لإطلاق الفعل، وليشمل الحكم كلَّ عطيَّة. وحذف المفعول الثاني من (**فأغنوا**) للتعميم.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٧٢٨٦)، والقاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (١٧٧٨)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٠٥٢٦)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٢٢٧٢)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٠٢)، والخرائطيُّ في «مكارمِ الأخلاقِ» (١٣٠)، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠٩٠).

[٦٢٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْحَضِّ عَلَى الْعَمَلِ

«مَا خَلَقَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِيتَةً أَمُوتُهَا، بَعْدَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحْلٍ، أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ، أَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**شعبتي رحل**): قال صاحب المغرب في ترتيب المعرب: «(الشُّعْبَةُ): واحدة شُعَبِ الشجرة، وبها سُمِّي شعبةُ بن الحجاج بن الورد. ومنها **شُعْبَتا الرَّحْلِ**: شَرْخاه، وهما: قادِمَتُه وآخِرَتُه».

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه فضل العمل والسعي على الرزق.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا خَلَقَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِيتَةً أَمُوتُهَا بَعْدَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحْلٍ**): تنكير (**مِيتة**) في سياق النفي يفيد العموم، ولكنه خصَّ هذا العموم بجملة (**أموتها**) الواقعة وصفًا لـ (**مِيتة**)، وهذه الجملة الفعلية التي فعلها مضارع فيها إشارة إلى أن الموت حاضر قائم به، وأنه قريب لا مفرَّ منه. وجملة (**بعد القتل في سبيل الله**) جملة اعتراضية فائدتها التنبيه على أن أعظم ميتة هي القتل في سبيل الله، وفيها تقرير أن هذه الميتة لشرفها لا تقارن بغيرها؛ فكل ميتة - وإن عظُمت - تكون بعد القتل في سبيل الله

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٢٠٧).

في العِظَم والشرف. وقوله: (**أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رحل**): استعمل المصدر المؤوَّل (**أن أموت**) بدلا من المصدر الصريح، لما في المصدر المؤوَّل من إسناد الفعل لنفسه، ففيه تصوير قيام هذا الحدث به، وهذا الأمر لا يظهر لو قال: (أحب إلي من الموت). وقوله: (**بين شعبتي رحل**): كناية عن العمل والأخذ بالأسباب في طلب الرزق، وقد وضَّح هذه الكناية بقوله: (**أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ، أَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -**)؛ فجملة (**أضرب في الأرض**) تفسير للكناية. وجملة (**أبتغي من فضل الله**): جواب لسؤال محذوف، تقديره: لِمَ تضرب في الأرض؟ واستعمال الفعلين المضارعين (**أضرب**) و(**أبتغي**) فيه دلالة على استمرار وتجدُّد هذين الحدثين. وحذف مفعول (**أبتغي**) لئلَّا يتقيَّد الفعل بمفعول بعينه.

[٦٢٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الزُّهْدِ

«الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا رَاحَةٌ لِلْقَلْبِ وَالْجَسَدِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول وربما كان في إحدى مواعظه.

البيان والبلاغة: استعمل كلمة **(الزهادة)**؛ لأنها أعمُّ مِن (الزُّهد)، كما بيَّنا عند شرح النص رقم أربعة وثمانين وخمسمئة. فالزهادة تكون في الأمور كلِّها، والزهد يكون في أمور الدين خاصَّة. ولكون **(الزهادة)** عامَّة في كل شيء = قيَّدها بالجارِّ والمجرور **(في الدنيا)**. وأخبر عن **(الزهادة)** بالمصدر **(راحة)**؛ لكون المصدر يشتمل على جميع أنواع الحدث الدال عليه، بخلاف الفعل والوصف. وقدَّم ذكر **(القلب)** على ذكر **(الجسد)** للرعاية والاهتمام.

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٥٩٣)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الزُّهدِ» (٢١٧)، و«ذمِّ الدُّنيا» (١٥٥)، وابنُ الأعرابيِّ في «الزُّهدِ وصفةِ الزَّاهدينَ» (٥٢)، والبيهقيُّ في «شعبِ الإيمانِ» (١٠١٢٥).

[٦٢٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ؛ ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ لِيُكَفِّرَ عَنْهُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين ﷺ عن جانب من الحكمة الإلهية في الابتلاء بالهمِّ، مبينا شيئًا من ذلك.

لطائف لغوية: قوله: (**الَهم**): ما الفرق بين الهم والغم؟ قال أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية: «(**الهم**) هو: الفِكر في إزالة المكروه، واجتلاب المحبوب. وليس هو من الغم في شيء؛ ألا ترى أنَّك تقول لصاحبك: أهتم بحاجتي، ولا يصح أن تقول: أغتم بها. و(**الغم**): معنى ينقبض القلب معه، ويكون لوقوع ضرر قد كان، أو تَوَقُّع ضرر يكون أو يتوهمه. وقد سمي الحزن الذِي تطول مدته حتى يذيب البدن: هما، واشتقاقه من قولك: انهم الشحمُ، إذا ذاب، وهمَّه: أذبه».

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ**): استعمل أداة الشرط (**إذا**) للدلالة على أنَّ احتمال وقوع فعل الشرط كبير. وقوله: (**في العمل**): يقصد العبادة، ولم يصرِّح بذكرها؛ كراهة نسبة التقصير إلى الرجل فيها صراحةً، مع أنَّه أمر واقع. وقوله: (**ابْتُلِيَ بِالْهُمِّ لِيُكَفِّرَ عَنْهُ**): فاعل الابتلاء هو الله – تعالى –، ولكنه ترك ذكر اسمه، وبنى الفعل (**ابتُلي**) للمفعول؛ تأدّبًا مع الله – تعالى –. وقوله: (**ليكفِّر عنه**): حذف المفعول؛ لإطلاق الفعل فيعمَّ كل ذنب.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الهمِّ والحزنِ» (١٦٦).

[٦٢٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

« لَا يَنْبَغِي لِمَنْ أَخَذَ(١) بِالتَّقْوَى، وَوَزَنَ بِالْوَرَعِ، أَنْ يَذِلَّ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا»(٢).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**الوَرَع**): قال صاحب تاج العروس: «وأصلُ الورعِ: الكفُّ عن المحارم، ثمَّ استُعِير للكفِّ عن الحلال والمباح».

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين ﵁ أنَّ عزة أهل الإيمان لازم من لوازم ما عندهم من التقوى والورع.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بقوله: (**لا ينبغي**)؛ تلطُّفا في النصح. وعدَّى الفعل (**أخذ**) بالباء؛ لتضمُّنه معنى (تمسَّك). وحذف مفعول (**وزن**)؛ لتذهب نفس السامع في تعيينه كلَّ مذهب، والتقدير: ووزن أفعاله بالورع، وفي هذا التعبير استعارة، بتشبيه الورع بميزان توزن به الأفعال. وقوله: (**أن يَذِلَّ لصاحب الدنيا**): كنَّى بصاحب الدنيا عن مَن كانت الدنيا أكبر همِّه، وفي هذه الكناية إشارة إلى حقيقة مَن كانت حاله كذلك.

١- في الأصل (أُخِذ بالتقوى، ووُزن بالورع) ببناء الفعلين للمفعول، والأظهر أنهما مبنيان للفاعل.

٢- ذكرهُ ابنُ الجوزيِّ في «المناقبِ» ص١٨١، وابنُ المَبْرِدِ الحنبليُّ في «محضِ الصَّوابِ» ٢/ ٦٧٧.

[٦٢٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِذَا كُنْتُ فِي مَنْزِلَةٍ تَسَعُنِي، وَتَعْجِزُ عَنِ النَّاس، فَوَاللهِ مَا تِلْكَ لِي بِمَنْزِلَةٍ، حَتَّى أَكُونَ أُسْوَةً لِلنَّاسِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين ﷺ عن المنزِلة التي ينبغي أن يكون فيها - هو وأمثاله من الأمراء - مقارنة بحال الرعية وعموم الناس.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا كُنْتُ فِي مَنْزِلَةٍ تَسَعُنِي وَتَعْجَزُ عَنِ النَّاسِ**): مجيء (**منزلة**) نكرة في سياق الشرط يفيد العموم، إلا أنَّ هذا العموم تقيَّد بالوصف (**تسعني وتعجز عن الناس**). وفي هذا الوصف تشخيص للمنزلة؛ لأن الوسع والعجز صفات للمحسوس، والمنزلة غير محسوسة، وفائدة هذا الوصف تصوير المعنى وتقريبه في الذهن. وقوله: (**فوالله مَا تِلْكَ لِي بِمَنْزِلَةٍ حَتَّى أَكُونَ أُسْوَةً لِلنَّاسِ**): جملة القسم (**والله**) اعتراضية بين فعل الشرط وجوابه؛ لتأكيد الجواب. ومجيء جواب الشرط (**ما تلك لي بمنزلة**) جملة اسمية = أفاد ثبوته. ودخول الباء على خبر (**ما**) في (**بمنزلة**)؛ لتأكيد نفي خبر (**ما**) عن اسمها. وتقديم الجار والمجرور (**لي**) على خبر (**ما**) للتخصيص. وقوله: (**حتى أكون أسوة للناس**): تضمَّن تعليل ما سبق ذكره.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢٠١، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٤.

[٦٢٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّمَا مَثَلُ الْعَرَبِ مِثْلُ جَمَلٍ أَنِفٍ، اتَّبَعَ قَائِدَهُ، فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ حَيْثُ يَقُودُ. فَأَمَّا أَنَا؛ فَوَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَأَحْمِلَنَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**جَمَلٍ أَنِفٍ**): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «(**الجَمَلُ الأَنِفُ**): أي المأنوف، وهو الذي عقر الخشاش أنفَه، فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذي به. وقيل: الأَنِفُ: الذَّلول. يقال: أَنِف البعير يأنف أَنَفا، فهو أَنِف: إذا اشتكى أنفه من الخشاش ...».

مقتضى الحال: يضرب أمير المؤمنين رضي الله عنه للعرب مثلا يبين جانبا من جوانب فطرتهم وأخلاقهم، وواجب الأمراء في سياسة هذه الأخلاق.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّمَا مَثَلُ الْعَرَبِ مِثْلُ جَمَلٍ أَنِفٍ اتَّبَعَ قَائِدَهُ**): شبَّه العرب بالجمل الأنِف في سهولة الانقياد، وساق هذا التشبيه بأسلوب القصر؛ لتأكيده. وهذا التشبيه جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ**»[2]. وقوله: (**فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ حَيْثُ يَقُودُ**): هذا الكلام فيه ترشيح للتشبيه؛ لأن القائد يكون للجمل، والمقصود به هنا مَن يتولَّى أمر المؤمنين. وقيَّد الفعل (**فلينظر**) بالظرف (**حيث**) المضاف إلى جملة فعلية، فعلها مضارع (**يقود**)؛ ليكون الأمر

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣١٤٠)، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٣٣، وعنهُ ابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٢٦٨.

٢- رواه أحمد وابن ماجه، ومرّ مثل هذا التشبيه من كلام عمر رضي الله عنه في الأثر رقم عشرين.

بالنظر والانتباه مستمرًّا مع القيادة. وحذف مفعول (**يقود**) للتعميم. وقوله: (**فَأَمَّا أَنَا فَوَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَأَحْمِلَنَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ**): استعمل (**أَمَّا**) للتنبيه؛ للفت انتباه السامع إلى ما سيقول، وأشار إلى أهمية ما سيقول بالقسم (**فوربِّ الكعبة**). وفي قوله: (**لأحملنَّهم على الطريق**): حذف صفة (**الطريق**) لتذهب نفس السامع في تعيينها كلَّ مذهب، والمراد: (الطريق القويم). وأكَّد كلامه باللام والنون المشددة الداخلَين على الفعل المضارع.

[٦٣٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَابْنٍ لَهُ ضَرَبَ مِصْرِيًّا فِي سِبَاقٍ

«مُذْ كَمْ[١] تَعَبَّدْتُمُ النَّاس، وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا؟!»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يسأل أمير المؤمنين ﷺ عامله على مصر - وهو الصحابيُّ الجليل عمرو بن العاص ﷺ سؤالا، مستنكرا عليه إهانة ابنه لأحد المصريين بغير حق.

البيان والبلاغة: الاستفهام في هذه العبارة استفهام إنكاري توبيخي. وقوله: (**تعبَّدتم**): استعمل الفعل بصيغة (تفعَّل) للدلالة على الاتِّخاذ، والقصود: اتِّخذتموهم عبيدًا. وجملة (**وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا**): جملة حالية، فائدتها بيان إنكار وقوع الفعل، لوجود تضاد بين (**تعبدتم**) و(**أحرارًا**).

١- المشهورُ عندَ العامَّةِ: «مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاس»، والمرويُّ هو ما أثبتُّه بالأصلِ.

٢- رواهُ ابنُ عبدِ الحكمِ في «فتوحِ مصرَ والمغربِ» ص١٩٥.

[٦٣١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّرَاحُمِ وَالتَّوْبَةِ

«لَا يُرْحَمُ مَنْ لَا يَرْحَمُ، وَلَا يُغْفَرُ لِمَنْ لَا يَغْفِرُ، وَلَا يُوقَى مَنْ لَا يَتَوَقَّى، وَلَا يُتَابُ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يعِظُ أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه، مبيِّنا لهم جوانب هامة تتعلق بفقه التعمل مع الخلق ومع الخالق - سبحانه وتعالى -.

البيان والبلاغة: يتَّسم هذا النص بإيجاز العبارة مع عظم المعاني التي يدل عليها، وهي جمل متناسقة في الوزن الطول، مما يسهِّل حفظها وضبطها لتظل عالقة في ذهن السامع. والجملة الأولى: (**لا يُرحم من لا يرحم**) مقتبسة من قول النبي ﷺ: «**مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَم**»(٢). والأفعال: (**لا يُرحم**) و(**لا يُغفر**) و(**لا يوقى**) و(**لا يتاب**): مبنية للمفعول، ولم يُصرِّح بنسبتها لله - تعالى - مع أنَّه فاعلها؛ تأدّبًا معه - سبحانه وتعالى - ولتمام علم السامع بذلك، مع أن نفيها عنه - هنا - مقيَّد بمن وقع منه مثل ذلك، من باب كون الجزاء من جنس العمل، وليس نفيا مطلقا. والأفعال (**لا يَرحم**) و(**لا يَغفر**) و(**لا يوقى**) و(**لا يتَّقي**) و(**لم يتُب**): غير مقيَّدة بمفعول أو جار ومجرور؛ ليكون الكلام أبلغ في التخويف والزجر، وتقدير الكلام: لا يُرحمُ من لا يَرحمُ الناسَ، ولا يُغفَر لمن لا يَغفِر لهم، ولا يُوقى العذابَ من لا يتوقَّاه، ولا يُتاب على من لم يتُبْ من ذنبه.

١- رواهُ الضَّبِّيُّ في «الدُّعاءِ» (١٤٧)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٣٧٢)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٨٨)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٥ واللَّفظُ لهُ.

٢- متَّفق عليه.

[٦٣٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي الدَّرْدَاءِ

«إِنَّ مِنْ فِقْهِكَ رِفْقَكَ فِي مَعِيشَتِكَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أبا الدرداء رضي الله عنه، يطلب منه أن يرفق بنفسه في معيشته.

البيان والبلاغة: تقديم خبر (**إنَّ**) – وهو قوله: (**من فقهك**) – فيه تشويق للسامع ليعرف اسم (**إنَّ**) الذي يتعلَّق به هذا الخبر. ولكون الخبر معلومًا مستقرًّا في ذهن المخاطَب قدَّمه على المبتدأ؛ ليُلزم به المخاطَب. وحرف الجر (**من**) يفيد السببية، والمعنى المراد: أنَّ فقه الإنسان يُلزمه في أن يكون سببًا في رفقه في معيشته. وبين (**فقهك**) و(**رفقك**) جناس ناقص.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦.

[٦٣٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«رَحِمَ اللهُ مَنْ قَدَّمَ فَضْلَ الْمَالِ، وَأَمْسَكَ فَضْلَ الْكَلَامِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يدعو أمير المؤمنين رضي الله عنه لمن تخلَّق بالجود وعِفة اللسان، حاثا مستمعيه على ذلك.

البيان والبلاغة: جملة (**رحم الله**): طلبية دعائية في صورة الخبرية. وقوله: (**قدَّم فضل المال**): كناية عن بذل الزكاة والصدقة. وقوله: (**أمسك فضل الكلام**): كناية عن ترك الكلام في ما لا فائدة فيه. وبين (**قدَّم**) و(**أمسك**) طباق. وكان مقتضى الظاهر أن يطابق بين (قدَّم) و(أخَّر)، لكنه عدل عن الفعل (**أخَّر**) إلى الفعل (**أمسك**)؛ لأنه أوفى بتأدية المعنى المطلوب؛ فالمرء يُمدح إن أمسك عن فضول الكلام لا إن أخَّره.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٣.

[٦٣٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«الرَّأْيُ كَثِيرٌ، وَالْحَزْمُ قَلِيلٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه جانبا من طبائع الخلق؛ وهو: أنَّ الرأي فيهم كثير، بينما الحزم في العمل بصالح الآراء قليل.

البيان والبلاغة: استعمل في هذا النص الموجز أسلوب المقابلة، فقابل بين **(الرأي كثير)** و**(الحزم قليل)**، وهذه المقابلة تبين حال أكثر الناس، في كثرة آرائها وقلَّة أفعالها، مع أن المطلوب هو عكس ذلك. و**(أل)** في **(الرأي)** و**(الحزم)** للعهد الذهني، والمقصود هو: رأي الناس وحزمهم.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٣١.

[٦٣٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«عَجِبْتُ لِتَاجِرِ هَجَرَ، وَرَاكِبِ الْبَحْرِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**هَجَر**): منطقة في البحرين، معروفة بكثرة وبائها.

مقتضى الحال: يتعجَّب أمير المؤمنين رضي الله عنه لمن يُعرِّض نفسه للهلكة، ضاربا لذلك مثلين من واقع الناس حوله.

البيان والبلاغة: جمع عمر رضي الله عنه بين تاجر هَجَر وراكب البحر؛ لاشتراكهما في التعرُّض للمخاطر والأهوال، فذكر أنه عجب منهما، وترك ذكر سبب تعجُّبه؛ ليبحث السامع عن السبب، فإنَّه إن وجده استقرَّ في ذهنه. ولذلك، ففي الجملة إيجازُ قِصَر واضح.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠١٦٣).

[٦٣٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ عُصِمَ مِنَ الْهَوَى وَالطَّمَعِ وَالْغَضَبِ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ الصِّدْقِ مِنَ الْحَدِيثِ خَيْرٌ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يرغِّب أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه في بعض الأخلاق ويحذِّرهم أخرى.

البيان والبلاغة: قوله: (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ عُصِمَ مِنَ الْهَوَى وَالطَّمَعِ وَالْغَضَبِ**): استعمل الفعل (**أفلح**) وأدخل عليه (**قد**)؛ لتأكيد ثبوت هذا الحدث. وبنى الفعل (**عُصِم**) للمفعول؛ لكمال العلم بالفاعل، وهو الله - تعالى -. وقدَّم ذكر (**الهوى**) على (**الطمع**) و(**الغضب**) للأهمية. ووجه تخصيص هذه الثلاثة بالذكر دون غيرها هو: أن ميل النفس إلى فعل معصية من المعاصي يكون بسبب وجود واحد من هذه الثلاثة فيها. وقوله: (**وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ الصِّدْقِ مِنَ الْحَدِيثِ خَيْرٌ**): استعمل الفعل (**ليس**) لتأكيد النفي. واستعمل الاسم الموصول (**ما**) لإفادة العموم، ولكن هذا العموم مقيَّد بأنواع الحديث؛ فالاسم الموصول (**ما**) مقيَّد بالجارِّ والمجرور (**من الحديث**). وحرف الجر (**من**) يفيد بيان الجنس. و(**الصدق**) مصدر أُريد به الوصف من باب المبالغة، والموصوف محذوف دلَّ عليه السياق، والتقدير: ليس فيما دون

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٢٠٤).

الحديث الصدق من أنواع الحديث خيرٌ. وتقديم خبر (**ليس**) على اسمها لتشويق السامع. وتنكير المبتدأ (**خير**) لإفادة العموم، أي: ليس فيها دون ذلك أيُّ خير.

[٦٣٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا بَنِي السَّائِبِ، إِنَّكُمْ قَدْ أَضْوَيْتُمْ؛ فَانْكِحُوا فِي النَّزَائِعِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**أضويتم**): الضَّوى: الهُزال، وغلامٌ ضاوي: مهزول. وكانت العرب تقول: إذا تقارب نسب الأبوين جاء الولد ضاويًّا، فمعنى (**أضويتم**): أنجبتم المهزولين. وقوله: (**فانكحوا في النزائع**): النزائع من النساء: اللواتي يُزوَّجن في غير عشائرهن، وكلُّ غريب: نزيع.

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه بعض رعيته - وهم بنو السائب - أن يتزوجوا من غير عشيرتهم؛ تجنبا لإنجاب المهزولين.

البيان والبلاغة: بدأ بنداء المخاطبين فقال: (**يَا بَنِي السَّائِبِ**)؛ وذلك للفت انتباههم إلى ما سيقول، ولتخصيصهم بهذا الكلام. وقوله: (**إِنَّكُمْ قَدْ أَضْوَيْتُمْ**): نزَّل المخاطَبين منزلة المنكرين، فأكَّد لهم الكلام بالعديد من المؤكِّدات: فأتى به في صورة الجملة الاسمية، وأدخل عليها (**إنَّ**)، وجعل خبرها فعلا ماضيًا (**أضويتم**) وأدخل عليه (**قد**). وسبب توكيد الكلام وتنزيل المخاطَبين منزلة المنكرين: هو إصرارهم على فعلهم مع علمهم بما يترتَّب عليه، وكأنهم لهذا الإصرار صاروا كالمنكرين لما يترتَّب عليه. وقوله: (**فَانْكِحُوا فِي النَّزَائِعِ**): فعل الأمر (**انكحوا**)

١- رواهُ الدِّينَوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٣٣٥٤).

للإرشاد والتوجيه، وقد قيَّده بحرف الجر (في) الذي يفيد الظرفية؛ لجعل المجرور (**النزائع**) ظرفًا يُمتثل فيه هذا الفعل.

[٦٣٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
وَقَدْ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ بِالتُّرَابِ

«التُّرَابُ رَبِيعُ الصِّبْيَانِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (رَبِيْع): لفظ الرَّبيع مشترك بين عددٍ من المعاني، يصلح منها - هنا - غير واحد؛ مثل: الفصل المعروف الذي يكون بعد الشتاء، والنهر الصغير.

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه منزلة اللعب بالتراب عند الصبيان.

لطائف لغوية: قول: (**الصِّبيان**): سبق عند شرح النص رقم واحد وخمسمئة بيان معنى الغلام والصبي، والفرق بينهما، فراجعه غير مأمور.

البيان والبلاغة: شبَّه التراب حين يلعب به الصبيان بالربيع حين ترتع فيه البهائم، فلا ينبغي منعهم، وهذا تشبيه تمثيلي.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٨١، وقد رَوى الطَّبرانيُّ في «المعجمِ الكبيرِ» مثلَه عنِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّم -، وعُدَّ مِن الموضوعاتِ.

[٦٣٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ مُؤْمِنٍ يَنْهَاهُ إِيمَانُهُ، وَلَا مِنْ فَاسِقٍ بَيِّنٍ فِسْقُهُ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْهَا رَجُلًا قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى أَزْلَفَهُ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ تَأَوَّلَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**أزلَفه**): المشهور في (**أزلَف**): أنه بمعنى قدَّم وقرَّب. وله معنى آخر، هو أليق - هنا -؛ وهو: جمع، كما جاء في مادة «زلف»، من لسان العرب.

مقتضى الحال: يبُثُّ أمير المؤمنين رضي الله عنه بعض همِّه الذي يحمله إشفاقا على هذه الأمة، مبيِّنا ومعظِّما خطر المنافقين عليها.

البيان والبلاغة: استعمل في هذا النص أسلوب التقسيم؛ فقسَّم أبناء الأمة إلى ثلاثة أقسام: مؤمن، وفاسق، وثالث عرف القرآن إلا أنه أوَّله على غير تأويله. وقد بدأ عمر رضي الله عنه كلامه بالنفي ليبيِّن انتفاء خوفه على الأمة من القسمين الأول والثاني، وإنما خوفه من القسم الثالث. وتأخير القسم الثالث الذي يخاف عمر رضي الله عنه على الأمة منه فيه تشويق للسامع. وهذا النفي مع استعمال حرف الاستدراك (**لكن**) يفيد القصر، والقصر هنا ادِّعائي؛ لبيان عظم خطر صاحب القرآن الذي يتأوَّله على غير تأويله. واستعمال اسم الإشارة (**هذه**) لتعظيم المشار إليه. ووصف المؤمن

١- رواهُ ابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٢٣٦٨).

بالجملة الفعلية (**ينهاه إيمانه**) فيه إشارة إلى تجدُّد واستمرار هذا الوصف، وفي إسناد النهي إلى الإيمان تشخيص للإيمان. ووصف الفاسق بالصفة المشبَّهة (**بيِّن فسقه**): إشارة إلى لزوم وثبات هذه الصفة فيه. وقوله: (**وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْهَا رَجُلًا قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى أَزْلَفَهُ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ تَأَوَّلَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ**): تنكير (**رجل**) ثم وصفه بجملة (**قد قرأ القرآن**)؛ إشارة إلى أنه لظهور هذه الصفة فيه كأن ليس فيه غيرها. وكون هذه الجملة فعلية فعلها ماض مسبوق بـ (**قد**): فيه إشارة إلى تحقُّق هذه الصفة فيه. وقوله: (**حتى أزلفه بلسانه**): كناية عن إتقان الرجل في قراءة القرآن.

[٦٤٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«السُّنَّةُ مَا سَنَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، لَا تَجْعَلُوا خَطَأَ الرَّأْيِ سُنَّةً لِلْأُمَّةِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه معنى السنة، وينهى عن إقحام الآراء فيها.

البيان والبلاغة: قوله: (**السُّنَّةُ مَا سَنَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**): في هذه الجملة قَصْر بتعريف طرفي الإسناد. واستعمال الاسم الموصول (**ما**) لإفادة العموم، وقد قرَّر مضمون هذه الجملة؛ ليكون النهي بعدها أبلغ وأدعى للامتثال. وقوله: (**لَا تَجْعَلُوا خَطَأَ الرَّأْيِ سُنَّةً لِلْأُمَّةِ**): إضافة (**الخطأ**) إلى الرأي من باب إضافة المصدر إلى المفعول، ولم يضف هذا المصدر إلى الفاعل؛ لأن الحكم لا يتغيَّر بتغيُّر الفاعل.

١- رواهُ ابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٢٠١٤).

[٦٤١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَمَوْتُ أَلْفِ عَابِدٍ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ، أَهْوَنُ مِنْ مَوْتِ عَاقِلٍ عَقَلَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ، فَعَلِمَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ، فَانْتَفَعَ بِعِلْمِهِ، وَانْتَفَعَ النَّاسُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَزِيدُ عَلَى الْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِ كَثِيرَ زِيَادَةٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين ﷺ فضل العالم على العابد، ومصيبة الأمة في فقد علمائها.

لطائف لغوية: قوله: (**قائمِ الليل صائمِ النَّهار**)، بالإضافة في الموضعين: جاء في بعض الروايات بإعمال اسم الفاعل ونصب ما بعده. واسم الفاعل يعمل عمل الفعل - بغير شرط - إذا دخلت عليه (**أل**)، أما إذا تجرد من (**أل**) عمل بشرطين: الأول: أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال. والثاني: أن يعتمد على واحد أو أكثر من أمور خمسة؛ هي: النفي، نحو: (ما قاطع بكر رحمه). والاستفهام، نحو: (هل أنت سامع قول الخطيب؟). واسم وقع مخبرا عنه به، نحو: (بلال متحدث أبوه). وموصوف، نحو: ﴿**إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾ في قراءة عامة السبعة غير عاصم. واسم يكون هو حالا له، نحو: (يشير خالد على صديقه مُلفتا نظره إلى شيء).

١- رواهُ الحارثُ في «مُسنَدِه» كما في «بغيةِ الباحثِ» (٨٤٢)، و«إتحافِ الخيرةِ» (٥٢٤١)، و«المطالبِ العاليةِ» (٣٣٠٩).

البيان والبلاغة: قوله: (**لَمَوْتُ أَلْفِ عَابِدٍ قَائِمِ اللَّيْلَ صَائِمِ النَّهَارَ أَهْوَنُ مِنْ مَوْتِ عَاقِلٍ عَقَلَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ**): هذا التفضيل ورد ما يؤكّده في قول النبي ﷺ: «**وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**»[1]. وقوله: (**لَموت**): أدخل لام الابتداء على المبتدأ؛ لتأكيد اتِّصافه بالخبر. وتنكير (**عابد**) و(**عاقل**)؛ لقصد عدم التعيين. وإعمال اسم الفاعل وترك الإضافة في رواية: (**قائمٍ الليلَ صائمٍ النهارَ**): يفيد الاستمرار والمداومة على الحدث. وتقديم الوصف (**قائم الليل**) على الوصف (**صائم النهار**)؛ للرعاية والاهتمام. وقوله: (**فَعَلِمَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**): استعمل الاسم الموصول (**ما**) في الموضعين؛ لإفادة العموم. وأضمر فاعل (**حرَّم**) وجعل مرجعه فاعل (**أحل**)؛ لتقرير أن فاعل (أحلَّ) وفاعل (حرَّم) واحد. وبين (**أحلَّ الله له**) و(**حرم عليه**) مقابلة.

وقوله: (**فَانْتَفَعَ بِعِلْمِهِ وَانْتَفَعَ النَّاسُ بِهِ**): الضمير في (**به**) يحتمل الرجوع إلى العاقل ويحتمل الرجوع إلى علمه، والمعنيان متلازمان. وقوله: (**وَإِنْ كَانَ لَا يَزِيدُ عَلَى الْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِ كَثِيرَ زِيَادَةٍ**): هذه الجملة فيها إطناب بالتتميم. وتقديم الجار ومجروره وصفته - في قوله: (**على الفرائض التي ...**) - على المفعول (**كثير زيادة**)؛ للفت انتباه السامع إليها. ووصف الفرائض بالاسم الموصول (**التي فرض الله**) لتعظيمها.

١- رواه أهل السنن.

[٦٤٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، وَعَلِّمُوهُ النَّاس، وَتَعَلَّمُوا لَهُ الْوَقَارَ وَالسَّكِينَةَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمْتُمْ مِنْهُ وَلِمَنْ عَلَّمْتُمُوهُ، وَلَا تَكُونُوا جَبَابِرَةَ الْعُلَمَاءِ، فَلَا يُقَوَّمَ جَهْلُكُمْ بِعِلْمِكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه بتعلُّم العلم والتخلق بأخلاقه.

البيان والبلاغة: سبق التعليق على أثر مشابه لهذا، وهو الأثر رقم ثمانية وتسعين وخمسمئة.

١- رواهُ البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (١٦٥١)، و«المدخلِ إلى السُّنَنِ الكُبرى» (٦٢٩)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٨٩٣) واللَّفظُ لهُ.

[٦٤٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْحَيَاءِ

«إِنَّ الْحَيَاءَ لَيَدُلُّ عَلَى هَنَاتٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، مَنِ اسْتَحْيَا اسْتَخْفَى، وَمَنِ اسْتَخْفَى اتَّقَى، وَمَنِ اتَّقَى وُقِيَ»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**هنات**): كلمة يُكنى بها، وهي - هنا - بمعنى: خصال.

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن الحياء وفضله ودلالته.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الْحَيَاءَ لَيَدُلُّ عَلَى هَنَاتٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ**): جعل خبر (**إنَّ**) جملة فعلية فعلها مضارع للدلالة على الاستمرار والتجدُّد. وأدخل اللام على الفعل الواقع خبرًا لـ (**إنَّ**) لتأكيد اتِّصاف اسمها به. وهذه الجملة فيها إبهام حاصل من ذكر الهنات التي يدل عليها الحياء من غير بيانها، وهذا الإبهام يشوِّق السامع لمعرفة حقيقة هذه الهنات، فرفع هذا الإبهام بجملة تفسيرية جاء فيها أسلوب اقتباس أوائل اللاحق من أواخر السابق، والذي يُعرف أيضًا بتشابه الأطراف، فقال: (**مَنِ اسْتَحْيَا اسْتَخْفَى، وَمَنِ اسْتَخْفَى اتَّقَى، وَمَنِ اتَّقَى وُقِيَ**): فهذه الجمل المتعاطفة أول اللاحق منها مقتبس من آخر السابق، وهذا الأسلوب فيه ربط بين الجمل وتدرج في إيصال المعلومة للسامع، مما يجعل الكلام يقر في نفسه. وهذا الأسلوب وارد في

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «مكارمِ الأخلاقِ» (٩٤).

القرآن الكريم وفي كلام النبي ﷺ؛ فمن أمثلة القرآن عليه قوله - تعالى -: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾[1]، ومما ورد منه في الحديث النبوي قوله ﷺ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ ...، وإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّار ...**»[2].

١- سورة النور (الآية:٣٥).

٢- متفق عليه.

[٦٤٤]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَيْسَ الْوَصْلُ أَنْ تَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، ذَلِكَ الْقِصَاصُ، وَلَكِنَّ الْوَصْلَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث أمير المؤمنين ﷺ عن حقيقة الوصل، الذي يندرج تحته صلة الأرحام وغيرها.

البيان والبلاغة: أراد أن يقرِّر المعنى الصحيح للوصل بين الناس، فبدأ بنفي ما هو مشاهد في الناس على أنه وصل، فقال: (**لَيْسَ الْوَصْلُ أَنْ تَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ**)، والابتداء بهذا النفي يحفِّز السامع على الإصغاء ليعرف تتمَّة الكلام. وقوله: (**ذَلِكَ الْقِصَاصُ**): هذه الجملة فيها تعليل للنفي الوارد في الجملة السابقة. وفي استعمال اسم الإشارة (**ذلك**) تعيين للمشار إليه، وطلب لاستحضاره في ذهن السامع. والتعبير بالقصاص عن المخبر عنه فيه تنفير منه، وإن كان المعنى اللغوي للقصاص محتملا له، وذلك أنَّه استقرَّ في أذهان الناس المعنى الشرعي للقصاص، فاستعماله – هنا – فيه تشبيه حال من يقتصر على وصل من وصله بحال من يقتص ممَّن اعتدى عليه. وقوله: (**وَلَكِنَّ الْوَصْلَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ**): ذكر هنا ما أراد تقريره من المعنى الصحيح للوصل. والنفي في أول الكلام مع حرف الاستدراك (**لكن**) في

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٩٦٢٩) و(٢٠٢٣٢).

هذه الجملة يفيد القصر، وهو - هنا - قصر قلب؛ لأن فيه قلبًا للمعنى الذي عليه حال أكثر الناس وإن لم يصرِّحوا به. وفي قوله: (**أن تصل من قطعك**): عدل عن استعمال المصدر الصريح (**وصل**) إلى استعمال المصدر المنسبك من (**أن**) والفعل المضارع (**تصل**) من أجل إسناد الفعل للمخاطب؛ ليتصوَّر المخاطبُ قيام هذا الفعل في نفسه، فيمتثل له. وقوله: (**قطعك**): استعمل الفعل الماضي لتقرير معنى الوصل واتساع معناه، حتَّى أنه يشمل وصل من ثبت واستقرَّ منه القطع.

[٦٤٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّقْوَى

«لَا يَغُرَّنَّكُمْ صَلَاةُ امْرِئٍ، وَلَا صِيَامُهُ، وَلَكِنِ انْظُرُوا مَنْ إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ أَدَّى، وَإِذَا أَشْفَى وَرِعَ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (أشفى): سبق بيان معناها عند شرح النص رقم خمسة وستين وخمسمئة.

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه الطريقة المُثلى لمعرفة أخلاق المرء، وينهى عن الاغترار بالظاهر المتبادر من عباداته.

البيان والبلاغة: سبق التعليق على مثل هذا الأثر في الأثرين خمسة وستين وخمسمئة، وتسعة وسبعين وخمسمئة.

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (١٠١٠)، وابنُ وهبٍ في «الجامع» (٥٢٦)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٦٦)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٤٥٤٦) و(٤٨٩٨)، و«السُّنَنِ الكُبرَى» (١٢٦٩٣).

[٦٤٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أُبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتُ: عَلَى مَا أُحِبُّ، أَوْ عَلَى مَا أَكْرَهُ؛ لِأَنِّي لَا أَدْرِي الْخَيْرَ: فِيمَا أُحِبُّ، أَوْ فِيمَا أَكْرَهُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يشرح أمير المؤمنين رضي الله عنه نظرته للأمور، وتسليمه التام لقدر الله - سبحانه وتعالى - معللا ذلك بقصور علمه وسعة علم خالقه - سبحانه وبحمده-.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا أُبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتُ، عَلَى مَا أُحِبُّ أَوْ عَلَى مَا أَكْرَهُ**): جاء بالفعل (**أبالي**) بصيغة المضارع مسبوقًا بنفي؛ لإفادة أنه مستمر على هذا الأمر. واستعمل الاسم الموصول (**أي**) لإفادة الإبهام، ثم وضَّح هذ الإبهام بأسلوب البدل فقال: (**على ما أحب أو على ما أكره**)، وهذا الإيضاح بعد الإبهام فيه تقرير للمعنى في نفس المتلقِّي. وقوله: (**لِأَنِّي لَا أَدْرِي الْخَيْرَ: فِيمَا أُحِبُّ أَوْ فِيمَا أَكْرَهُ**): أتى بهذه الجملة لتعليل ما قرَّره قبلُ، لإقناع السامع بما قرَّره. ومجيء الفعل (**أدري**) بصيغة المضارع مسبوقًا بـ(**لا**) النافية يفيد استمرار انتفاء الحدث. وحرف الجر (**في**) في الموضعين يفيد الظرفية المجازية.

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٤٢٥)، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (١٠٣)، والدُّولابيُّ في «الكُنى والأسماءِ» (١٧٢٩)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الرِّضا عنِ الله بقضائِه» (٣٠)، و«الفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ» (١٣)، وعنهُ التَّنوخيُّ في «الفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ» (١٤٥).

[٦٤٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مِنْ مُرُوءَةِ الرَّجُلِ نَقَاءُ ثَوْبَيْهِ، وَالْمُرُوءَةُ الظَّاهِرَةُ فِي الثِّيَابِ الطَّاهِرَةِ. وَإِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي - أَوْ إِنِّي لَأُحِبُّ - أَنَّ أَرَى الشَّابَّ النَّاسكَ النَّظِيفَ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين ﵁ المروءة الظاهرة، وكيفية معرفتها في المرء.

البيان والبلاغة: قوله: (**مِنْ مُرُوءَةِ الرَّجُلِ نَقَاءُ ثَوْبَيْهِ**): حرف الجر (من) يفيد التبعيض. وفي تقديم الخبر (**من مروءة الرجل**) على المبدأ (**نقاء ثوبيه**) لفتٌ لانتباه المخاطَب إلى هذا الخبر، وإشعار له بأهميته وتحفيز له على تحقيقه. وقوله: (**وَالْمُرُوءَةُ الظَّاهِرَةُ فِي الثِّيَابِ الطَّاهِرَةِ**): مفهوم هذه الجملة يؤكِّد الجملة السابقة؛ فهذه الجملة فيها إطناب، الغرض منه تقرير المعنى المراد في الجملة السابقة. وبين (**الظاهرة**) و(**الطاهرة**) جناس، ويسمى جناسًا مصحَّفًا؛ لتشابه اللفظين في الكتابة في اختلافهما في النقط. وقوله: (**وَإِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي - أَوْ إِنِّي لَأُحِبُّ - أَنَّ أَرَى الشَّابَّ النَّاسِكَ النَّظِيفَ**): التردُّد في (**إنه ليعجبني أو إني لأحب**) من الراوي، وعلى كلا الروايتين الفعل (**يعجبني**) أو الفعل (**أحب**) جاء بصيغة المضارع لإفادة الاستمرار، أي أنه على إعجاب مستمر برؤية الشاب الناسك النظيف، أو على محبَّة مستمرَّة لرؤية الشاب الناسك النظيف. واستعمل المصدر المؤوَّل (**أن أرى**) وترك المصدر الصريح (**رؤية**) لتحقيق إسناد الفعل إلى نفسه، وهذا يدعو السامع لامتثال

١- رواهُ ابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (٢٩٦٣)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٢ واللَّفظُ لهُ.

الأمر الذي يُعجَب به عمرُ ﵁ ويحبه. وقوله: (**الشاب الناسك النظيف**): عدَّد النعتين (**الناسك**) و(**النظيف**) من غير عطف بينهما؛ إشارة إلى إرادة اجتماعهما معًا في المنعوت في آن واحد.

[٦٤٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ أَكْمَلَ الرِّجَالِ رَأْيًا: مَنْ إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ صَاحِبِهِ عَمِلَ بِالْحَزْمِ - أَوْ قَالَ: بِهِ - وَلَمْ يَنْكُلْ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**ولم ينكُلْ**): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «نَكَلَ عن الأمر يَنْكُلُ، ونَكِلَ يَنْكَلُ: إذا امْتَنع».

مقتضى الحال: يصف أمير المؤمنين رضي الله عنه أكمل الرجال رأيا.

البيان والبلاغة: بدْء الكلام بأسلوب التفضيل فيه لفتٌ لانتباه السامع؛ إذ النفس تتطلَّع إلى معرفة الأفضل. وأضاف اسم التفضيل (**أكمل**) إلى جنس الرجال؛ لأنه قد استقرَّ في الأذهان أن الرجال أوفر عقلا من النساء. وتمييز اسم التفضيل بـ (**رأيًا**) فيه تقييد بعد إطلاق؛ إذ لو قال: (إنَّ أكمل الرجال من ...) لكان التفضيل في مطلق الكمال، ولكنه قيَّد هذا الكمال بالرأي. وجعل خبر (**إنَّ**) الاسم الموصول (**مَن**) ليتمكَّن من الإخبار عن اسم (**إنَّ**) بما تضمَّنته جملة صلة الموصول. وقوله: (**لم يكن عنده عهد**): تنكير (**عهد**) في سياق الشرط يفيد العموم، فيدخل فيه كل عهد. وجملة (**لم ينكل**): تذييل؛ فهي تؤكِّد مفهوم جملة (**عمل بالحزم**).

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٤٧.

[٦٤٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّقْوَى

«كَرَمُكُمْ تَقْوَاكُم»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يؤصِّل أمير المؤمنين رضي الله عنه معنى الكرم، ويصحح ما في الأذهان عنه، مبينا أنَّه راجع إلى التقوى.

البيان والبلاغة: هذه الجملة مقتبَسة من قول الله - تعالى -: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فهي تذكير للمعنى الذي في الآية. وفي جعل (**تقواكم**) خبرًا لـ(**كرمكم**) تعظيم للتقوى، وتنبيه إلى أنَّها أهم ما يَكرُم به المخاطَب، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «**الحَجُّ عَرَفَة**»(٢)، أخبر عن الحجِّ بأنَّه عرفة؛ لكون الوقوف بعرفة أهم أركان الحج.

١- رواهُ المُعافَى بنُ عِمرانَ في «الزُّهدِ» (١٣٧).

٢- رواه النسائي والترمذي وابن ماجه.

[٦٥٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا شَيْءٌ أَقْعَدُ بِامْرِئٍ عَنْ مَكْرُمَةٍ مِنْ صِغَرِ هِمَّةٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه خطر علو الهمة، وسوء عاقبة صِغَرِها في نفس المرء.

لطائف لغوية: (ما) في هذه الجملة تعمل عمل (ليس) في لغة أهل الحجاز، فيكون اللفظ (**ما شيءٌ أقعدَ**) بنصب (**أقعد**)، وهي مهملة في لغة بني تميم، فيكون اللفظ: (**ما شيءٌ أقعدُ**) برفع (**أقعد**).

البيان والبلاغة: تنكير (**شيء**) في سياق النفي يفيد العموم، وهذا يدلُّ على أن التفضيل هنا تام. ولما كانت جملة التفضيل منفية صار المفضول (**صغر الهمَّة**) هو الفاضل، ومفهوم الجملة هو: صغر الهمَّة أقعد بامرئٍ عن مكرمة من كلِّ شيء. وتنكير (**امرئ**) يفيد العموم أيضًا، وفي ذلك إشارة إلى أن صغر الهمَّة تُقعد عن المكرمات كلَّ أحد من البشر. وطول الفصل بين اسم التفضيل (**أقعد**) وحرف الجر (**من**) الداخل على المفضول (**صغر الهمة**) يفيد التشويق.

١- رواهُ الدِّينَورِيُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٩٦٤).

[٦٥١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِيَّاكُمْ وَرَضَاعَ السُّوءِ؛ فَإِنَّهُ لابد مِنْ أَنْ يَنْتَدِمَ[١] يَوْمًا»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (ينتدم): يظهَر أثرُه، من النَّدَم أو النَّدَب، وهو: الأثر.

مقتضى الحال: يحذر أمير المؤمنين ﵁ من رضاع السوء، معللا ذلك ببيان سوء عاقبته.

البيان والبلاغة: يحذِّر عمر ﵁ من رضاع السوء، بأن يرضع الطفل من امرأة سيِّئة، فأضاف المصدر (**رضاع**) إلى المصدر (**السوء**)؛ ليكون التحذير من كل رضاع من امرأة فيها نوع من أنواع السوء، سواء قلَّ الرضاع أم كثُر، وسواء أكانت المرأة قليلة السوء أم كثيرته؛ لأن المصدر يشمل كل أنواع الحدث الدال عليه، فالمصدر (**رضاع**) يشمل قليل الرضاع وكثيره، والمصدر (**سوء**) يشمل قليل السوء وكثيره. و(**أل**) الداخلة عليه تفيد الاستغراق، فتشمل كل أنواع السوء. وفي إضافة (**رضاع**) إلى (**السوء**) إشارة أخرى، وهي أن الطفل إذا رضع من امرأة سيِّئة فإنه يرضع السوء منها كما يرضع اللبن، وقد أكَّد هذا المعنى بجملة التعليل: (**فإنه لا بدَّ**

١- أي: يَظهَر أَثرُه. والنَّدَمُ: الأَثَرُ، وهو مِثْلُ النَّدَبِ. والباءُ والميمُ يتبادلانِ. وذكرهُ الزَّمخشريُّ بسكونِ الدَّالِ، مِنَ النَّدْمِ: وهو الغَمُّ اللَّازمُ؛ إذْ يَندَمُ صاحبُه، لِمَا يَعْثُرُ عليهِ مِن سُوءِ آثارِه. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ندم).

٢- ذكرهُ الأزهريُّ في «تهذيبِ اللُّغةِ» ١٤/ ١٠١، والخطَّابيُّ في «غريبِ الحديثِ» ٢/ ١٢٠، والزَّمخشريُّ في «الفائقِ» ٣/ ٤١٨، وابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٥/ ٣٦، وابنُ منظورٍ في «لسانِ العربِ» ١/ ٧٥٣.

من أن ينتدم يومًا). وأضمر فاعل (**ينتدم**) لدلالة السياق عليه، وهذا الضمير راجع إلى المحذَّر منه، والتقدير: فإنه لا بدَّ أن ينتدم رضاعُ السوء يومًا، أي: لابدَّ أن يظهر أثر رضاع السوء في الطفل يومًا ما. وتنكير (**يومًا**) للإبهام والتخويف.

[٦٥٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا شَيْءَ أَنْفَعُ فِي دُنْيَا وَأَبْلَغُ فِي أَمْرِ دِينٍ، مِنْ كَلَامٍ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

البيان والبلاغة: وقوع (**شيء**) اسمًا لـ (**لا**) النافية للجنس يفيد التنصيص على العموم، وهذا يدلُّ على أن التفضيل في (**أنفع**) و(**أبلغ**) تفضيل حقيقي وليس ادِّعائيًّا. وتنكير (**دنيا**) و(**دين**) يفيد شمول جميع ما يتعلَّق بهما. وفي إضافة لفظ (**أمر**) إلى (**دين**) دون أن يضاف إلى (**دنيا**) تعظيم للدين. وتنكير (**كلام**) يفيد الإبهام، وهذا الإبهام يدفع السامع للبحث عن ما يرفع هذا الإبهام ليعرف حقيقته، وذلك أنه بعد ما سمع هذا الفضل والشرف لهذا الكلام فإن نفسه تتطلَّع إلى معرفته، فإذا عرفته بعد الجهد في طلبه استقرَّ فيها. ولعلَّ المقصود بالكلام - هنا - هو كلام الله - تعالى -؛ لأنه هو الكلام الذي ينفع العبد في دينه ودنيا، ولا شيء أنفع له منه، والله أعلم.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٣.

[٦٥٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنِ اتَّقَى وُقِيَ، وَمَنْ وُقِيَ اسْتَحْيَا، وَمَنِ اسْتَحْيَا سَتَرَهُ اللهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

لطائف لغوية: قال صاحب لسان العرب: «قال أبو منصور: اتقى يتقي كان في الأصل اوتقى، على افتعل، فقلبت الواو ياء؛ لانكسار ما قبلها، وأبدلت منها التاء وأدغمت، فلما كثر استعماله على لفظ الافتعال توهموا أن التاء من نفس الحرف فجعلوه: اتقى يتقي، بفتح التاء فيهما مخففة، ثم لم يجدوا له مثالا في كلامهم يلحقونه به، فقالوا: تقى يتقي، مثل قضى يقضي. قال ابن بري: أدخل همزة الوصل على تقى، والتاء محركة؛ لأن أصلها السكون، والمشهور تقى يتقي من غير همز وصل لتحرك التاء».

البيان والبلاغة: قوله: (**مَنِ اتَّقَى وُقِيَ، وَمَنْ وُقِيَ اسْتَحْيَا**): سبق التعليق على مثل هذا النص في الأثر رقم ثلاثة وأربعين وستمئة. وقوله: (**وَمَنِ اسْتَحْيَا سَتَرَهُ اللهُ**): مجيء كلٍّ من فعل الشرط وجوابه فعلا ماضيًا يؤكِّد تحقُّق وقوع الجواب عند تحقُّق الشرط، أي: أن مَن تحقَّق استحياؤه تحقَّق ستر الله له، لا شكَّ في ذلك.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦.

[٦٥٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كَفَى بِكَ عَيْبًا أَنْ يَبْدُوَ لَكَ مِنْ أَخِيكِ مَا يَغْبَى[١] عَلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، وَأَنْ تُؤْذِيَ جَلِيسَكَ بِمَا تَأْتِي مِثْلَهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**يَغْبَى عليك**): قال صاحب لسان العرب:«غَبِي الشيءُ وغَبِي عنه غَبا وغباوة: لم يفطِن له ... وغَبِي الأمرُ عني: خفي فلم أعرفه». وفي الحديث: «**صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ؛ فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاَثِينَ**».

مقتضى الحال: ليس في النص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

البيان والبلاغة: قوله: (**كَفَى بِكَ عَيْبًا أَنْ يَبْدُوَ لَكَ مِنْ أَخِيكَ مَا يَغْبَى عَلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**): أسند الكلام في هذا النص إلى ضمير المخاطب؛ لتكون النصيحة المضمَّنة فيه أبلغ تأثيرًا في نفس السامع، وقد تكرَّر استعمال ضمير المخاطب لتقرير ذلك. وقوله: (**كفى بك عيبًا**): فيه تهويل للمعنى؛ بادِّعاء أن هذا العيب كافٍ للإطاحة بصاحبه إن هو فعله. واستعمل أسلوب المقابلة بين (**يبدو لك من أخيك**) و(**يغبى عليك من نفسك**) لطلب استحضار المعنيَين في ذهن المخاطب؛ ليستشعر الظلم

١- غَبِيَ الشَّيءُ: لم يُفطَنْ لهُ «لسان العرب» ١٥/ ١١٤.

٢- ذكرهُ ابنُ دريدٍ في «أماليه» ص١٥٥، وأبو هلالٍ العسكريُّ في «جمهرةِ الأمثالِ» (١١٨٠).

في التفريق بين الأمرين. وقوله: (وَأَنْ تُؤْذِيَ جَلِيسَكَ بِمَا تَأْتِي مِثْلَهُ): استعمل هنا التلويح إشارة إلى ما يصدر من الرجل فيؤذي به جليسه، ولم يصرِّح بذكره تلطُّفا منه رضي الله عنه. واستعمل (ما) الموصولة التي تفيد العموم؛ ليشمل الكلام كلَّ ما قد يسبب الإيذاء، كالهيئة والرائحة والحركات ونحوها.

[٦٥٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أَفَادَ امْرُؤٌ فَائِدَةً، بَعْدَ إِيمَانٍ بِالله - عَزَّ وَجَلَّ -، خَيْرًا مِنِ امْرَأَةٍ حَسَنَةِ الْخُلُقِ، وَدُودٍ وَلُودٍ. ومَا أَفَادَ امْرُؤٌ فَائِدَةً، بَعْدَ كُفْرٍ بِالله - عَزَّ وَجَلَّ -، شَرًّا مِنِ امْرَأَةٍ سَيِّئَةِ الْخُلُقِ، حَدِيدَةِ اللِّسَانِ، وَالله إِنَّ مِنْهُنَّ لَغُلًّا مَا يُفْدَى مِنْهُ[1]، وَإِنَّ مِنْهُنَّ لَغُنْمًا[2] مَا يُحْذَى مِنْهُ[3]»[4].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**لغُلا**): سبق بيان معنى الغُلِّ عند شرح النصِّ رقم تسعة وثمانين وخمسمئة. وقوله: (**ما يُحذى منه**): أي ما يُعطى أو يُهدى منه؛ لعزَّته ونفاسته. ومنه قول النبي ﷺ: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ؛ فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ...**».

١- لا يُفْدَى منهُ، أي: لا يُتخلَّصُ منهُ لِشدَّتِه. «التَّرغيب والتَّرهيب» لقوَّام السُّنَّةِ ٢/ ٢٥١.

٢- غُنْمُهُ: زِيادتُهُ ونَماؤُهُ وفاضِلُ قِيمَتِه. ومِنهُ الحديثُ: «الرَّهْنُ لِمَنْ رَهَنَهُ، لَهُ غُنْمُهُ، وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ». «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (غنم).

٣- ما يُحْذَى منهُ؛ أي: ما يُعطَى منهُ لِعزَّتِه. «التَّرغيب والتَّرهيب» لقوَّام السُّنَّةِ ٢/ ٢٥١.

٤- رواهُ ابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (١٠٧٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٧١٤٢)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٦٨)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ٧/ ٢٤٣، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرى» (١٣٤٧٩) و(١٣٤٨٠)، و«شعبِ الإيمانِ» (٧٦٨٠) و(٨٣٥٠)، وابنُ عساكرَ في «مدحِ التَّواضعِ» (٢٠)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» (٥٩٨) بلفظِ: «مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا، بَعْدَ الْإِيمَانِ بِالله، أَفْضَلَ مِنِ امْرَأَةٍ وَلُودٍ وَدُودٍ، حَسَنَةِ الْخُلُقِ. وَلَا أَصَابَ عَبْدٌ شَيْئًا بَعْدَ الْكُفْرِ بِالله أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنِ امْرَأَةٍ سَلِقَةٍ، لَهَا لِسَانٌ حَدِيدٌ، سَيِّئَةِ الْخُلُقِ».

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين ﵁ منزلة المرأة الصالحة والمرأة السوء وأثرهما في حياة الرجال، ضاربا لكلٍّ منهما مثلا يقرب المعنى الذي يريده.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا أَفَادَ امْرُؤٌ فَائِدَةً بَعْدَ إِيمَانٍ بِالله - عَزَّ وَجَلَّ - خَيْرًا مِنَ امْرَأَةٍ حَسَنَةِ الْخُلُقِ، وَدُودٍ وَلُودٍ، ومَا أَفَادَ امْرُؤٌ فَائِدَةً بَعْدَ كُفْرٍ بِالله - عَزَّ وَجَلَّ - شَرًّا مِنَ امْرَأَةٍ سَيِّئَةِ الْخُلُقِ، حَدِيدَةِ اللِّسَانِ**): استعمل أسلوب المقابلة؛ ليبيِّن مدى الفرق بين من رُزق زوجة حسنة الخلق ومن رُزق زوجة سيِّئة الخلق. ومجيء (**امرؤ**) في سياق النفي في الموضعين يفيد العموم؛ فالكلام هنا عام، لا يختصُّ بفئة معيَّنة من الناس. وتنكير (**فائدة**) في الموضعين للتعظيم. والتعبير بالفائدة في الموضع الثاني من باب المشاكلة اللفظية وفيه نوع تهكُّم، وإلا فالحاصل هنا ضرر لا فائدة. وتنكير (**إيمان**) و(**كفر**) للتقليل، والمقصد أن الفائدة في الموضع الأول تأتي مرتبتها بعد أن يتحقَّق في العبد أقل الإيمان بالله، وفي الموضع الثاني تأتي بعد أقل الكفر بالله الحاصل من العبد. وفي قوله: (**ودود ولود**): استقصاء في ذكر الصفات الجامعة للمرأة المثالية، وبين اللفظين جناس ناقص. وفي قوله: (**حديدة اللسان**): اكتفى بذكر هذه الصفة من صفات المرأة السيِّئة إشارة إلى أن هذه الصفة هي الصفة الجامعة للشرِّ في المرأة. ووصف اللسان بالحدَّة إشارة إلى نفوذه، كما في قول الله - تعالى - واصفًا المنافقين: ﴿**فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ**﴾ [الأحزاب:١٩]. وقوله: (**وَالله إِنَّ مِنْهُنَّ لَغُلًّا مَا يُفْدَى مِنْهُ، وَإِنَّ مِنْهُنَّ لَغُنْمًا مَا يُحْذَى مِنْهُ**): أعاد هنا استعمال أسلوب المقابلة؛ ليقرِّر الفرق بين الزوجة حسنة الخلق والزوجة السيِّئة الخلق، ولكنه عكس الترتيب هنا فقدَّم ذكر المرأة السيئة على ذكر المرأة الصالحة، وفي ذلك حسن ابتداء وحسن اختتام؛ فحسن الابتداء أنه بدأ كلامه بالحديث عن المرأة الصالحة تفاؤلًا

بها، وحسن الاختتام أن ختم كلامه بذكرها استئناسًا بالحديث عنها. وفي كلامه عن المرأة السيئة هنا بدأ بالقسم؛ إشارة إلى تحسُّره من واقع أليم مشاهَد، وشبَّه المرأة السيِّئة بالغُلِّ في عنق زوجها لا يستطيع أن يفدي نفسه منه. وبنى الفعل (**يفدى**) للمفعول؛ إشارة إلى أن الزوج لا يستطيع هو ولا غيره تحقيق هذا الفعل. وعند حديثه عن المرأة الصالحة شبَّهها بالغنيمة التي لا يفرِّط بها صاحبها. وبين (**الغُلا**) و(**الغُنما**) جناس ناقص، وكذا بين (**يُفدى**) و(**يُحذى**).

الفهرست

تمت بحمد الله